

السعيد الخيزر

ابن الصلصال

حكاية من أراضى القلق

الرواية حاصلة على جائزة
الطيب الصالح
لعام ٢٠٢٠



كايان
KAYAN PUBLISHING

ابن الصّال
حكاية من أراضى القلق
رواية

السعيد الخيز

ابن الصَّلَاح حكاية من أراضى القلق: رواية /السعيد الخيز .

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2022.

288 صفحة، 20 سم.

تدمك : 9789778201154

1- القصص العربية

أ- العنوان : 813

رقم الإيداع : 28073 / 2021

الطبعة الأولى : يناير 2022.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

4 ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني – الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين.

©جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

ابن الصّصال
حكاية من أراضى القلق
السعيد الخيز
رواية



إهداء

إلى الغالية أمي رمز الحنان والحكمة والصبر،
إلى روح عزيزة، حماتي الحاجة ماماس إيشو رمز الحب والنور واليقين.

الفصل الأول

أعتقد أنني كنت على حق بخصوص قراراتي البسيطة ومواقفي من الحياة؛ لذلك لا أندم ولذلك أيضاً أنتظر الأيام القادمة؛ لتثبت لي أنني الآن على حق ... ربما ... أرجو أن تثبت لي عقارب الساعة أنها لا تعود للوراء، وأنها لا تتلاشى إلا رفقة سالفادور دايلي، تساءلت يوماً لم كانت ساعة الحائطية حزينة؟ لا يهمني حزن السالفادور وهو يفتح علبة اللون الأصفر ويحدد الريشة الوسطى للرسم ويخلط الألوان. ما يهمني هو الساعة نفسها التي لم تكتف بالتوقف بل ذابت على الحائط لقد كانت تشير إلى توقيت الموت وجسدي يشير أيضاً إلى توقيت الموت. أما حزني فلا يهمني، يمكن بجرة قلم أن أخطه على الورق وأخذ معه صورة للذكرى فقط، وتلك الأحجار المتكلسة على صدري المختق ستندرج ... ربما ... لست متأكدًا تمامًا، الأزمنة القادمة ستفعل. أتمنى أن تكون هناك أيام قادمة.

ليست أحجاراً متكلسة، إنها عُقدي للمفاوية التي تحاول الدفاع عني.

شارد هذا الجسد الذي يحملني، تخدعني البوصلة وتوجهني نحو الحنين وشجر الزيتون، أبيع ذاكرتي وأشتري لي بيتاً في السكينة والحلم، أحلامي لا تبشر بخير، هي أيضاً منهكة ومريضة. من يشتري ذاكرة الخراب المقدس في داخلي؟ علب سوداء وتفاصيل من ممرات الحياة. ما هذا العالم المهترئ المندس في داخلي؟ بيني وبين الآخر مسافة ضجيج، وأنا لا أقوى على مهمات الطريق.

لم أكن دائماً قرب المواعيد الخاطئة زماناً ومكاناً؟ لم أصادق الظلال الحزينة غالباً؟ أمرُّ قرب الفرح الهارب وألاحق خيوط أطرافه المتسرّبة من بين يدي كالرمل السحيق. كالأيام تمر الأفراح دون أن نستطيع القبض عليها. كالصدي الأخير لأجراس الكنائس القديمة المملأ بالمؤمنين الحائرين وأصحاب الاعترافات السرية المظلمة.

اسمي سولال، سولال رشدي، من مدينة تارودانت جنوب المغرب، يقولون إن من أسس هذه المدينة هو مُحَمَّدُ الشَّيْخِ السَّعْدِيِّ، بنى سورها الكبير الذي يحيط بها، ولكن بعض الآثار تعود إلى حضارات تاريخية غابرة، فقد مر الرومان والوندال من هنا وتركوا بعض العمران والفخار، كل هذا لا يهم، المهم أنني هنا، أعيش حياتي التي سأحكيها لكم وأنا أعلم أن لا حياة قبل الحب، وأن الإنسان يبدأ باستكناه العالم حين يتبعثر بأول شعور وجودي في العالم ... الحب، هناك يحاول استجماع فكره، إحساسه، ذكرياته؛ ليصنع لنفسه مساراً، مساراً يضع فيه جسده ويتركه في مهب الأيام، مسار يتعدل بمجموعة من القرارات البسيطة. في حياتي كلها اتخذت قرارات بسيطة جداً، ما لا أستطيع أن أنكره أنني لي توأمًا في هذه الحياة، عندي صديق، هو بدوره يتخذ قرارات بسيطة جداً في حياته، إلا أن حياتنا تشابكتا بشكل يستحيل أن تفصلهما دون جراح عميقة، توأم سيامي، مرتبط بالصدقة والفكر والإحساس واليومي. اسمه سمير، سمير يسران، طويل القامة وشعره أسود، يغير تسريحاته كلما اتخذ قراراً بسيطاً، رغم كل محاولاته ليبدو مهندماً تنفلت منه بعض التفاصيل، غالباً ما يكون سرواله مطبوعاً من الركبة، أو تبقى ياقة قميصه مرفوعة من جانب دون آخر، أو ينسى زراً في

الوسط فيظهر لباسه من الأسفل، والأمر من ذلك أنه ينسى دائماً رفع سحب سرواله، أو غلق أزراره إن كان يرتدي سروالاً جينز، يحاول بشدة أن يكون أنيقاً دون فائدة، ينسى دائماً مواءمة الألوان على جسده، وكان يميل للألوان الفاقعة، الطبيعية، ربما لأنه عاش طويلاً في الجبال حيث تعد الألوان الرمادية انحطاطاً في الذوق.

ولكن الشروخ تحدث حتى في أعرق الصداقات ليبقى مكانها كباقي الوشم في راحة اليد. أطلال تكابر داخل ذكرياتنا وتاريخنا الشخصي.

سولال رشدي مختلف شكلاً عن إخوته، شعره أشقر يميل إلى الحمرة وعيناه رماديتان زرقاوان فاتحتان، طويل القامة ومرتب الهدام، إنه مختلف جداً، حتى اسمه الذي لم يجد له مرجعاً عربياً ظل لوقتٍ طويلٍ يؤرقه، لم أقف عند الاسم كثيراً، فهناك أطنان من الأشياء الأخرى التي تؤرقني، وحين أقول تؤرقني فأنا أعني بذلك الأرق اليومي الذي يبعثر الليالي.

أحياناً، أشعر بالتوتر منذُ الساعات الأولى للصباح، يحدث أنني أرغب في قول شيء ما لذاتي خصوصاً، تأتي الرياح وتأخذ أفكارني بعيداً عني وترميها في بحر النوات الشاردة، ها أنا أحمل جسداً وهذا الجسد بحمل ندوباً وهذه الندوب تحمل ذكرياتٍ، وهذه الذكريات أليمة، صور من الدم والنار والعبث والقهر والفقر والبراءة، ها أنا أحمل جسداً أو يحملي جسد مطبوع بملصقات لأفلام قديمة كما على واجهة سينما الصحراء*، أريد أن أعيش مثلما حتى لا تدركني المساءات الحزينة بعد اليوم، أنا من أصفياء المواجه والمرائي، لا أريد أن أموت الآن، ما زلت أريد اختبار الفرح إن كان يليق بي. إنه يليق بي. لقد عشت حياةً هادئةً جداً، لا شيء يعكر صفوها غير بعض القلق اليومي والأرق الذي يزعجني كل ليلة. هذا الجسد المكابر الذي سنّ لنفسه طريقاً أخرى وبدأ يأكل بعضه. يقول الطبيب إن بعض الخلايا تأكل الأخرى. الأمر غريب. أنا أكل نفسي. رموشي تتغلق على أيام عشتها وأنا أراهن على جودتها. صنعت لنفسني عالماً جميلاً، لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك. أطل من غرفة المشفى على مطعم الإقبال عليه كبير. بخيمة صحراوية من وبر الماعز في مدخله، أنا فخور بالمطعم وفخور بنفسني.

المرضة تحضر الحقن اليومية وتحاول بفضول الاطلاع على الأوراق البيضاء التي سودتها تسرق نظرة سريعة وتساألني:

- أنت من كتب هذا؟

- لا، أيامي هي التي كتبتة.

- عليك أن ترتاح لا أن تسهر وأنت تسود الصفحات.

- أنا أرتاح بتسويد الصفحات.

- لَا بُدَّ أَنْكَ تَكْتَبَ حَيَاةَ مَلُؤَهَا الْعِنَادَ سَيِّدِ سَوْلَالِ، وَتَضْحَكُ لِأَنَّهَا كَانَتْ فَفَقَطْ تَدْعِي الْعُضْبَ وَتَخْفِي طَيِّبَتَهَا الطَّافِحَةَ.

- أَرِيدُ قَبِيلَةَ.

- وَهَلْ تَقْدِرُ؟

- وَأَكْثَرَ.

- وَمَا بَعْدَهَا؟

- وَأَبْعَدَ.

وَتَقْهَقُهُ بِصُخْبٍ يَغْضِبُ الطَّبِيبَ الَّذِي رَمَاهَا بِنَظَرَاتٍ شِزْرَةَ وَهُوَ يَدْخُلُ لِلْقِيَامِ بِجَوْلَتِهِ الصَّبَاحِيَةِ فِي قِسْمِ الْأَنْكُولُوجِيَا.

- كَيْفَ حَالُكَ سَيِّدِ سَوْلَالِ؟ قَالَ الطَّبِيبُ.

- إِيَّيْ بَخِيرَ، أَتَنَاوَلُ نَفْسِي كَمَا قَلْتِ لِي. أَكَلْتُ بَعْضِي.

- سَأَخْبِرُكَ بِشَيْءٍ مَحْزِنٍ سَيِّدِ سَوْلَالِ.

- مَا أَدْرَاكَ لَعَلَّهُ يَكُونُ أَقْلَ حَزْنًا مِمَّا رَأَيْتَ.

- عَمَلِيَّةُ زَرْعِ النَّخَاعِ الذَّاتِي لَمْ تَنْجَحْ، سَنَبْدُ بِرَوْتوكوَلَا جَدِيدًا وَنَعْدُكَ لِعَمَلِيَّةِ زَرْعِ النَّخَاعِ مِنْ مَتْبَرَعٍ. لَدَيْنَا اتِّصَالٌ بَيْنَكَ الْخَلَايَا الْجِذْعِيَّةَ لِنَحْصِلَ عَلَى خَلَايَا مِنْ نَفْسِ صَنْفَكَ.

- تَقْصِدُ أَنَّي سَأَكُلُ خَلَايَا شَخْصٍ آخَرَ هَههه.

- تَعْجِبْنِي مَعْنَوِيَاتُكَ.

- إِنَّهَا كُلُّ مَا أَمْلِكُ. أَحْتَاجُ بَعْضَ الْوَقْتِ لِأَسْوَدِ الْأَوْرَاقِ الْمَتَبَقِيَّةِ وَأَقْبَلُ الْمَرْمُضَةَ وَأَطْلُ أَكْثَرَ عَلَى مَطْعَمِ الشَّنْقِيْطِيَّةِ الصَّحْرَاوِي. هَذَا كُلُّ شَيْءٍ.

- سَتَقْبَلُ كُلَّ الْمَرْمُضَاتِ وَالطَّبِيبَاتِ وَسَتَتَنَاوَلُ طَعَامَكَ بِالْمَطْعَمِ. لَا تَتَسَّ أَنْ الْعِلْمُ تَقْدَمُ كَثِيرًا فِي الْمَجَالِ.

كَلَّ مَا أُرِيدُهُ الْآنَ أَنْ أَبْقَى وَحْدِي رَفَقَةً ذَكَرِيَّاتِي لِأَخْطِطَ مَا مَرَّ بِي هَذِهِ الْخَمْسَ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. أَنْتَظِرُ أَنْ تَفْرَغَ الْغُرْفَةَ مِنَ الطَّاقِمِ الطَّبِيِّ لِأَتَفْرَغَ لِلْكَتَابَةِ.

قَلْتُ إِذْنِ إِيَّيْ:

أَعِيشْ حَيَاتِي الَّتِي سَأُحْكِيهَا لَكُمْ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنْ لَا حَيَاةَ قَبْلَ الْحُبِّ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَبْدَأُ بِاسْتِكْنَاهِ الْعَالَمِ حِينَ يَتَبَعَثُ بِأَوَّلِ شَعُورٍ وَجُودِي فِي الْعَالَمِ، الْحُبِّ، هُنَاكَ يَحَاوِلُ اسْتِجْمَاعَ فِكْرِهِ، إِحْسَاسَهُ، ذَكَرِيَّاتِهِ؛ لِيَصْنَعَ لِنَفْسِهِ مَسَارًا، مَسَارًا يَضَعُ فِيهِ جَسَدَهُ وَيَتْرَكُهُ فِي مَهَبِ الْأَيَّامِ، مَسَارًا يَتَعَدَّلُ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْقَرَارَاتِ الْبَسِيطَةِ.

نَعَمِ الْأَمْرُ صَاحِحٌ.

الْحُبُّ هُوَ الْمَبْتَدَأُ وَالْمُنْتَهَى، فَلِنَبْدَأْ إِذْنِ.

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالضَّبْطِ مِنْ سَنَةِ 1999 حِينَ عَلِقْتُ نَتَائِجَ الْبَاكَالُورِيَا عَلَى سَبُورَةِ الْإِعْلَانَاتِ الْمَغْطَاةِ بِالزَّجَاجِ، نَظَرْتُ إِلَيْهَا، هِيَ لَمْ تَرْنِي، عَرَفْتُ أَنَّنَا سَنَفْتَرِقُ، كُنَّا أَصْدِقَاءَ فَقَطْ، تَجَاوَزْنَا الصَّدَاقَةَ بِقَلِيلٍ مِنَ الْغَيْرَةِ، حُبُّ الْإِ رِبَعٍ، كَأَنَّكَ تَرْتَدِي سِتْرَةَ خَضْرَاءَ وَتَتَوَرَّعُ قَصِيرَةً جَدًّا بِاللَّوْنِ الْأَخْضَرَ أَيْضًا، تَجَاهَلْتُ نَظْرَاتِي، رَغْمَ أَنَّهَا رَأَتْني أَحُومُ دَاخِلَ عَيُونِهَا، بِرَيْقِ عَيْنِي، بِرَيْقِ عَيْنَيْهَا، الْمَطْرُ الْخَفِيفُ الَّذِي سَقَطَ آنَ ذَاكَ، سَبُورَةُ الْإِعْلَانَاتِ، لِأَنَّهَا الْفَاتَاةُ الْعَادِيَّةُ الَّتِي يُمْكِنُنِي الْمُرُورَ قَرِيبَهَا دُونَ أَنْ أَنْتَبِهَ، لَيْسَتْ الْفَاتَاةُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي تَعْبُرُ الشَّارِعَ وَتَتَثِيرُ فُضُولَكَ لِلْحِظَاتِ، كَأَنَّكَ هِيَ، انْجَذَبْتُ إِلَيْهَا لِسَبَبِ أَجْهَلِهِ، عَرَفْتُهُ فِيمَا بَعْدَ، شَيْءٌ فِي عَيْنَيْهَا يَقُولُ لِي تَعَالِ، كَأَنَّكَ لِي جِرَاةُ الْإِقْتِرَابِ مِنْهَا وَلَمْ سَهَا وَالضَّغْطِ عَلَى ذِرَاعِهَا الْأَيْمَنِ، كَأَنِّي أَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّهَا لَيْسَتْ طَيْفًا أَحْلَمُ بِهِ، لَا أُدْرِي، لَمْ يَحْدِثْ ذَلِكَ فِي آخِرِ مَرَاكِلِ الدِّرَاسَةِ الثَّانَوِيَّةِ كَأَخِرِ دَرَسِ أَتَعْلَمُهُ، أَجْمَلُ دَرَسٍ هُوَ ذَاكَ الَّذِي لَا امْتِحَانَ بَعْدَهُ، ذَاكَ الَّذِي لَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ ضَبْطِكَ لِمَفَاهِيمِهِ إِلَّا بَعْدَ سِنَوَاتٍ وَدُونَ امْتِحَانٍ ... هَلْ سَتَكُونُ تِلْكَ الْعَيُونَ لِي؟ أَصَابَتْنِي الْحَيْرَةُ. هَلْ أَنَا مَتَأَكَّدُ مِنْ أَنِّي أَمْضَيْتُ مَعَهَا ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ؟ هَلْ هِيَ نَفْسُ الْفَاتَاةِ؟ وَالْمَطْرُ الْخَفِيفُ وَبَاقِي الطَّلِبَةِ غَادَرُوا مَسْرَحَ الدَّرْسِ الْآخِرِ فِي الثَّانَوِيَّةِ، فَرِحَةُ نِجَاحِي بَلْ تَقُوقِي وَازْتَهَا مَشَاعِرَ حَائِرَةً تَجَاهُ إِنْسَانَةً بِشَعْرِ حَرِيرِي أَسْوَدَ فَاحِمٍ، فَاحِمٌ جَدًّا، تِلْكَ نِعْمَةُ الْأَسْوَدِ، رَحَلْتُ عَلَى الْفُورِ أَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ أُدْفِنُ فِيهِ إِحْسَاسِي الْغَرِيبِ، مَرَرْتُ قَرَبَ مَسْجِدِ الثَّانَوِيَّةِ دَخَلْتُهُ، خَرَجْتُ مِنْهُ دُونَ أَنْ أَصْلِي، كَيْفَ أَصْلِي وَهِيَ أَمَامِي؟ اسْتَقْبَلْنِي الْحَارِسُ الْعَامُّ لِيَهْنِئَنِي فَاتَحًا ذِرَاعِيهِ لِيَحْضَنَنِي فَسَلِمْتُ عَلَيْهِ سَلَامًا بَارِدًا، فَكثِيرًا مَا شَكَّكَتُ فِي نَوَايَا أَحْضَانِهِ. كُنَّا نَحْنُ تَلَامِيذُ الثَّانَوِيَّةِ نَعْلَمُ جَيِّدًا أَمْرَاضَ الْحَارِسِ وَالْأَسَاتِذَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَنَحْتَاطُ مِنْ مَعَاشِرَتِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ. الْحَزْنُ الْمَغْرِبِيُّ حَزْنٌ جِنْسِي.

ذَهَبْتُ بِقَفَّةٍ مَشَاعِرِي إِلَى الْمَكَانِ الْأَحْبَبِ إِلَيَّ فِي الثَّانَوِيَّةِ تَحْتَ شَجَرَةِ الْإِبْزَارِ الْمَكْسِيكِيِّ بَيْنَ بَابِ الدَّخْلِيَّةِ وَمَكْتَبِ الْمَقْتَصِدِ الْمَتْرَمْتِ، هُنَاكَ بَقِيتُ وَحْدِي سَاعَةً سَاعَتَيْنِ وَرَبْمَا أَكْثَرَ، لِمَاذَا أَنْتَظَرْتُ ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ لِأَشْعُرَ بِضَرْبَةِ هَزْتِ كِيَانِي؟ وَسَقَطَ الْمَطْرُ أَيْضًا. لَمْ أَرُدْ شَيْئًا مِنَ الثَّانَوِيَّةِ اللَّيْسِي، أَرَدْتُ أَنْ أَخْرَجَ بِكُلِّ قَوَايِ الْعَاطِفِيَّةِ وَلَكِنِّي فَشَلْتُ، فَاشْلُ دَوْمًا خَارِجَ وَرَقَةِ الْامْتِحَانِ، هَكَذَا أَحْسَسْتُ

أني طالب فقط ولست إنساناً. وقلبي أيضاً حولته إلى ذاكرة حتى أنني أحفظ عن ظهر قلب، وحتى مزاحي مع إدهان وتمدد أعضائي أحياناً كان بيولوجيا عابرة، ولكن هوسي هذه المرة بعيونها فقط وشعرها الفاحم، الآن فقط امتلأت قصائد الرياح بالمعاني، أه سامحني أيها الشعر، سامحيني أيتها النثرية كنت أجهل روحك، أن أبقى وحدي معناه أن أردد: مطر مطرٍ ومنزل الأفتان وجيكور. امتلاً شعر الرياح حمولة أثقل فكننت لأول مرة أقول ملء المعنى: أحب كل هذا؟ أخبريني!

كنت أشك في كل شيء، تنقضي الثقة في النفس، وضعت كل ثقتي في شعر الرياح فقط؛ لأنه كان يتألم مثلي، وأنا كنت طيلة تلك السنوات أبني جسداً خرباً بهرمونات صناعية، ها أنا ذا أتطفل على همس الحب. عالم متوهج من الاضطراب أدخله بشهادة بكالوريا مستحقة بدرجة حسن حبا حسن عشقا حسن أمرا لا خبرة للقلب به، لا سابقة تاريخية لجسد متأخر في كل شيء، ها هو الكيان يعلن الحضور بإعلان نتائج ميكانيكية. الإنسان الموازي الذي قمعته من أجل ورقة ينتفض مباشرة. بعد أن رسي المركب بمرفاً الليسي، الليسي حياة، الليسي شريان ضحك ما ضحك في آخر يوم، الإدارة تعلن لوائح الناجحين وأنا أعلن الحب على نفسي كرجل خان القوائد. فكرت حينها في نجيب محفوظ وحراره وكل ما كتبه عنه في ورقة التحرير، لم أكن أهوى رسم القلوب المسهمة على دفاتري، لم أكن أعشق روايات الرومانسية الحاملة، لم أكن أفهم لغة الغيرة والعذاب والوجد. لم أكن أعرف أن الحب سينتقم مني قبل أن أغادر بخطوة واحدة.

ورداً المطر ...

المطر مؤنسي دوماً في الانعطافات الحادة من حياتي ...

مطر وماء ينبعث من نافورة ويتسرب إلى داخلي ببطء اللافهم، بدهشة اللافهم، بغرابة ما يحدث لي، كان عليّ الاستجداد بصديق، لم يكن هناك صديق، الصداقة معنى آخر أسسته بتوالي الخيبات.

كان هناك مطر فقط، لا أحد كان مستعداً له، لا معاطف ولا مطريات، مطر أواخر يونيو لا يروي الثرى بل يروي عطشى الحب مثلي، لم يكن هناك صديق، الأمر ليس محزناً، كلا كان هناك رجل آخر مثلي أربته إمكانية الفراق الأبدي، ففي مفترقات طرق كهذه البكالوريا اللعينة لا تعلم بالضبط هل سترها مرة أخرى أم لا. كل شيء كان يُنذر بالفراق؛ ضربات قلبي المتسارعة، زخات المطر على ماء النافورة، ضجيج الطلبة، كل شيء مربك، اتفقوا على قتلي ورمي جثة غير هامة نابضة باللامتوقع، ضداً على ارتباك ما حولي وضداً على انفلات الزمن وضداً على رجل آخر.

أحسست أن قلبي المريض ازدادت دقاته عدداً، أنا الذي كنت أتناول طيلة عام دراسي حبوب ضبط دقات القلب، أحسست أنني سأموت، سأموت بضربة حب تحت المطر، فليصدقني أحد، خفت كثيراً، ذهبت إلى المرافق الصحية، فتحت جميع الصنابير مرة واحدة، احتجت أن أفعل شيئاً جنونياً، فكرت في اقتحام مكتب الناظر لأطلب منه شهادة إعفاء من العشق بدل شهادة البكالوريا، ما أخطر ما

يحدث وقلبي ضعيف نسيجه، تصورت أن الطيبية هذه المرة ستقول إنني تكاسلت مرة أخرى عن الركض، وأن عدد الضربات الزائدة بلغ الموت؛ غسلت وجهي، غسلت رأسي كله في جميع الصنابير، هل تحدث أشياء كهذه عادة، ألا أهدع نفسي، فكرت أن أقبّلها أن أحضنها أمام الجميع، سأفعل وأطلب منها بعد ذلك أن تسامحني، ألم أفعل سأشعر بإحباط طول حياتي، سأتهور إذن، التلميذ الهادئ الذي كنته طيلة ثلاث سنوات سينفجر حبًا سيفعلها ويسقط في عيون أستاذ الإسلاميات على الخصوص، ستفرح أستاذة الإنجليزية الشقراء وتصفق لي.

مر قربي تلميذ آخر أعرفه لكني لم أكلمه قبلاً، أغلق الصنابير وهُوَ غاضب. قَالَ لي:

- ما لك أصاحبي حالهوم كاملين؟

ماذا سأقول له هل أقول له إن روعي تنسكب عبر صنبور قلبي وأني أموت ماءً، هل سيفهمني؟

لا أحد يفهم الآخر لكن على كل واحد أن يساعد الآخر كيفما كان الوضع ...

قَالَ لي ميروك سيد الشعبة الأدبية؟ شكرت لطافته وعانقته، هُوَ من عانقني مباركًا إنجازي. عانقته بخفة لأنني كنت مكهربًا وَلَا أشعر بجسدي.

عدت بعدها لشجرة الإبزار الكاذب أو المكسيكي، وقبل أن أصلها وقفت مقابل حائط الداخلية. كان باردًا التصقت به لأعانه، لأمسكه، كنت كعنكبوت متشبث به ملصق وجهي به، قلت: يا الله، أحبها.

ضربته بقوة كبيرة، لم أتألم فلا ألم أكبر من أن تصبح بالون هواء فارغ، جلست تحت شجرة الحب قرب مكتب المقتصد جلست دقيقة فقط، ثم قمت لأحضنها إنَّها دافئة، أبحث عن أي شيء أحضنه، وأنا أعلم أن المقتصد يراقبني فكثيرًا ما كان يراقب تلك الشجرة، التصاقي العشقي بها سيجعله يكتب تقريره المعتاد، سيقول إنني ضاجعت شجرة الإبزار الكاذبة. لقد ضاجعت شجرة الحب إذن. كتعويض عن فضيحة سنهز أركان التربية الوطنية، سأعانق شجرة بدلاً عنها، على هامش الليسي وليس وسط الساحة، هكذا تكون الفضيحة بأقل خسائر ممكنة. جذع ميلل بالمطر، ومقتصد الليسي واقف تجاهي كأنني ارتكبت جرماً، ينظر بخبث إلى حزامي، كان هناك ماء مطر، وأعضائي كانت منكمشة على روعي، لا جسد لا جسد، كان مطراً كان شجراً.

لا أدري كيف عدت إلى البيت. صعدت سور الثانوية الخلفي وقفزت، لم أخرج من الباب، لم أودع أحداً، ودعت نفسي فقط، تركت شخصاً وارتيديت شخصاً آخر، دخلت البيت وقد سبقنتي أخبار نجاحي إلى البيت وجدت جارتنا تزغرد، تزغرد بفرح، زغردة حادة بصوت جبلي، احتقلت مع إخوتي البنات وأخي الصغير وأمي الشنقيطية السمراء، ودخلت غرفة، لا أقول غرفتي فلنست لي

غرفة خاصة وتلك عقدة أخرى، يراحمني هذا الكائن الذي يختلف عني شكلاً ولوناً ويسمونه أخي الصغير.

أعدت أمي وجبة عشاء بالمناسبة، نصف خروف في أربع طواجن فخارية متوسطة، طبعاً لئست كلها لنا، واحد للمسجد والآخر للجارات المحتفلات بنجاحي وواحد لأبي في سوق الصوف مع أصحابه من تجار السوق.

أربعة جدران، على كل جدار صورتها وهي تضع كحلاً لعينيها، يا إلهي، صليت شكرًا لله ومع التشهد هجمت عليّ مشاعر متناقضة كنت فرحًا جدًّا، وحزينًا جدًّا، كنت حائرًا وأحبها، شعرت بها تسكنني، تراقبني، تذبطني، يا إله الماء والنار أطفئ نار قلبي ...

نظم الآخرون حفلة في مقهى نادي التنس، حفلة نجاح جمعت تلاميذ القسم، وبعض الشعب الأخرى، ولم يدعني أحد، شكلت لهم دومًا استثناء كأني من كوكب آخر بمعدلاتي الخيالية، الأول على صعيد مدينة بها خمس ثانويات، كيف استطاعوا أن ينسوني؟ لماذا همشوني؟ كيف يجروء الإنسان على فعل مثل هذه الأشياء، كيف يجب أن أحس؟ أن يهتموا بي لا يعني أن يزيلوا آلام الحب، فبعض الجراح لا يستطيع أحد مداواتها؛ إما أن تتفسخ وإما أن تلتئم تلقائيًا. كل ذلك لا يهم، عليّ أن أركز كالعادة على نفسي فقط. زملائي لديهم مشكلة كبيرة مع اجتهادي. يا لقلوب المراهقين. كنت أكتفي بنظرة من عيني الرماديتين وأمضي في لامبالاة بكل من وما حولي.

وجرحي أنا يكبر، سأموت حبًّا، ومن طقوس الموت حبًّا أن تنام على ظهرك وتتنظر في سقف الغرفة طيلة الظهرية وكل المساء وكل الليل، قلت لأمي إن المراجعة عادت عليّ بتعب كبير جدًّا، اقتنعت وتركتني لنفسي، يشاغبني طيفها الجميل، إنها رائعة، هذا مفروغ منه، وأمي لا يمكن أن تترك حتى لو كان مرضك مجرد تعب بسيط. أحضرت زينة بالكثير من الأعشاب والعطور كما تسميها وهجمت عليّ بتدليك ظهري وعنقي وهي تسخن يديها على مجمر صغير، وأبعدت عني نور الدين لينام بغرفة الضيوف.

مضت ثلاثة أيام أنام ساعتين كل يوم، وكيس تعب يكبر ويكبر تحت عيوني، ويزداد سوادًا، قلق كبير من المستقبل، كل هواجس ما بعد المراهقة ومخاوف التعليم العالي وسفري المزمع للرباط وهي وجسدي المحمل بالتاريخ. كيف أنام وأنا مسرح عمليات ذبح شعري، لفتت نفسي في غطاءين ثقيلين كي لا أفكر فيها، ضغطت على رأسي بقوة، دون جدوى، كنت أطرد طيفها من ذهني، بدأت عداوة غير معلنة تتشكل بيننا، ففكرت، أليس ممتعًا أن أداعب طيفها وأرحب به في كياني؟

قرارات متهورة، بل بسيطة جدًّا، لن أذهب للجامعة، لن أذهب لمدرسة علوم الإعلام، أكره أطر الصحة، سأبقى هذه السنة بالبيت.

لكنها قرارات حبيسة ذهني لن أخبر الحاجة بها الآن، وإلا أفرغت زيتها الساخن على عيوني هذه المرة بدل تدليك ظهري وعنقي.

تكومت قرب سرير أمي أنتظر فراغها من أشغال البيت الكبير التي لا تنتهي؛ لتحمل لي الحكاية الصحراوية التي تقسمها لأربع أو خمس حلقات وتبدأها دائماً بقولها: أين تركنا الشيخ؟ وأين تركنا ناقته؟ وأين وتدنا الخيمة؟ ومن يوجه القافلة؟

تقول أمي:

لا تثق في الصحراء، ولا في الخيمة وأوتادها، ولا حتى في بئر عامر في الخلاء المقفر ... ثق فقط في ناقتك وصبرها ... الناقة تحكي عبر المضغ، وهي تمضغ العشب والشوك والجذور اليابسة، في أناقة المضغ كأنها أميرة الفلات، حنونة ضرعها سخي كأى امرأة خبرت طعم الأمومة، تُدِّي مرضعاً أحناً على المرء من نهدٍ جافٍ كالصحراء، انظر في عيون الناقة ولا تزعجها فهي حُبلى بالأساطير ... أهدأ بها خيوط فجر ولحظات غروب، ادخل عمقها لتسمع الحكمة وصدى الأمثال والنوادر من تاريخ الطوارق واصطدامات الصخور بواحات الجنوب، إنها تسرد قصص الحب غالباً فافتح قلبك، حين تكون في الصحراء لا تنتظر مرور الوقت فالوقت هناك لا يمر.

تقول أشياء من هذا القبيل، ولكني أحب صياغتها من جديد في مذكرتي الحمراء.

بعد أن تنهي الشنقراطية طقس الحكي تتركني في حالة ذهولٍ وأتخيل الصحراء والنوق والرمال الساخنة والبئر في قلب الواحة، عالم من السعة والحياة، بعد كل طقس حكي أخذ مذكرتي الحمراء الصغيرة وأكتب عليها ما يشبه نصاً صحراوي النزعة.

أكتب مثلاً:

بين الصحراء والجبال الكثير من الصخور الحمراء، صخور فقط يتركز فيها معدن الحديد، صدئة كقلبي، على السمراء أن تصقلني، البارحة ظلت تنشد قصائد التبراع في حقي، وكنت أنظر الى جسدي في نزعة استعرائية، السمراء تحييني، تسكب داخلي ماء حياة من قلب النخلة المجاورة، السمراء تقتلني ...

صباح أسمر، خبز أسمر، وسمرائي تعجن الحب والحنين

السمراء بعد العصر تستلقي قرب خيمتها تعزل اللبن، وتصنع الوقت من سعف النخيل، تصنع عصيدة التمر وخبز الشعير، أنوثتها في يديها القويتين المعرورقتين، عروقها بارزة كالنوايا الحسنة، وشمها النيلي يمتد علامة، يربط شفنها السفلى بالعالم وبالرؤى، أضيع أنا بين الخطوط المتقاطعة في عالم أزرق بلا ماء، في الصحراء يجب أن تقتل الوقت وإلا قتلك الوقت، الغروب قاس كالسكين، إنه يستمد قوته من الغياب، من رعب النهايات، ومن ثقل الحنين، والسمراء تعد ترتيبات المساء ففي الليل لا ضوء ولا شمع، هناك ليل وناي وكانون لإعداد الشاي الحار الذي يحتاج عمراً لتحضيره ولحظة لشربه، طقوس الشاي أهم من الشاي، تحتاج أن يستسلم الزمن للزمن، تحتاج أن تجعل

الوقت يتوقف ساعات وأنت تقلب رغوة الشاي بينَ الكئوس، الشاي مقطر كالفرح، قليل وصامت وبهي بعمامته البيضاء ...

نتيبو احبيبي

لازم الالة

توقيع: سولال رشدي

العاشق السيئ الحظ.

جاء أخي الصغير نور الدين الذي نسميه رشدي الصغير لينام قربي على غير عادته، أبهره احتفال البكالوريا وهالة الشهادة الورقية، كأنه يظهر لي افتخاره بي بعينه البنيتين الجميلتين ورأسه المدور، منذُ صغره وهو يستعمل عينيه فقط للتعبير، تركته دوماً لحريته ولم أَلعب معه دور الأخ الكبير مُنذُ البداية اعتمدت على الإصرار الذي طبع عينيه، ما ضربته يوماً وما نهفته وما تدخلت في شؤنه، كان شعره أسوداً فاحماً يذكرني بها، طويل القامة ومربوع الكتفين، نمت هذه المرة ملء جفوني واستيقظت كالفيثيق من رماد الحب، وقررت أن أكون رجلاً عملياً.

صباح مشرق، شمس ذهبية كشعري تقول يارة وتظهر الكثير من الحسد، وتطلب أن تبادلني صفائرها المجددة بشعري المنسكب على جبيني.

أن تكون رجلاً عملياً مَعناه أن تنكر الحب.

مَعناه أن هوامش دفاترك تبقى نقية، دون قلوب مجروحة دون I LOVE YOU ودون سهام كيوييد العاري من الحشمة.

مَعناه أن تستعمل كلمة أحبك كما تستعمل كلمة صباح الخير، أن تستهلكها وتفرغها من أعراضها الجانبية كالدوار والهديان والبحث والرؤى الليلية والسهر والحمى، مَعناه أن تنسى، وأن ترى ضربة الحب تلك كضربة شمس قوية يجب ألا تغير مسارات حياتك.

قررت ألا أكون رجلاً عملياً وأن أخبرها، أعرف أين أجدها، لا مبرر لذهابي لبيتها فلا دفاتر تجمعنا ولا دروس ولا مسائل، سأنتظر أن تأتي لتغير رواية «أرلوكان» عند مول الزريعة**، أو في الخزانة البلدية لتعيد ما استعارته منها، سأغلق أبواب المدينة وأعلم الحراس أن يراقبوا دخول شمس قادمة من الصمت، كنت أدري وأنا أَلف المدينة ماراً بطريق المعهد وساحة المقلات وأسارك*** أني سأتشرد، أنا الذي كنت أعرف طريقين اثنين فقط طريق خزانة الإمام علي التاريخية، وطريق

خزانة القاضي عياض ... ها أنا أَلف المدينة وأُخيط دروبها أدخل الرحبة القديمة وأُخرج مِنْهَا إلى درب كسيمة حَيْثُ نسوة من قطاع خاص يجلسن بأبواب المنازل لاستدراج زبون ضائع، لا أحب هَذَا الجنس المَعْلَب فِي دور دعارة شعبية لو ارتميت فِي أول بيت هُنَاكَ لتخلصت من ثقل الجسد وثقل الحب وثقل حرب ضروس ضد السؤال مَا الحب؟ كنت سأقول فقط إن الحب إفراغ الشحنات

الزائدة، وأنتهي من فلسفة ستدخلني مباشرة إلى درب الجزيرة تحت الصابات الباردة وَمِنْهُ إلى «أكافاي»، كل حارات تارودانت تستقبلني بحنان، أنا يتيم الحب شهيد الجغرافيا، الحارة أمي والدرب أبي، نسيت وجهتي، حين لا تعرف هدفك فكل الطرق صحيحة، سأمشي إذن، سأبحث عن شَيْء، إشارة علامة طريق ترشدني فِي عالم من الوهم عنوانه أحبها.

الشَّيْء الوحيد الَّذِي ينسيني العالم كله بما فِيهِ الحب هُوَ حكايات الشَّنْقِيطِيَّةِ أمي، إِنَّهَا لا تحكي فقط، إِنَّهَا تصنع عالمًا من الكلمات، وتستطيع بتهديدة مِنْهَا أن تحضر كلَّ صَهد الصحراء وعطش الرمال وكل أفراد القافلة، وإن أضاع المرشد الطريق، نضيع كلنا إلى أن يأتي يوم حكايات الصحراء. تستوي الحاجة فوق سريرها الحديدي ونجتمع حولها كالحجل كَمَا يحلو لوالدي أن ينعتنا. هَذِهِ الليالي الَّتِي يَكُون فِيهَا مشغولًا بسهراته فِي الزاوية أَوْ فِي رياض السدرة مَعَ أصحابه، عشية الخميس غالبًا؛ لِذَلِكَ لا يعترض عَلَيَّ استعمار السرير خصوصًا أَنَّهُ لم يعد يستعمله كثيرًا بل يفضل النوم فِي غرفة قرب الباب الكبير حَيْثُ يراقب الداخل والخارج.

وحين تنتهي الشَّنْقِيطِيَّةِ من سرد حكاياها أهرع إلى غرفتي لأكتب مَا علق بذهني من عشق الصحراء.

السمرء شفاقة كماء البئر الوحيدة فِي الواحة المجاورة، لا ترزعني رائحة الكافور القوية الَّتِي تنبعث من خيمتها وَلَا رائحة البخور الإفريقية، إنها لا تعلم شَيْئًا عن العالم غير حكايات وأساطير الصحراء وسورة الإخلاص وتبت يدا، وَلَكِنَّهَا حين تأخذني بِيَنِّ أضلعها تصبح فقيهة فِي علم الحنان، وبروفيسور فِي جراحة الوعي، إِنَّهَا عميقة فِي سطحياتها، تسمح خريطة الكون عن جلد الماعز وتنام بعد الظهيرة فِي سكنون سلطنة سودانية، السمرء رنانة تأخذني كطفل لم يبلغ الحلم، وتتركني كشيخ تصابي من شدة الوله، يا ليت القافلة تتأخر ليلة أخرى، جملة أخرى، حزبًا آخر من أحزاب الذكرى والنشوة والجسد المنهك المحطم الميت حياة، الحي مداوى بترياق رائحة السمرء وخبز الرمل وأصابعها المشقوقة القوية، السمرء ربة أشعار الجنوب وملكة العيون والساقية الحمراء وحمادات الجزائر، السمرء... ليبتها تبقى.

مساء شاي صحراوي بعمامة بيضاء، وخبز مدفون فِي الرمل الملتهب؛ وسمرء نعسانة شهية فِي الشروق كَمَا فِي الغروب، وجسدي يبيض من جديد، كأنه لم يعشق مُنذُ آلاف السنين، التمر واللبن وقديد لحم الماعز وطبق مظفور من سعف النخيل واسع كقلبها كريم كصدرها.

السمرء طويلة كنخلة، تمتد داخلي توتتي قطعة قطعة، تحمل بعضي وتضمه لي فأنوجد، أحتفل بالتناسق داخلي، أه كم أعشق سعف النخيل حين يمتد ظله عَلَيَّ جيبني، إنها تسمح عني تعب الحياة،

تَقُول لي في حنان زائد: اهدأ فقط. وتودع القافلة وتبقى معي.

توقيع، سولال رشدي

العاشق السيئ الحظ

ذات ليل بهي رفقة شمعة ومذكرة حمراء.

ملاحظة: حبيبتي لَيْسَتْ سمراء.

مر فصل الصيف كله وأنا أحاول أن أجد نفسي.

والتقينا ذات ارتباك.

وبلعت لساني ورأيتها من جديد بسرورها الجينز الأزرق، وتي شيرت أبيض وعينين، عيناها عميقتان كبحر.

قَالَتْ: مساء الخير ...

قلت: مساء شيء ما لا أعرفه.

قَالَتْ: أي شعبة ستختار بالجامعة؟

قلت في نفسي: شعبة الدراسات العاطفية تخصص علم الجراح. وقلت لها: التاريخ والجغرافيا.

قَالَتْ ببهجة طفولية: وأنا أيضًا، سنلتقي في الجامعة إذن.

لا أريد أن نلتقي في الجامعة ولم أكن لأدرس التاريخ إلا لعلمي بتوجهها مُنذُ البداية ... فأنا من نوع الطلبة الذين لا اختيار أكاديمي لهم، آلة تفوق مدرسية، ولا تهمني التخصصات، سأقول لها أحبك ... ستجيبني لنبق أصدقاء وسنفترق.

نكون أو لا نكون ...

يُكون الحب أو لا نكون ...

لن نكون أصدقاء، الصداقة لَيْسَتْ مزبلة المشاعر، كلما فشلنا في الاقتناع بشعور الحب أو اختلطت علينا الأحاسيس نرمي كُلَّ شَيْءٍ فِي صندوق الصداقة، كأنها قمامة مَا لا يليق بعلاقة بَيْنَ رجل وامرأة، قررت أن أبتعد، أن أعيش عَلَى ذكرى سنتسى بالتقادم أفضل من أن أعيش عَلَى فتات شعور متحول ممسوخ، راقبتها من بعيد، تخلت عن تنوراتها وأقمصتها وأحذية الكعب العالي، واعتمدت سراويل جينز من كل لون وتي شيرتات بألوان مختلفة وجاكتات جينز أَيْضًا ... فِي نظري فقدت أنوثتها وَهِيَ تظل مسافرة بَيْنَ مدينتين جامِعيتين تدرس التاريخ وتدرس تقنيات التمريض، وَأنا فِي باب القصبَةِ، القصبَة مكان تاريخي حَيْثُ عاش أفراد الجيش السعودي، دخلت مدرسة المعلمين، أتعلم كيف أتعلم، كيف أكون معلمًا، المدينة منشبهة بِي حَتَّى فِي التعليم العالي، هِيَ من أصبحت عملية تتأبط الكثير من الدفاتر والكتب وأنا أصبحت مستهترًا بالدراسة كَمَا توقعت تمامًا، ضربة الحب تكلفك عامين دراسيين فاشلين، أن تصاب بلوثة العشق فِي البكالوريا يعني أن مستقبلك ضاع، لن يفهمك أحد، لن يعذرك أحد وأنت بَيْنَ نارين، وصورة حبيبتك تظهر فِي كل الدفاتر وَعَلَى صفحات المقررات، وكل النصوص تتولها عاطفيًا، وحين يشتد بك الحال تصبح نزقًا، شهوانيًا، تتبع كُل فتاة تحمل بركة فِي صدرها بعينيك، تصبح مدجنًا كخروف زربية عصرية، الأمر ليس بيدك، تود لو تخبر أهل بيتك بأن الأمر ليس بيدك، وأنت ضيغت البكالوريا لأسباب عشقية، أسباب قوية أقوى من رغبتك فِي النجاح، غشاوة تعميك؛ لِذَلِكَ أنا محظوظ جدًا لِأَنَّ ضربة الحب جاءت بعد البكالوريا.

حين ترفضك أنثى تظل تبحث عنها فِي كُل فتاة، تسيل أيامك، تضيع حياتك، تود لو تسامحك أمك، لو يعذرك أبوك، تود لو يفهمك العالم تود لو تنساها ... الحمد لله أن اللوثة أصابتنى بعد إعلان النتائج.

رحلت إذن وتركتني أتمسح بالأسوار كقط منتشر، أعرض حبي عَلَى هَذِهِ وَتِلْكَ، هَذِهِ ترفض فتتال احترامي وَهَذِهِ تقبل ولها الويل مني، بضاعة خاسرة، حب خارج القلب، رسائل كثيرة وَلَا حمام زاجل، أسير وتسير معي خططي للإيقاع بأقرب فتاة فِي طريقي، الهدف أن أتسلى أن أنسى

فِي الجنوب يفيدك الاختلاف الجيني، لم أكن أعتمد قبلاً أن شعراً أشقر يمكنه أن يسقط فتيات كثيرات، عقدة الأجنبي الشاحب مَا زالت تسيطر علينا، مَا علينا.

أرسلت لها رسالة حكيت لها عن تلة من الفتيات، بما أننا أصدقاء، حكيت لها عن تِلْكَ المعلمة الَّتِي تكتب لي القصائد كُل أسبوع وتضعها فِي جيب وزرتي البيضاء، حكيت لها عن السمراء الخجولة الَّتِي ضيعتنا صديقتها القصيرة، حكيت لها عن صديقتها نفسها الَّتِي تنتظرني قرب باب المركز كُل يوم سبت، حكيت لها عن صاحبة الزيتون الأسود، حكيت لها عن صاحبة الماكياج المفرط ابنة مدينة أسفي، حكيت لها عن حبيباتي وصديقاتهن المستعدات دومًا للوقوع فِي أحضان حبيب صديقة، عرفت أن لا صداقة بَيْنَ الفتيات بوجود رجل فِي حياة إحداهن.

راسلتها كثيرًا، وَكَانَتْ تجيبني بالكلام العادي، المديح بالسلام والتحايا المدرسية.

وقلت لها إنِّي أعشق السمرء وأرسلت لها كتلة خواطر ما بعد حكايا أُمي وقصدت أن أعشق عشقي كي أثير غيرتها، وسألتها في آخر الرسالة أن تراجع موقفها وتجيبي إن كانت تحبني أم لا.

السمرء حنونة كحنائها، حين تأخذك على حين سرّة تلهيك دفناً من عمق الصحراء، هي تعرف جيداً كيف تصنع دواءً للجسد المنهك من خليط سحري من الشبّيح والزعتر والماء المقطر والصنّدل والكثير الكثير من اللمسات والقبل، حين تمنح نفسها تمنح كل كرم البدو، بصفائرها العشرين من شعرها المجدد تصنع احتمالات فرح لا منتهي، إنّها حين تعشق تصبح سيّدة الوله تميل كالتاريخ جهة صدري وتغمض عينيها وتموت

تستوي خيزرانة صيفية الهوى

لكنّها كالشاي الصحراوي تهرق في الحلق مرة واحدة كشرية فودكا، تحتاج ألف تاج وعناق مداري الأمطار لتجعلها تحن، وهي حين تحن تعطيك شمساً وتنسل لداخلك، تذوبك، تمنحك ربع قرن أو يزيد من الخصب والحضور.

السمرء حين تميل يميل جيل من الانشطار، تلد لك ألف معنى، وتستوي فوق الاتجاهات توجه بنفسها بوصلات الصمت والحركة، إن السمرء كائن أصيل غير مهجن بالبخل العاطفي، إنّها ترسمك بملامح سخية شفاه غليظة، عيان شديداً السواد، بشرة كحلية الخصب، وأنف مدور كذكرى تتكرر، كل شيء فيها كثير وزائد حضوراً، وفائض رغبة، كالصحراء تماماً عطشى وسخية وبريئة وقاحلة وشاسعة ...

وحين أتذكر السمرء تخضر الصحراء بالقبل والأمنيات، أدخل عين الجمل وأنظر إلى البدو الصامتين يحكون ما حدث الليلة الماضية من حب ومعجزات، ليأتي كنت جملاً أمضغ الشوك وأتأمل في سكون وبرد الصحراء، وأستلقي على رمال الروح في سكينه طلل قديم من عهد الواندال، السمرء تضع شالاً أزرق كملكة الطوارق، وتسير حافية العينين في الواحة، تعزف على الربابة وتعني شعراً عربياً مقفى، السمرء روح الصحراء، السمرء فيلق من الذكريات مدجج بالحنين.

سولال رشدي

العاشق السيئ الحظ

ذات صباح خريفي.

وكنت أنتظر الرسالة الأهم ...

أجابنتي فأشعلت حرائقي من جديد ...

جاءتني رسالة مِنْهَا، عَلَى حين غفوة بَيِّنَ أفكار بدأت تنبض داخلي، غيوم كثيفة من الجمل والمفاهيم تتراقص قربي، بدأت أنضح وبدأ قلبي يكبر والأسئلة تتناسل في شدوذ وتمارس الرذيلة عَلَى عقلي المراهق.

المراهقة أن تكتب عن السمرَاء وتقصد البيضاء، وتتحدث عن شيب لحية حبك وأنت أمرد، وأن ترقص دون موسيقى في جوف الليل، المراهقة ألا تعرف طريقًا ولكنك تمشي.

القلب حائر، طائش، وَكِنَّهُ سعيد رغم أن العين تدمع

رغم أن الحب يجعلك تمسح أرصفة الطرقات بقلب من أنين ...

رغم أَنَّهُ يجعلك تمشي الهوينى وأنت تعبر خطر الطريق السريع، رغم البعد والرسائل، كان هُنَاكَ حنين.

قبل أن تصلني الرسالة، كنت في بحر الغيوان، مجذوب حالي، منقوع في زيزفون الشهوة، وَلَا حرج، سن العشرين دائمًا سعيدة ومؤلمة، وتحتاج رفقة، تحتاج صديقًا من نوع بلسم الجروح.

ألف عنوان للشطط في استعمال البسمة، اعتدت عليّ في عقر قلبي ورحلت، وأنا وشجرة الإبزار الكاذب، سموه كاذبًا رغم أَنَّهُ حلو المذاق، والحقيقي مِنْهُ حار، تَلُكُ علاقة الحقيقة المتوارية وراء المذاق، وصلنتي رسالة مِنْهَا تَقُولُ إِنَّهَا تتألم كلما سمعت قصة جديدة عن فتاة جديدة، وَهِيَ لا تدري أن نصفهن ورق، وأن واحدة فقط كادت تعصف بالألوان الوردية وتخلق الانعطافة المرة، كلما أحس الرجل بالزهو يتخلى، تَلُكُ طبيعتنا، تخليت كأني أنتقم لرحلات التشرذم في أسواق المدينة القديمة، دخلت محل بيع سندويشات السردين عند عبد الرحمن بثلاث دراهم أمام مكتبة المجد، وطلبت الحار قبل السمك، سندويش بكثير من الحار الأَحْمَر، بالفلفل السوداني، أردت أن أحس بجسدي يتألم قليلاً كي أعرف أن لي جسداً، أن لي لساناً وأن حقيقة الإبزار في مذاقه الحارق لا في حلاوته، تناولت أكثر مما تحتمل معدتي وخرجت من المحل أَحْمَر الشفتين من شدة الألم.

وكان مطراً

هطول المطر يزيد دوماً أحراننا، كأننا عالم يغتسل من الفرح، عالم من الصور تحت الماء.

جواب متأخر عَلَى عشق أبيض قديم.

وحب وردي جديد، ينبت في قسم علوم التربية.

هل أنتصر للتاريخ والحنين أم للحاضر القريب؟

خرجت عبر طريق الجامع الكبير وَمِنْهُ إلى باب البلايع وصعدت فوق درج السور الترابي الأحمر، أحدثه عن قلب يحتوي قلبين، السور أبو تارودانت الحنون، دافئ كحضن، صامت كجبل، أستشيره في أمري، وَلَا يجيب، يمر أحدهم، يرفع جلابيته في نزق ويبول على السور مسترخياً، أكره الذين يبولون على التاريخ.

ألف أغنية للحيرة في قلبي وزهرة تغني ...

رائحة القلق تدور حولي وتحملني إلى سيدي بورجا، مكان بضاحية المدينة عبر طريق أولاد عرفة أريد أن أسمع خريير المياه القوي في البخباخ، وَهُوَ المَكَانُ الَّذِي تَلْتَقِي فِيهِ ساقية ماء مرتفعة بساقية أخرى منخفضة، نسميه البخباخ بسبب صوت المياه الذي يتدفق بقوة، تحيط به أشجار الزيتون والصفصاف التي تظله وتجعل منه منتجاً ومهرباً للأطفال من حر الصيف، ربما أعوم فيه كضفدع فأعود إلى طفولتي وَمِنْهَا أبدأ من جديد، هكذا هي القرارات المصيرية تجعلك تعود ألف سنة للوراء لتتطلق من جديد.

اخترت بياض الثلج

اخترت لون الياسمين

اخترت لون القطن ولون الوزرات والحمام، كان قراراً كان قدراً، ولكن التاريخ يفرض نفسه، وَكَانَتْ هُنَاكَ أشياء أخرى ملتوية كحبة تكتم الأنفاس وتقهرني، أحسست يومها باللاجدوى التي تزعج الأرواح المكتنبة، البعد قاتل، الانتظار جاثوم يضغط على الحب، تحت كرمة التين وأوراقها اليابسة التي تصدر خشخشة كأزيز أبواب صدري، تمددت كعصا راعي غنم منسية في الصحراء، جسد منذور لليؤس العاطفي، مصنوع من رقع ذكريات، وقطع غيار صامتة، كلما استهلك بطارية حنين بدلناه أخرى، جارور قديم يصعب فتحه دون صوت الاحتكاك القاسي مع ما حولك من تشظيات، الحب ما عاد فتيل اشتعال وسكون وجرأة وابتسامة ورسالة شوق، الحب قلق مستعر، كان الحب يستشكل عليّ كمفهوم لا كإحساس، يتهدم مع مجموع ما تهدم من مفاهيم، فكان الضياع والشك والقلق والتفكك والمصير العائم.

وهي ... هي كَانَتْ قديسة المواقف، سيدة الحنان ولكني كنت حينها تحت لعنة جديدة من فلسفة الكلام أبحث بين جدران الروايات والكتب عن حقيقة ما، ما تخلّيت عن الوجه الملائكي، أسميتها بياض الثلج؛ لِأَنَّ قلبها أبيض كالحليب، ولأنها كَانَتْ أميرة. توالت الرسائل بيننا، وكبر شوقي لها، عرفت من خلال خط يدها وما يتسرب من عطور إلى الورق الأبيض وَكَانَتْ ملاكاً.

الشنقراطية أمي توسوس لي بالملاحظات، من خبرتها تعلم أنني عاشق، سيئ الحظ طبعاً، لم يعد بخورها يجدي وَلَا تدليكه يفيد في حالتي، هي تعرف أنني أكبر وأصير رجلاً، وأحمل همّاً كما تقول تعبيراً عن بلوغ الإنسان مبلغاً من العمر وتبدأ لحيته في البروز وتقلب أمزجته بين لحظة وأخرى.

- لن تأخذك مني أي شقراء، ولن أزوجك غير سمراء مليحة من اختياري، مهما ركضت وركض قلبك.

- أنا لن أتزوج، ما عاد أحد يتزوج هذه الأيام.

- يوه، وكيف ستكوّن بيتًا وتتجب لي أحفاد؟

- لم يعد من الضروري أن يتزوج الرجل للحصول على أولاد في عصرنا، قلت ممازحًا إيّاها، ألم تسمعي بكراء الأرحام، نحصل على بطن للإنجاب مقابل المال، وهكذا يكون لديك وأحفاد وأعيش أنا حريتي.

- زمن العجب، إياك أن تفعلها، لا أريد أحفاد من بطون الغريبات، أي زمن، يستر الله، يستر الله، وتغادر في ضيقٍ واضحٍ.

- تعالي أُمي، كنت أمزح.

- عليك أن تخجل من قولك.

- سأتزوج عروسًا من اختيارك، ولتكن سمراء مليحة.

- وما بها السمراء، انظر إلى جمال أمك لم يذبل، واقفة كعود الخيزران، خدودي ممتلئة وذكائي يزن الذهب، وتحرك معصمها لترن دمالجها الذهبية التي تزن ثروة.

- جمالك نادر ومنقرض كما أنك لم تورثيه لهؤلاء الشعثاوات من بناتك.

- بناتي عازبات مليحات، وترفع صوتها ليسمعن دفاعها عنهن، وسومهن مرتفع.

والتقينا

بمقهي صغير قرب إعدادية رحال المسكيني، عرجنا قبله على سيبيرنت cyber net لأعلمها استعمال الكاراميل CARAMAIL، وجلسنا نحتسي أخبارنا، لم تكن لديّ رغبة في الحديث، يحدث دومًا أن أنكر على نفسي متعة اللحظة، ربما لأنني عودتها على الحرمان، قررت ألا أناقش معها علاقتنا رغم وضوح الرسائل، كنت مستعدًا لاتخاذ قرار نهائي، أريد حبًا عارمًا، أولاً وأخيرًا، بدأياً ونهائياً، أريد أن أبقى معها إلى الأبد أو أتركها إلى الأبد؛ لذلك ثرثرنا كثيرًا ولم نقل شيئاً يذكر، كنت أنظر إليها وأنا أشتغل في داخلي على القرار الكبير، البسيط، عيناها جميلتان، مختلفتان، عيناها قصيدتان كتبهما بدر شاكر السياب بعمق ألمه، الآن أنا بين سبيلين، إما أن ألتهم قلبي وأستقيل من

عالم الحب وأرتمي في عالم شبابي بمتعته الشهوانية بأسفاره بموسيقاه بحاناته بعهره بتجاربه الغياب والسجائر، أو ألترم بحب أبدي طاهر.

كدت أختنق وأنا أسير معها، ما يخنقني هو الطقس الداخلي حيث القيث واليبس، كانت تشعر بارتياكي وتحاول جعل موعدنا أكثر رومانسية، كان الضغط عليّ كبيراً كالجبل، أن أبقى معها يعني أن أكون رجلاً غير عادي بحكاية حالمة حد الأساطير، وأن أتركها يعني أن أضيع في الدنيا، وأنا أعرف معنى الضياع فبحر غيواني كان بانتظاري، سأغرق ولن أعود سأستيق متأخراً بعد ذلك لأرتبط بأقرب أنثى إليّ كأبي حيوان استوائي وأنجب منها أولاداً وأكون عادياً.

كانت ثرثرة جداً تحكي عن كل أصدقائها في تزنيته وأكادير وعن دراستها التي تجمع بين التاريخ والطب ولا معقولية تخصصها شبه الطبي بكل تقنياته وتاريخ الفراعنة بكل أسره.

وأنا كنت أغلي، أبحث عن نعش أرتاح فيه من قراري، عن أهرامات أمازيغية تحتل بموتي.

ولكني اتخذت قراري ...

قررت ألا أحب

قرأت نيتشه في تلك الفترة، هو السبب، قرأت أندري جيد وألبير كامو ونسيت أن أقرأ سارتر وسيمون دوبوفوار، فبين اتخاذ قرار بسيط وبين الالتزام بدزينة من القضايا والدروب النفسية الشاقة، تلك البساطة التي تعكس براكين التعقيد، قرأت ليبيرتيناج حتى أصبحت المرأة في نظري نهدين ومهبل، تلك حقيقة مرة، بحثت عن الحب كمفهوم كفكرة، ونسيت الحب كشعور، كان للجسد سلطة، سلطة كبيرة جداً، لم أخبرها بقراري بل تركت خط حياتها عادياً فأنا غالباً ما أترك أفكارني تختمر مدة طويلة وفي موازاة ذلك أترك سلوكي عادياً، إني أخونها حتماً، فقد كنت أوصولها محطة التاكسيات في باب الزركان وأعود للقاء سناء وأجلس معها على الكرسي الإسمنتي قرب حديقة الأطفال (ساحة عشرين فبراير حالياً). أكره توديعها وأكره غيابها، سناء كانت تعلم أنني أخفي ورداً تحت جلدي وكلما سألتني أتحنني؟ أقول لها: ولفتك بزاف. ما أحببتها، كيف أحبها وأنا لا أعلم معنى الحب، هنا المستحيل، ولكن لم أناقش امرأة في موضوع الحب وهي نفسها موضوع حب، كما أنني آنذاك لم أجد امرأة عميقة يمكنها أن تفهم فلسفة الحب، هل تعتقدون أن المرأة عميقة، إنها ليست حتى مسطحة، يقول نيتشه.

كانت لي صديقة حميمة أيام دراستي للديداكتيك، اسمها خديجة، عيناها حنونتان، أرتاح إليها كثيراً، كنا نجلس في مقهى فندق الأطلس كمكان سري لا يعلمه أحد، نطلب عصيراً وكعكة ميلفوي الفرنسية على حسابها، هي من تدعوني دوماً، كانت تنصت لي جيداً وتحلل بمنطق الأنثى ما أفعله وكل ما كانت تجيده هو تأكيد حبي لبياض الثلج.

خديجة حين تبكي ينهار كل شيء، أكره أن أرى دموعها، لأنني لا أجد طريقة لاحتضانها حين تبكي فلا يجوز احتضان أنثى في مقهى الأطلس بمدينة ترصد كل شيء كتارودانت وكنت ضعيفاً أمام الدموع، أصاب بنوبة دعر وغضب حين تنساب دموعها عبر جانبي عينيها وهي لا تمسح دموعها حين تبكي.

رفعت إذن دعوى فلسفية على الحب، أعلنت عليه نتائج البيولوجيا واعتبرته حركة هرمونات تحدث حين تهيج العواطف أمام أنثى مثقلة بالتاريخ والجمال، أعلنت العصيان على قلبي.

ولكني لم أخبرها شيئاً، تأتي نهاية كل أسبوع أو أسبوعين، أستقبلها في المحطة وأرافقها إلى البيت وعشية الأحد أرافقها من البيت إلى المحطة ونجلس غالباً على الكراسي المحاذية لحديقة الأطفال، كنت أضع مسافة احتياط كبيرة بيني وبينها، لا ألمسها، لا أقربها، لا أحاول تقبيلها، لا أعبر ... لا أعتقد أن جسداً محملاً بالشهوة الفلسفية، خارجاً للتو من مراهقة مضطربة، ومريضاً بأفكار تعادي الأسرة قادرٌ على لمس أنثى، أميرة

أوصلتها المحطة، ودعتها، عدت عبر طريق باب تارغونت ودخلت باتجاه أسارك، وبني رغبة في الدخول لأقرب خزانة لأقرأ، القراءة وحدها تثيرني والكتب وحدها تعشقتني ... قبل أن أدخل عبر سوق التمر ومنه للرحبة القديمة التقيت الشلحة صاحبة الإزار الأسود، كنت أعرفها، قدمت لي عرضاً يليق بالطلبة حسب قولها ولكني أجبته بلغتها الأمازيغية: 30 درهم لك بهذا العمر! لا، أريد سلعة أصغر؟ مساومة سوقية لشراء متعة عابرة وربحت المساومة ورافقتها

تبعث الباطرونة يامنة الفرماشة؛ لأنها فاقدة للقواطع الأمامية من أسنانها، كنت ورائها وهي تقصد ذلك كي تتلوى في لحافها الأسود، قالت لي إنها بعد أيام ستذهب إلى موسم أفنسو حيث تجارة الجسد مزدهرة، أعطيتها 10 دراهم كي تشتري الشفنج، عرجنا على دريبة التمر كي نصل إلى درب الحشيش، وعند وصولنا إلى أمام البنك المغربي دلفت إلى زنقة عيادة دبرزوق، وتركتها تنهي المسير وحدها، وحين التفتت ولم تجدني بدأت تسب وتشتبم بصوت مرتفع: لي تسحر مع دراري يصبح فاطر. كنت مختبئاً أنظر إليها من نهاية الدرب الضيق.

خرجت من حجري كشهوة مستترة، لقد كنت هادئاً ولم تكن تقودني الشهوة، بلى كانت تقودني، توجهني إشارات بارابولية واضحة المعالم، ولكن سترك يا رب قدماي زلتا عن الطريق غير المستقيم، ولكني تبعتها دخلت درب الحشيش ومررت قرب مقبرة اليهود، اليهود يرقدون هناك منذ القديم ولا يعيش منهم في الملاح أحد، باعوا منازلهم ورحلوا، فكرت دوماً أن القبور ملاحم ميعاد، ولي علاقة تصالح معها، هناك شيء في قبور اليهود يدعو للصمت، بل يدعو للهجرة والنتيه، لماذا يحمل اليهود هذه اللعنة التاريخية؟ لعنة الترحال والنتيه اللانهائي، تارودانت كانت تحضن أسراً منهم ولم تضطرهم للهجرة لاحتلال بلد ليس لهم، هذا بلدهم وموطنهم ولكن اللعنة أصابتهم منذ الأزل، فلا هم مغاربة ولا هم إسرائيليون، حملت نوايا خطاياي المؤجلة في حجري وعدت أدراجي. الأطفال

يخافون من مقبرة اليهود خصوصًا بالليل ولكنهم رغم ذلك يبولون عليها دون قصد، ويلعبون فيها الغميضة والدينيفري.

أنظر للقبور لأخنق الشهوة من عنقها، ولكن جسدي ظل يطلب إثمًا يدور دورته وينتفض بعنف، هُنَاكَ أحياء قديمة بتارودانت تجعلك في مهب الجنس، تحس فيها بالعطاء، بالحميمية، ومرورك قرب دور الدعارة فيها يهيج خلاياك.

والمقبرة اليهودية، بقبورها البيضاء الإسمنتية المستطيلة التي ترقد داخلها الكثير من الحكايا عن علاقة اليهود بالمسلمين هُنَا في الحارات القديمة، التساكن القديم الذي فقده اليهود في العالم كله.

ظلت أسير بين درب الكزارة ودرب كسيمة ودرب الحشيش، أروض جسدي ويروضني، ألامس عتبات الإثم وأتذكر قصة الست الشامية القادمة من لبنان والتي سكنت تارودانت دوخت مدينة بأكملها وكان يتردد عليها بعض الأعيان والأغنياء، وأكِنَهَا تشتت أن تستقبل شخصًا واحدًا يتكفل بمصاريفها مدة طويلة، كنت أتصور أن دور الدعارة كلها ملأى بالجميلات، وكان خيالي كعادته يصنع عوالم شهريارية. وقفت أمام بيت تحت صابية باردة وقررت أن أنسلخ عن ذاتي وأفرج عن الحيوانات بداخلي

مَا عدت أومن بالرومانسية الحالمة البعيدة عن الواقع المرتبطة بدوالي العنب والقبل الخفيفة كنسمات الرِّيح، بل بعنف اللحظة ودموية المشاهد الساخنة ... أنا حيوان كبير وكأنت بداخلي حيوانات تدغدغني وتريد التحرر، وشعيرات جسدي لم تكتمل على الخريطة وفضول مراهق لاكتشاف الآخر، نظرت إليها وهي عائدة من الفرن تحمل لوحًا خشبيًا عليه خبزات ساخنات مثلي، في مقبل عمرها، في جلابية ملونة بقب كبير وسفيفة رقيقة بالأصفر، غمزتها وغمزتني، ودخلت الباب الخشبي الثقيل وتركته مفتوحًا كي أدخل وأغلقه ورائي وبقيت تنظر إلي من ثقب الباب ...

وأنا أنظر إليها من ثقب بروحي المعذبة، ثقب يزداد تمزقًا، بين عالمين، تفصلهما عتبة بيت قديم من الطين، عالم شيطاني لذيد وعودة إيمانية جافة.

- من كان يقود القافلة؟ أين تركنا الشَّيْخ؟ كيف نجوا من العاصفة؟

تبدأ الشنقيطية الجزء الأخير من حكايتها، وهي متعبة جدًا اليوم، بسبب آلام في الظهر والرقبة، فقد بقيت طيلة فترة الظهيرة وَمَا بعد العصر منحنية على مائدة تنقي الشعير رفقة نسوة من الحارة، لم تكن عاصفة يا أمي، كان فيضًا غمر الواحة وأتلف الزرع وغطى البئر الوحيدة بالطمي، واستمرت الأمطار في الهطول دون توقف، الشَّيْخ كان حكيماً وأمرهم بصعود الجبل رغم بُعده.

- صحيح، كان في الجبل كهف سيئوي القافلة والماشية، ويؤمن إشعال النار والتدفئة. هل تعتقدون أن رحلتهم ستنتهي؟ حتى لو وصلوا حدود الصحراء الكبرى سيعودون إليها من جديد، هم لا يملون من الترحال، يحملون بيوتهم فوق ظهورهم كالحلازين، ما كنت لأتبعهم، أعشق الصحراء نعم، لكنني لن أضيع عمري في محاربة الطبيعة وشرب الشاي.

بعد أن أنهينا طقس الحكي وأكل اللوز والحمص انسحبنا إلى غرفنا، ونام أخي الذي لم يمهله الاستماع لأي حكاية، فقد كان ينام قبل أن تصل إلى منتصفها، لم أستطع النوم أرقاً. أرقى يكبر كل يوم، عندما حل الصباح كتبت على مذكرتي الحمراء من جديد خاطرة عن الصحراء:

صباح كسلان الفرح، أمطط شفتي على ابتسامة تتسلل إليّ عن طريق الخطأ، حتى الذباب دخل من كوات الأبواب والنوافذ ليزعج صباحي، الشمس حارة جداً كأي يوم جنوبي مقفر النسومات، الجنوب يابس كخبز التور، لا يعرف غير الصهد والريح، قلبي جريح، يتشقق من فرط الإهمال ...

الصحراء لا تنتج الرمال والريح فقط، إنها تتسج الحكايات أيضاً، تنتظر السيول الموسمية لتملأ المطفيات والآبار التي لا تستمر طول السنة، لتعبي السكينة والرتابة والهدوء القاتل، الصحراء عالم مهيب من الحجارة والأحراش والحيوانات الصبورة والعقارب والأفاعي، إذا كنت في الجنوب فلا تبحث عن الطبيعة فالصحراء فارغة يأتيها فقط من يبحث عن ذاته، من يريد أن يستقبل ماضيه ضيفاً عليه، ومن يريد أن يعد برامج حياته العاطفية. الصحراء كالسمراء معطاة حد الكرم، السمراء تجعل الدوالي تنبت في الخيام وتجعل الأفوكا يزهر في وادٍ قفر كجسدي، تجعلني أحياء، جذعي يخضر بحمر ينبعث من عمق اليبس. السمراء حنونة كحجلة، معطاة كمعزاتها الحلوب، ظليلة كخيمتها الوبرية ...

سولال رشدي

عاشق الصحراء

صباح الإثنين الأخير من أكتوبر ١٩٩٩

العاشق السيئ الحظ

دخلنا الشهر الثالث أو الرابع في الدراسة.

بدأت تتضح علامات صداقات جديدة، الكل تائه يبحث عن حبيبة، هكذا بدت الأمور، وكان هناك سمير، سمير يعرف أنني لست شخصاً عادياً، وكان يتساءل دوماً عن سر شرودي الدائم وعصبيتي وقرءاتي وكل انفعالاتي. تقرب مني كثيراً توطدت صداقتنا بعد زيارات كثيرة بيتي وبيته، وكنا

نكتب على دفتر يوميات بالتناوب، نبتت الفكرة في ذهننا لتكبر، وخططنا كل صغيرة وكبيرة في دفتر وأوراق من أحجام مختلفة، الكتابة جعلت تفكيرنا أعمق وأثقل، فلا يمكن أن تكتب كما تتحدث.

وحكيت له كل شيء، عني وعن تاريخي الطبي الذي كان سبب انزعاجي دومًا، وحكى لي كل شيء، خصوصًا عن عشقه الكبير لجدّه، لبلدته في أعالي الأطلس، عن عدم تمكنه من الالتحاق بكلية الطب بسبب الهجرة غير الشرعية لوالده، حكى لي عن وحدته وعشقه لأغاني الغيوان.

فكان صديقي ببساطة الحكي وقوته.

وتوالت الأحداث التي كانت حينها مصيرية، كانت تبدو كالجبال، هي في الحقيقة مجرد عواصف في فنانج بوسولين صغير.

كانت هناك علاقات صداقة معقدة جدًّا، كان هناك سمير يسران، وكمال وسولال أنا، وكانت خديجة ذات الدموع الحزينة، الدموع الساخنة، يوم إثنين غير عادي، مر كجميع النهارات التي تمر بالأعاصير لم أستطع فهم ما يدور، التقيت سمير وعانقته بشدة كان أقرب شخص إليّ، كان جامدًا لا ينفعل، توترت كثيرًا، فأن تعانق شخصًا بشدة وتجد أنه لا يرفع يديه ليحضنك يجعلك تتوتر وتخجل من نفسك، لم أكن أعلم ما به، انطلق على دراجته دون أن يودعني، قال فقط إن لدينا امتحانًا غدًا، وأن يقول سمير ذلك معناه أن صداقتنا محدودة بأسوار مركز التكوين، سمير كان جزئي الآخر، أسطورتني، عازف القيثارة، كان يداوي الجروح بجروح أخرى، كان سريع الغضب وكنت سريع الحزن، كنت أحبه أكثر مما يحبني، لذلك كان يسهل عليه العودة لبيته وإغلاق هاتفه وكثيرًا ما فضحته عمته عبر الهاتف رغم أنه يوصيها ألا تجيب عن اتصالاتي ... أردت فقط أن أفهم لم فعل ذلك، لم غادر بسرعة وتركني في مواجهة حزن عميق أنا الخارج لتوي من ردهة شيطان متمسكًا بالطهارة.

تذكرت بياض الثلج ونسيتها

ذهبت عند كمال، كان في البيت وحده وكان يبكي ...

طلب مني أن أكتب رسالة لحبيبته كتبتها وقدمتها له، مزقتها ورمها. يا له من يوم! بقيت معه طوال المساء فلا أترك أبدًا صديقًا يحتاجني، بعد مدة انقلب كمال رأسًا على عقب، توترت علاقتي به حد المقاطعة، جوهرة مفقودة في عقد حياتي، كان رائعًا بصمته وعينيّه وحاجبيه الكثيفين، لكنه كان مزاجيًا وخان العهد، العهد كلمة كبيرة جدًّا وكانت تعني الوفاء والرجولة.

سمير وحده يمتص غضبي، حدثه عن كمال وسناء وربيعة وراضية، لم يهتم بكلامي، وعدم اهتمامه خفف عني، ولو ركز على كلامي الذي كان أقرب للهديان منه للكلام لبقينا نلوك تلك الأسطوانة

لساعات، ذهبنا لشقة سعيد التي اكرهاها مع أصدقائه في برج منصور لنتناول اللبجة، اشترى خبزاً وجبنا وحك عليه شكولا ... ولكننا غادرنا البيت بسرعة لأن هناك فتاة سيستهلكها صديقاه الساكنان معه.

كنت إذن على شفى هفوة، تبين لي هذا فيما بعد، فنجان الشهوة الثاني الذي لم أرتشفه هذا الأسبوع، تركتها تطل من ثقب الباب الخشبي المهترئ، صفقته ورأي مباشرة حين رأيت أنني غادرت درب كسيمة عبر المخرج الوحيد هناك

كانت تدور بذهني سيناريوهات كثيرة عن الحب، عن الشهوة والجسد، عن الإيمان والآخرة وعن الله، عدت أدراجي ببطء، أمشي بتكاسل كبير كنت أسير على أفكار جديدة لم أعهداها من قبل وكان تكوئها يفرمل مشيي، كنت أرضي رغبة في داخلي ببناء أفكار قوية بالمشي ببطء شديد.

كنت حزينا، حزينا جداً ...

الرغبة خبت في داخلي وعوضتها أفكار حزينة، رغم حزني كنت هادئاً بل أحتاج هدوءاً، أحياناً نكابر حتى نسقط تعثرًا بالمجازات. نسافر سرًا إلى حدود الإقليمية لبلاد الحزاني، نستشرف أحلاماً هلامية ونرتع في مرتفعات تدوخ من بؤسها الطيور، ثم نعود أدراجنا حاملين تجربة وقطعة من الوقت الضائع الذي لا بديل له؛ لأن لعبة الحياة لا تؤمن بالتعادل ولا بالأشواط الزائدة. أحتاج سكوتاً بقلب هادئ، سكوت عجوز يداعب مسبحته في انتظار صلاة العشاء، سكوت جدة تقتل حبيبات السميد فوق السطوح، أريد أن أهدأ وأصنع من الوقت أمنيات أجمل.

كان عليّ أن أدخل عند بائعة الفرح المؤقت، كان عليّ أن أغرق للحظات بين فخذيهما، وهي تصفق الباب في وجهي بعد أن وضعت طاوة الخبز في الأغمومي *** على الأرض، غمزتها قبل ذلك تظهر أنها كانت تريدني ولا تريد زبوناً، كان الخضار قرب صومعة المسجد يغازلها ويقول لصاحبه إنها لا تضع حمالات صدرية كي تترك حرية الحركة لنهديها وهي ترفع يديها إلى أعلى لتمسك بطاوة الخبز فوق رأسها.

بعد أن سمعت لغة الخضار عاودني حلم قوي بأن أعود إليها، تصورتها سيدة حزينة وجميلة ككل الأميرات التعيسات، سلبوا من أبيها عرشه وتركوها في الشارع تبيع جسدها، التردد عذاب ليس بعده عذاب، إنها مخلقات المراهقة أو هي المراهقة نفسها، سن العشرين، بداية الهروب من الأحلام لملامسة فوضى الجسد، سنوات وخيالي يعمل على تغذية الإمكان الاحتلامي، خصوصاً أنني أكره تجمع الطلبة لكراء فيلم +18 عند رشيد مول الكاسيت بدرب أندلاس، كأنه تجمع جنسي لمجموعات سوسيولوجية شاذة، لا أدري أي لذة في مشاهدة فيلم رفقة رطل من الأولاد كل يتأوه في ركنه.

لقد عدت إليها ...

طرقت الباب بخفة وأنا أعرف أن هُنَاكَ من يراقب الدرب كله ويعد النزلاء، وأن كَلَّ منزل أقنان تراقبه السلطة وتتحكم فيه، كنت أعرف أن السلطة تنتشر عَلَى الجنس وبالمقابل ينفلت الجنس من جميع السلط، مَا يهمني الآن إرضاء الجسد لا تفكيك استراتيجيات التحكم بالشعوب، أكيد الدولة تعرف أن الشعب ذكر وأن الذكر يجر من ذيله.

دخلت البيت الحزين ...

دخلته ورأسي فارغ من براهين العفة ...

الباطرونة بالباب أشارت إليّ بالصعود عبر درج ضيق مزلج باللونين الأبييض والأسود كجميع دور تارودانت القديمة ...

_ مَا اسمك؟

_ صفية.

_ أنت من تارودانت؟

_ لا من أسفي.

_ لماذا تركت مدينتك؟

_ لِأَنَّ أَخِي سَيَقْتَلُنِي.

استمر الحوار وَكَانَتْ حكايتهن جميعًا تتشابه، حب، خطيئة يتبعها ندم وفضيحة، ثم هروب نحو المجهول.

وخرجت

لا أستطيع أن أضاجع امرأة حزينة ...

أنا نوع خاص من الرجال تَكُونُ جسده لبنة لبنة بَيْنَ ثلاث نساء، أم وأختين، لن أخون عرق النساء في تكويني، أحسست بأنني مُقبل عَلَى ارتكاب جريمة أشع من جريمة قتل، لم يكن الأمر كَمَا تصورته، لم يكن شبَقًا سينمائيًا حلميًا كأفكار المراهقة، كان طقسًا هادئًا كأبي لقاء عابر، تركتها وتركت معها عشرين درهمًا مقابل أسئلتي، وتركتني رفقة حيرتي أسب وألعن الأوضاع.

أحسست بأنني أهين نفسي وأخون كُلَّ أنثى عبرت حياتي وَحَتَّى أُمِّي ووالدي فِي محراب المسجد، كنت أسميه أبي وإلا فهو ليس والدي، أحسست أَنِّي أهين سلالة البشر، ضغط كبير عَلَى رنتي، كأن

وحشاً يعيش في صدري، لا أدري كيف ارتخت جفوني على عيوني وتركتها بعد أن محوت صورتها من ذهني، لا أريد أن أعرف شيئاً عنها، أريد أن أنساها، أريد أن أهدأ وأعود للبيت بالمحايلة لأمارس هوايتي المفضلة السرحان عبر الخيال، لن أمر على بيت الأصدقاء فكمال امتنع فجأة عن استقبالي بحفاوته المعهودة، وفجر سيمطرنى بكتابات التي لا أستطيع فك شيفراتها، وأحمد يبدو لي دوماً أصغر سنّاً من أن يكون صديقي، أحمد رافع وطفولته التي كبرت معه.

لم أحك لأحد ما حدث لي أو ما فعلته، بل صمت كأني تمثال مصري قديم، حاولت الاتصال بسمير فهو الوحيد الذي يقبل أفكاري المجنونة، ولكن هو أيضاً بدأ يمل أسطواناتي وأصبح يفضل الابتعاد عني. يفضل الاعتناء بمذكراته وأفكاره الجديدة التي سيرميها للمحرقة وأصبح يرتاد الرباطات والجلسات رفقة أعضاء من جماعة العدل والإحسان، كان يستكين للجماعة شيئاً فشيئاً وكان يبتسم دوماً في وجه أستاذ ديداكتيك العلوم الملثحي.

إن فقدت كنت في نظره ضالاً؛ لذلك أصبح يتحاشاني وكفّ عن كتابة اليوميات والرسائل لي.

ماذا سيقول لو علم أنني مارست الجنس في الابتدائي وفي الرابعة عشر من عمري، وكنت على عهد قديم بالشهوة لم يتغير إلا يمرهقتي الأخيرة حين اكتشفت الحب. ماذا سيقول عني لو علم كم الهرمونات التي تناولتها والتي جعلتني أفحل من سني ومفخرة أبي الذي يحذرنى من المطلقات واليائسات من الحب. كان ما احتفظت به لنفسى ذخيرة ضد غدر الزمن. جميل أن يحتفظ الإنسان بأسراره لنفسه ويبعده عن صديقه الحميم. الحميمة علاقة بين الروح والجسد أما الآخر فمجرد خائن مؤقت سيستعمل كل بوح ضدك في يوم من الأيام.

سمير يلوك بعض سيرتي في جلسات الإيمان، ويدعونه لدعوتي، يمارس عليّ النصيحة والرفقة والصحبة وأنا أمارس المواردية والصمت الثقيل والارتكان للمشاهدة دون انفعال.

أنا لم أكن أنتمي، كان انتمائي لزاوية صغيرة في داخلي أصلي فيها صلوات خاصة، كنت أتأمل في الوجود بصمت وعمق، كنت أعاف الأفكار الدخيلة على جسدي، وكنت أعرف أن الروح والجسد شيء واحد وأنه في الإسلام ما أن يتدنس الجسد حتى تتدنس الروح، حتى موجبات الضوء ترتبط بالجسد لتؤدي طقساً روحياً، أن تزني يعني أن تدنس روحك أيضاً ولن تتطهر إلا حين يدفع الجسد ثمناً أي حتى يتطهر، كنت أبني وأبني وأبني، وكنت دوماً أتساءل لماذا تراجع يومها عن سرير الغريبة السفيوية؟ لماذا تركتني دمائي وأنا أستمع لحكايتها؟ ولم خرجت هادئاً؟ هل يحبني الله؟

قلتها بفرح، الله يحبني، ما أروع أن يحبك الله، قلتها بعمق وفرح وابتسامة تغطي عيني الضيقتين الصغيرتين، محوت آخر نقطة حزن ذلك اليوم، ربما رأني بائع التمور في رحبة التمر وأنا أتبع الفرماشة وربما رأوني أدخل باب الأميرة المومس، وهم يعتقدون أنني اتسخت بأفعالي، ولكني سعيد بأدراي المحتجزة داخل علبة جمجمتي الضاجة بالأساطير.

لا فرق بين الروح والجسد،

كنت سأندم لو لمست صفيّة، كنت سأظل طوال حياتي أبحث عن مَعْنَى الشرف، وسيزداد حملي أنا
الَّذِي لم أجد بعد مَعْنَى للحب.

هدير الموج الَّذِي كان يسكن جمجمتي توقف، عدت للبيت، وجدت أخي يبكي كعادته كلما كَانَتْ لديه
واجبات منزلية، لن أساعده بل سأتركه يتعلم كيف يتعلم.

وخنت جسدي إذن.

وأمي تعد الكسكس بدقيق الشعير، وتنتظر عودة الحاج من رحلة قصيرة إلى مدينة السمارة
الصحراوية، لديه تجارة هُنَاكَ. قبلت جبين أمي ملقياً تحية صامتة وانسحبت إلى المطبخ لأتناول كل
مَا أجدّه أمامي، ذرة مطبوخة في الماء والملح، لبن رائب، خبز من حرشة الشعير بالزبدة والعسل،
نفضت الحاجة يديها من فتل الكسكس وتبعثني إلى غرفة السطح حيث أجلس وحيداً كبومة:

- ألن نهذا؟ قَالَتْ في حنان، لو أعلم مَا يدور في رأسك الأشهب، أنت تدري أَنِّي أفك الحرف وأني
طالبة محضرة وشيوخ كثير، ولكني لا أقرأ جوف بني آدم، لا أحد يَسْتَطِيع أن يعلم مَا يدور في
ذهن إنسان آخر.

- تبدو الحياة رحلة طويلة جداً عليّ.

- سأرسلك للصحراء لتعرف مَعْنَى الرحلات الطويلة.

وجمعت رأسي بَيْنَ كفيها، وغرست أنفي في رائحة راحتها، زيت الزيتون ورائحة الشعير والحناء
التي لا تقرط فيها، الحناء مقدسة. حضنتني ودلكت كتفي وبكيت، لم أعرف سبب بكائي لَكِنَّهُ كان
دمعاً يسيراً مختلطاً بحرقة السؤال وعذاب اللافهم، لم أرد أن أخبرها أن الهواجس تنتابني وأني
أشعر بغربة بَيْنَ أصحابي.

الحب لم يحدد نفسه بعد ...

الشرف هُوَ أَلَّا ترتكب جريمة في حق نفسك ولو بدون شهود، لا تقربوا الزنى، اقتربت منه بل
جلست على سريريه، كَانَتْ بيني وبين الفاحشة دموع صبية في العشرينيات من عمرها اسمها صفيّة،
هل يمكن لصفية أن تتزوج يوماً؟ لا أعتقد ذَلِكَ، هل أنا مثالي؟ لا أحس أبداً بأني مثالي، لَأَنَّ مَا فعلته
كان انسجاماً بَيْنَ عقلي وجسدي.

الصدقة أن تصدق وَأَلَّا تحقد، فالجميع يعيش أزمة تعاريف، أزمة مَن نحن؟ وتقلبات أمزجتنا تتحكم
بنا، ولكني كنت حساساً يرعيني النسيان دوماً، وكنت أنغلق على ذاتي وَلَا أطلب مواساة أحد، وكنت

قد اكتسبت القدرة على الابتعاد وغسلت غراء الالتصاق بالناس حولي، رسمت طريقاً واضحاً وأنا أردد لا تنظر إلى الخلف، وأحياناً لا يجب أن تنظر حتى إلى ما حولك من أمور، سر إلى الأمام كعسكري يعرف هدفه بدقة، كمجاهد لا يهمله الماضي ولا الحاضر. رفيقك الذي تعتقده صديقاً، إن لاحظت تشبته بالمكان فانسل منه ودعه يربي كسله وحده. لا تترك له فرصة التشبث بك؛ لأنه إن يكون سوى مسمار تثبيت يمنعك من الاستمرار في المشي، أشياء كثيرة يجب أن نتخلص منها كل يوم كأكياس الندم والتأجيل والتسويق.

رتبت أموري قبل أن تفلت مني قناعاتي، وكنت مسلحاً بالروايات وبمتولي الشعراوي، كنت دائماً أحتضن إحسان عبد القدوس وابن القيم الجوزية، وكان عليّ كرجل يحترم الحب أن أقرأ لابن حزم، كتابه طوق الحمامة، وأتبعه بأندرى بروتون.

أعرف أن توجهاتي مبعثرة ولكن كل شيء مرتب في ذهني، الأفكار المستوردة فقط تعكّر مائي الجيري كثاني أكسيد الأيديولوجيا، أعرف أنني بهوايتي التي اكتسبتها وأنا أنصت لقصص الصحراء، وهي السرحان بخيالي، أستطيع أن أنتج أفكاراً بلذة الاقتناع وببساطة القناعة ولا أحتاج حزباً ولا جماعة ولا توجهاً، أصلاً أفكاري تنتمي لي فقط ولا تلزم غيري.

أصبحت أنانياً جداً، حتى أفكاري أتركها لنفسني، سمير يسران يغضب من تصرفاتي، أنايتي ستمدمني وأنا أعلم ذلك، لكن خيانتها كانت أكبر، رغم عودته من الطريق المستقيم.

وهي ...

عادت من جديد، التقينا في ماريانet maria net، فتحت الكاراميل قرأت كل الرسائل وكنت خجلاً من بعض الصور المرسله عبر مواقع تجارية! لنقل تجارية، ورافقتها لبيتها، اكتشفت من جديد أنني أحبها وأنه لا يمكنني مقارنتها بأي فتاة على وجه الأرض، وانابنتي تلك الرغبة الغريبة بأن أسكت وسكت فعلاً، كان صمناً وكانت رائحة حبي تقوح في المدينة من جديد، كل المقاهي والحوانيت تبتسم في وجهينا ونحن نسير ببطء منسجمين كخصيتين، أوووف أعوذ بالله، لكن الأمر ليس جنسياً محضاً، ما رأيت في حياتي عضوين منسجمين بقدر انسجام البيضتين داخل كيس الصفن، حتى حين يضيق السروال تتعايشان، فالصديق وقت الضيق، كنت أتأملها كلوحة كانت رشيقة فقدت وزنها كثيراً بسبب الدراسة.

سألنتي عن صديقي سمير فتبادرت إلى ذهني أغنية المشاهب،

كي نديرو فمحننتا

مي بابا حنا

كان سمير مخنوقاً، التوت حول عنقه علاقة قاتلة برجاء، كان يدخل بيتهم كخطيب وكزوج مستقبلي، كان يعتقد أن الوعود ستفتح له باب الحب العذري المنسجم مع انتمائته الجديد، ولكنه كان كالديك المذبوح يرقص ألماً من شدة الحب، هذا ما ربحه من جماعة الصراط المستقيم التي كان ينتمي إليها.

أشعر بالإحباط حين أتذكر سمير، لقد رحل دون وداع ودون تخطيط مسبق، يفعل دائماً أشياء ضد توقعاتي، لا يمكن أن ننهي صداقة تشبه علاقات الحب المتطرفة، فكلماً حاولنا الابتعاد نلتصق أكثر، ونجد أن أحداً يكتب للآخر رسائل طوال مدة غيابنا، سمير كان قوياً يمكن أن يصطبر على البعد كثيراً؛ ربما لأن له قيامة يعزف عليها ألحان الغياب، وربما أيضاً لأنه كان يحب أن يعذب صديقه الذي تأكد له فيما بعد أنه نجح في امتحان الصداقة. وأنا كنت ضعيفاً وأكره نفسي وأنا ضعيف، تنقلت كثيراً وسافرت كي أقنع نفسي بالقوة ولكني أشعر دوماً بنقص ما وأنا بعيد عن سمير، كان بوصلتي التي أسير بها ليلاً، وكنت نقطته المرجعية التي تعيده للحياة. كان قاسياً وكنت قاسياً، كان غيوانياً وكنت أعشق عاصي الحلاني ونبيل شعيل، كان يقول إنها موسيقى المدللين وكان هو يستمع للمشاهب وناس الغيوان وجيل جيلالة بعد أن تخلص من عقدة الانتماء.

لقد تحرر سمير أكثر مما ينبغي ...

حتى أصبحت أفضل انغلاقه داخل الجماعة على حالة التشرذم التي يعيشها ...

كان لا مبالياً، لدرجة الصفع ...

لم أتكلم وتركتها تثرثر، كآنت تريد اعترافاً جديداً بالحب وكنت قد أسست لعلاقة جديدة مع الصمت ...

كما في النوستالجيا: للصمت تاريخ بحجم كل ما قيل من كلام، فيه يحدث كل شيء، فيه نحياء، نحدث أنفسنا، نرتب دواخلنا، نبنى الحدث القادم، في الصمت أيضاً نموت، ندفن الأمانا وشكوكنا. في الصمت مهلة لترتيب الحب داخلنا، لتفعيل قوى السكون والهدوء، يجب أن ننصت لما تحكيه الرياح على عتبات الخريف، وما تحكيه طيور النورس للفنار، هناك في عمق السكوت الطويل رداء ضد التثرثرة العابثة والفراغ، كل الأشياء تحكي في صمت رسوبي قديم، الشبائيك الحديدية الملتوية وخشب العرعار وعتبة البيت وقشور طلاء ماء الجير وتلك الرسومات الزرقاء في سقف الغرفة، اليد النحاسية على الباب الكبير، كم لها من قصص ووجوه الكتب المجلدة تحكي، التلغاز الرمادي، المذيع الخشبي، صمت ثقيل يحكي التاريخ بعيداً عن الضجيج بعيداً عن الحكي نفسه وكل مداراته، الردهات المظلمة ليل نهار، المواعيد خلف الدار. موسيقى أعراب أتيكي الشعبية، اللوز والجوز وزهر الليمون، رؤى حلم صامت حد الكلام ... تكلم يا صمت تكلم ...

الرسائل كانت تسير في اتجاه ولقاءاتنا في اتجاه آخر، ذلك أنني أكتب لها تحت ضغط الحنين والبعث، وحين تأتي أنكر كل شيء؛ لأنني كنت أعيش معها ما تريده هي من زمن الليسي، ولكني أحبها، أنا متأكد من ذلك، لكن هناك مستجدات أخرى لا تعرفها بياض الثلج، لا تدري أن هناك تلج منهمر من

كُلَّ جبل، وأن حياتي العاطفية ساحة حرب، هُنَاكَ أخريات، هُنَاكَ صاحبة النظارات الوردية هُنَاكَ الشاعرة الدرويشية، هُنَاكَ غزلان القصيرة من الشعبة المجاورة، وهناك صاحبة الفضيلة، كنت أخفي عنهم في المركز علاقتي ببياض الثلج وأعيش معهم قصصاً روتينية جميلة، كأني أتدرب على نسج بيت العنكبوت.

لم يكن لهن ذنب في ذَلِكَ، اعترفت بالحب بسهولة كبيرة لصاحبة النظارات ولكني تخليت عنها بسرعة واعترفت للرسمية وطلبت مِنْهَا السماح، احتقرتني كثيراً، احتقرتني وعرفت ذَلِكَ، بعد أن تزوجتُ مرَّتُ بقربي وهي تستهزئ بي، لقد أحببتهن في وقت من الأوقات، أحببتهن كثيراً ودفعة واحدة، ولو وزع ذلك الحب لكفاهن جميعاً.

الرسمية راسلتني قائلة: لم أنم لأنك اعترفت لي ولم أنم لأنك قررت أن تتخلى عني، ولكني لست سهلة المنال تذكر أنني لم أجبك على اعترافك، ولم أجبك على انسحابك، كنت تتفعل أمامي كأني رجل فقد بوصلة الحب، وتاه قلبه الشريد.

الدرويشية الشاعرة قَالَتْ: قلبي ليس هدية في طبق من ذهب، يلامسه كُلُّ من هبَّ ودبَّ، أحببتك وأستطيع بسرعة أن أنساك. وكل القوائد التي كتبتها لكَ كَانَتْ حقاً لكَ ومن أجلك وبسببك، لكن الكرامة فوق كل اعتبار.

صاحبة النظارات الوردية كَانَتْ صامته كتحفة فرعونية، أعتذر مِنْهَا، كَانَتْ تتألم إلى دواخلها، لم أكذب عليها أحببتها بصدق ولكن بياض الثلج أعمى عيوني، آخر العاشقات المستنسخات، لم تكن تحب سوى ابتسامتي العريضة.

سمير، يعرف كُلَّ شَيْءٍ يعرف أنني مضطرب جداً في هذه المرحلة، وهو لم يكن أقل اضطراباً مني، كان يقول دوماً: إننا نموت ببطء للأسف الشديد، مثل الشمعة، الحب وحده لا يكفي لمواجهة الحياة، يقسم بالله العظيم أن الحب وحده لا يكفي، الإرادة لا تكفي، لا شَيْءٌ يكفي في هَذَا العالم المعطوب. المسارات كثيرة وليس الاختيار هو الذي يوجهنا، مَا يوجهنا حضورنا في الزمان والمكان. وعلينا أن نستمر، أن نقاوم بشدة تقلبات الحياة. علينا أن نتغير كل يوم، أن نكبر شيئاً فشيئاً وأن نتخلى عن مراهقتنا الأولى وأن نحكم العقل الموضوعي أكثر، وأن نعطي للجسد قيمة أكبر.

إنه يستعد ليتغير، إنَّهَا أول مرة نستعمل فيها كلمة التغيير، وَمُنذُ ذَلِكَ الحين ونحن نفكر في التغيير دون أن نتغير، سمير بدأ يتراجع عن كل شَيْءٍ، عن قناعاتنا المشتركة عن مفاهيم الحب والصدقة والحياة والأخرة يقول إن الحياة تمضي وإننا نكبر لتصغر الحياة داخلنا، وأن الحب أصبح سلعة توضع في الميزان، كالبطاطس والطماطم واللحم والفواكه، إنه يقاس كما تقاس المسافات.

أسايره دائماً في أفكاره، لا مجال لإقناع سمير بعكس مَا يَقُول، ومزاجه المتقلب لا يسمح بالنقاش، وهو يقسم الحب إلى مراحل، مرحلة عدم النضج ومرحلة النضج. ويقول إن النضج يعني الزواج، سمير كان في مهب الرِّيح وكان يغامر بكل شَيْءٍ، كمال الذي كان صديقه الوفي والذي نسميه

جوهرتنا الثمينة أصبح يسميه قطعة زجاج، صديقه الحميمة يسميها عاهرة، كان تحت وطأة حلم جديد دفعنا ثمنه غالياً. أنا وَهُوَ فقط، أما الآخرون فقد استمروا في حياتهم عادية كأن شيئاً لم يكن، كانوا يعيشون حياة وأنا وسمير كنا نتساءل مَا الحياة؟

مَعَ نهاية الموسم الجامعي، حدثت أشياء كثيرة وبسرعة كبيرة، شبكة من السيالات العاطفية العابرة للأشخاص لا أحد في شعبتنا يَسْتَطِيعُ استيعابها، هُنَا غاب بياض الثلج ... بقيت محنطة فِي الرسائل البريدية، تحكي عن عالمها الأنثوي الخاص، وأنا كنت أعيش تذبذباً فِي المحطات، جاءت الرسامة صباح إثنين غَيْرَ عادي لتخبرني أَنَّها فقدت كُلَّ ثقتها فِي سلم القيم، وأن كُلَّ مبادئ التعليم وأخلاقيات المهنة أشياء من الوهم. حاولت أن أستفسر منها عمّا حدث بالضبط فبدأت تحكي عَلَى لسان تلميذة من الصف السادس تقيم علاقة مَعَ أستاذ طالب من شعبتنا، استطاع أن يستدرجها لبيتها، صراحة شعرت بالضحك حينها لأنها كَانَتْ حمراء من الخجل كأنها معنية بالأمر، ولأنني كنت عبثي الهوى لم أفهم مقولتها عن سلم القيم المنهار، كَانَتْ تَقُولُ لي إِنَّها طفلة من مستوى الابتدائي قاصر وبريئة وَإِنَّها جريمة كبرى. قلت لَهَا كأي وكيل هل رفع أحدهم شكوى؟ قَالَتْ: لا.

استكرت حَقّاً أن يُقَدِّمَ عبد القادر عَلَى استدراج طفلة ويغويها بل ويقدمها لصديقه الخجول ليلاعبها بدوره. كُلُّ أمراض المعلمين مختزلة فِي هَذَا الحادث السري الَّذِي لا يعلم أحد أن الجميع يعلمه. كَمَا يَقُولُ سمير فِي تعريفه للسر: السر هُوَ الَّذِي يسري بَيْنَ النَّاسِ.

أشياء كثيرة حدثت فِي أواخر السنة، الثنائيات تفرقت لأنها لا تستطيع الالتزام خصوصاً وأن هاجس الجبال وحياة الجبال والتعيين وعدم الاستقرار يخيم عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، من جهتي أردت تعييناً فردياً فأنا كَانَتْ لي مخططاتي الشخصية، سعد فِي تعيين مشترك مَعَ يوسف سيندم عليه طول حياته.

فِي محاولة أخيرة لجس النبض كتبت رسالة طويلة للرسامة، قلت لَهَا إِنِّي أحبها، هكذا بسرعة أتت الفكرة ونفذت وَلِأَنَّ القَلَمَ كان يجري بِهِ دم أحلام مستغانمي وذاكرة الجزائر والجسد وَكَانَتْ بِهِ أساليب قصة حب مجوسية، وغابات الياسمين الواسينية فقد كان التعبير سهلاً فِيهِ الكثير من الومضات والذكريات، كأنه اختزل سنتين من المواقف والابتسامات، لم تجبني برسالة بل طلبت أن نلتقي؛ لأنها كَمَا قَالَتْ لا تحب توثيق عواطفها، التقينا، أمام ليسي سيدي وسيدي، انتزعت مِنْهَا اعترافاً بالحب قَالَتْ إِنَّها معجبة بأخلاقي، رفضت ذَلِكَ كتصريح سياسي، ثم قَالَتْ إِنَّها معجبة بي كشخصية رائعة، ولم أقتنع قَالَتْ أنا معجبة بك يا سعيد. قلت لَهَا: واش كتبغيني ولا لا ... قَالَتْ: نعم.

لأنني شاب معقد، أحقق التكوين، أحسست بأنني أخطأت فِي حقها، نظرت حولي، إِنَّهُ الليسي مرة أخرى، سيدي وسيدي، كلما اعترفت لفتاة أَوْ اعترفت لكَ تحس بضغط الالتزام، أجمل العلاقات تعيش عَلَى حواف الشك، اليقين يقتلها، الالتزام يخنقها، قلبي سبب كُلِّ أزماتي، فحين أكتب رسالة

حب، أكتب ملء جوفي كأني غسان كنفاني، تحضرني كل روايات العشق فيتحول إعجابي بإحداهن مع أول رسالة إلى مجلد حب ثقيل بالمجازات.

أكره الالتزام خصوصًا مع فتاة برقة الرسامة، جميلة ونشيطة وتحب الحياة، تحب الألوان، تمتلك عيون كليوباترا، بقيت طوال ما بعد الزوال أفكر في هذا المكان الذي أصبت فيه لأول مرة بداء الحب وها أنا أدخل فيه قصة لا أدري كيف ولأ لماذا ...

هكذا أضع نفسي في مهب اللافهم، أتخذ قرارات بسيطة بداية لكنّها سرعان ما تتعقد، لم فعلت ذلك؟ هكذا دون سابق إنذار كتبت لها رسالة فيها استعراض كبير للعضلات اللغوية أكثر مما فيها من حقيقة المشاعر.

أجمل حب يعيش مع الشك ... أن تشك أنّها تحبك أفضل من أن تتيقن من أن عليك دين يجب أن ترده، ففي الأخير يبقى السؤال المطروح أرضًا، كيف أتخلص منها فأنا ... فأنا ... أنا أحب بياض الثلج ...

انتهت الدراسة والتكوين والتدريبات الميدانية، وانتهى كل شيء.

اكتشفت أنّي شخص آخر، ربما كبرت قليلًا كما قالت أمي.

عدت ذات مساء وأخبرت الحاجة أنّي حصلت على شهادتي وأني أصبحت معلمًا رسميًا، فرحت كثيرًا رغم اعتراض أبي الذي يقول إن باب الإجارة رزقه ضيق وليس كباب التجارة، وعلقت أختي الكبرى التي لا تحسني إلا على شعري.

- تأخذ الشهادة والرضى والشعر الأصفر والقامة وتترك لنا الفتات وتقول إنك سيئ الحظ!

- هل دخلت غرفتي أيتها الحمقاء. قلت مغتاظًا وأنا أتبعها لألقنها درسًا على فضولها.

- لا لم أدخل، أنا لا أدخل غرف الذكور، هي التي تخرج إليّ، ونظرت إلى أخي الذي يستعد للهرب.

- فعلتها أيها القزم الأسمر؟

- أقسم بالله لم ألمس المذكرة، أقسم بالله لم ألمسها، أنت تركتها مفتوحة فوق المكتب، أقسم بالله.

- اه تعال إذن بقربي.

- لا ...

- تعال، لا تخف.

- لا، قَالَ لا وهرب حاملاً صندله بَيْنَ يديه، وسط لهيب من الوعيد.

- سأنتظرِكَ حَتَّى تدخل، لن تبيت في الخارج طبعًا، وأنت سأسرح شعرك اليوم.

ولكني لم أجدُها بقربي، بحثت في كُلِّ مكان ولم أعثر عليها، وتدخلت الحاجة.

- الله يرضى عَنكَ ولدي، عقلك أكبر من عقولهم، وأعدك بتلقينهم درسًا في الحال، مدني فقط بحزامي الجلدي وسأجلدهم كلهم عَلَى تطفلهم.

واهتز المساء بالضحكات ولو عَلَي مَضض، البيت الكبير ضاَجَّ بالفرح هَذِهِ الليلة، ونور الدين نام في غرفة الباب الكبير قرب أبي الذي يدلُّه كثيرًا، وهددني بأن يخبر الحاج أَنِّي مغرم بسبع فتيات بيضاوات، واحدة منهن ترتدي نظارات وردية والأخرى تصنع الشاي في الصحراء مَعَ شيخ القافلة، وجدت نفسي بَيْنَ أيدي طفل بليد وأخت كبرى مشاغبة.

ولكن ...

هُنَاكَ شَيْءٌ في داخلي يزداد غربة.

أشعر بالخوف، بالفزع، بالاطمئنان، بالحب، بخليط غَيْر متجانس من الذبذبات العاطفية، كأنني ريح مدارية فقدت بوصلتها، كطمي غطاه ماء كثير ودموع رقرقة الحزن، أشعر أَيْضًا بالفرح الخفيف يغمرني بَيْنَ لحظة وأخرى، أشعر بالثقل وبالحركة كدوار الشمس، دائري ورزين ولكني أَيْضًا أحس بالعمق، أحفر داخلي لأجدني مسكونًا بأشخاص آخرين يجوبون دواخلي المجهولة كدرب قديم في حي مهجور، صيف 2001 ليس عاديًا إِنَّهُ محطة حياة، وقفت عنده كثيرًا كثيرًا جدًّا، لا لأتزوج بالبنزين الكافي بل لأصلح مَا أفسده الرُكود العاطفي الناتج عن فائض الحب وفائض الصداقة وفائض الغدر أَيْضًا، توقفت لأتخلص مما يثقلني من علاقات وتعالقات، ربطت جسورًا جديدة بيني وبين غادة، غادة لَيْسَتْ فتاة جديدة، غادة السمان، فلم أقرأ بيروت 75 كرواية حرب وَلَا كرواية سياسية بل كزاوية حياة، فكنت مثلها محشورًا في خوافي مرعبة من الفقد واليتم والمرض، أنظر للآخرين كقنابل ترتمي داخلي وأرى نفسي ساحة معركة تتجاذبني قرارات مختلفة، كنت سريع الغضب سريع اليأس سريع الإحباط، وفي نفس الوقت سريع الضحك وصاحب نكتة، ربما أسوأ نكتة، ولكني كنت قابلاً للضحك، صداقتي الحميمة تحولت بسرعة لعلاقات حب ترتوي من المستقبل ومن البعد، بل تأكل من المستقبل فرحه القادم، سمير يعلم مَا مَعْنَى صَيْف 2001، شمس تارودانت حارقة دومًا كأنها تكررنا، ربما هِيَ التي ذوبت المشاعر الراقية التي كَانَتْ تجمعني بصديقاتي، بقيت لي روابط عميقة مَعَ حكيمة، ربما لحكمتها فقط لا لطيشي، كَانَتْ آخر كلماتها: يا

صاحب الظل الطويل لا تبخل عني بظلك سأظل أحتاجك. أما صاحبة العيون الحزينة فلم أعد أتذكر كيف انتهى صرح علاقتنا لا بدُّ أنه زلزال، لا بدُّ أنه كمال، أحدهما كان كاذبًا، كمال كان كاذبًا تبين لي هذا فيما بعد حين أنت لبיתי في المحايطة واستقبلتها أمي بحفاوة بالغة، أمي تستقبل كل صديقاتي على أساس أنهن خطيباتي، تعتقد دومًا أن كل فتاة أعرفها هي مشروع زواج، لا يمكنك تغيير قناعات أمي أبدًا، ويتأكد دومًا أن أمي على حق.

صيف حارق جمع شخصيتي ووضعها في فرن الطين الكبير، ذوبني الحب وجعل مني فتات إنسان تالف يجب إعادة تصنيعه أو تدويره كنفاية، فتحت قلبي لأكثر من ريح حارة تلفح رؤاي، هكذا أحسست في هذا الصيف الذي لا ينسى، عوض أن أخرج من الفرن كانية فخار، كقطعة فنية، خرجت محترقًا كخبز منسي ملتصق على حافة الكانون، على حافة التاريخ الشخصي لأناس آخرين، سمير كان غاضبًا جدًا مني على الخصوص، يقول إن طريقي في حل المشاكل وفي التصرف معه تزعجه كثيرًا، وأنه يريد أن يبقى وحيدًا فقط وطيلة حياته، يقول أيضًا إن ما أعتقده في ذاتي طوباوي جدًا ومستحيل، وما يوتره أكثر هو شعوره بأني أضغط عليه، وكان عليه أن يهرب من تارودانت والأكيد أنني لست السبب المباشر، لم يكن بخير كان يخفي أشياء كثيرة عني، كتب لي ملاحظة يقول فيها:

أنت تتسبب في نفوري منك، تعتقد أنك ضحية وأن لا أحد يحبك وتبني أوهاماً وتؤسس عليها حقائق تقرضها علي.

سمير لم يكن بخير كان يكتب ضد نفسه، صحيح أن الكل متوتر ولكن هو كان توتره موجهاً ضدي فقط، كان يقول إن الصداقة مستحيلة وكنت أؤكد أن الحب هو المستحيل وأنا سنكون رموز وفاء، هل كنت حقًا مثاليًا لهذه الدرجة؟ هل كنت أعي ذاتي كصديق وفي؟ لم هذه المثالية؟ بعد ذلك اعترف سمير أنه كان مخوفًا مختنقًا، وأنه كان يبني عالمًا له وحده مبتعدًا عني على الخصوص لأنه لا يريد أن يفقدني، كتب فيما بعد، أن سولال أي أنا لا يمكن أن يعوضه شخص عن حب سمير ويرى أن سمير لن يجد صديقًا كسولال، ذكريات رهيبة تخنني لحظة الكتابة فأمتنع عن البوح للحظات، فأنا أشنقه حقًا في بعده في ضبابه في دخانه، أشعر بانهزامية تجتاحني وأنا أتحدث عنه، أريد أن أراه فقط، لكن هو أغلق كل السبل المؤدية إليه، كذلك كانت صداقتنا حد التطرف.

انتهى العام الدراسي الأخير بالنسبة لي، سألتحق بالعمل مع بداية السنة الدراسية، وهناك حب عالق، أكره الالتزام، أكره سارتر أشد الكره لما فعله بي، وأكره أخلاق نيتشه أيضًا، أحب أحلام مستغانمي وغادة السمان فقط.

الصيف حارٌ جدًا، الجسد متطلب، والبركان، والمحفظة فارغة، لا سفر ولا حركة في الفضاء، سأقضي الصيف في البيت إذن كأغلب أيام الصيف، سيكون لدي الوقت لأفكر في كل شيء، حتى في الاختيار التفاهة بين حلق إبطي بشفرة حلاقة أو بالآلة الكهربائية، نعم حين يكون لديك فائض وقت

فارغ تفكر في تفاصيل صغيرة جداً وأصغر منها أيضاً، ولكن سمير لا يترك لك الفرصة لتأمل في موضوع واحد فقط، إنه يخترق البنيات طولاً وعرضاً، ولكن الموضوع الرئيس في كل حديث بيننا، هو الجسد، أنا خجول جداً، لا أحدث غير سمير في مواضيع كهذه، لأنني لا أعتقد أنه موضوع قابل للنقاش، كثيراً ما يناقش الرفاق علاقاتهم الحميمة في العلن، ولكن الملاحظ أن بعضهم يكتفي بالنقاش فقط ليجد فيه متعته، فتجده ينصت بكل حواسه لمن يحكي، كأنه يشاهد فيلماً، والذي يحكي يتجراً ويزيد من التفاصيل في سبيل الفرجة، حتى لو خطف قبلة عابرة وراء سور تارودانت تجده ينسج حولها قصة حب كاملة السرير؛ لأنه في ذهنه بنى سيناريو طويل قبلها، ربما احتاج مع فتاته ألف أغنية لكازم الساهر، وربما عاش في خياله فيلماً كاملاً.

الحديث عن الجنس ممارسة جنسية من نوع آخر.

لذلك أشعر بالخجل من تلك الحوارات، وأكرهها، ولكن هي في الأصل فضح لا أخلاقي لعلاقات عابرة؛ لذلك تجد الفتاة نفسها في آخر المطاف قد رافقت حبيبها وثلة من أصدقائه دون أن تعلم ذلك، يكفي أن تعطي نفسها لأحدهم حتى يجد الآخرون مفتاحها، للجسد منطق آخر في العلاقات، بعيد جداً عن الحب، بعيد عن الروح، وعن العاطفة، له منطق خاص يسمى المتعة، المتعة غير الشهوة، الشهوة علنية تسيطر في الضوء والظلام، ولكن المتعة شيء داخلي لا يحكمه ضوء، إنها كواليس ومسارات سرية تلامس الحميمة المطلقة، الجنس مثلاً شهوة، ولكن القبلة، القبلة وحدها المعلقة في الزمن، تلك التي لا تمتد طويلاً لتسقط في الشهوة، لا تمتد أبداً بل تتحني خجلاً لتكتفي بأنها حدثت فعلاً كلمسة ريشة من بطن الحمام، القبلة متعة تتداخل مع التاريخ الشخصي لتصنع حدثاً عاطفياً، أما السريريات من البراكين فتبقى حفرًا في الجسد، مهما حاولت تطهيرها تبقى بقعاً حيوانية لا إحساس فيها؛ لأن الشهوة لا تنتهي، إنها متجددة على الدوام، كحفرة كلما أخذت منها كبرت وزادت؛ لذلك كان لي منطق حرمان أعود إليه كلما حاصرني الجسد، كصوفي أصوم على الشهوات حتى حين.

وهناك من اختار البراكين، من اختار الجحيم.

ما معنى أن تكون طائشاً؟

في صيف 2001 يمكن أن تفعل أي شيء، مهما كان جنونياً، يمكنك أن تحرق الماضي وتنتكر لكل شيء له علاقة بك، يمكنك ببساطة أن تنسى الحب وما جاوره من عواصف إنسانية، تعب الحب موجع، لكن ما أصعب أن تنسى شيئاً تضافرت كل الخلايا في إنشائه وتكوينه، كنت أمر قرب إعدادية الحسن الأول أمام حي بلاقتاش، فلمحتها تسير بخطى رياضية مستقيمة، ترتدي سروالاً جينز أزرق، وديباردور أبيض بأزرار زرقاء، تحمل مرتب أوراق تضع فيه ربما دفاترها، وكانت مشيتها عسكرية ولكنها أنثوية للغاية، لنقل على طريقة أنجلينا جولي في الهبوط من السلم في فيلم مسز أند مستر سميث، أن تكون طائشاً يعني أن تكلمها مباشرة دون سابق ارتباك، لكن ماذا يمكن أن تقول لفتاة تمشي في الشارع لا تعرف عنها إلا شكلها وملابسها الأمريكية، هل يمكن أن تقول

بفجاجة: الزين منتصاحبوش، أو تقول: شفت فالبنات حتى عيبت ما شفت بحالك، واش انتي رودانية؟ هي لن تجيبك، هي ستسير فقط، ولن تغير وتيرة مشيها، لكنّها تسمعك، تفهم ما تقوله لها، عليك أن تستمر فقط، لا تسكت، أكثر ما تحبه الفتاة هو الثرثرة، اجعلها تعتقد أنك بهلوان، أضحكها إن أمكنك ذلك، لكن لا تسكت تكلم فقط، صف لها عينيها النعسانتين، وشعرها القصير، قل لها إنك تحب الشعر القصير جداً، قل لها إن أنفها فرعوني، أقصد كليوباتري، قل لها إنك شاعر، قل لها إنك تحب لأول مرة. نعم هذه هي الكذبة الكبرى الجاهزة لكل العلاقات، أنت أول حب في حياتي، على الطريقة البرازيلية، قل لها عار عليك أن تتركيني أحترق هكذا، ليس ذنبي إن أحببتك، جمالك هو السبب، لك حضور (ما معنى حضور؟) يربكني، عادة أنا شخص مهذب ولكن لا توجد طريقة أخرى لأكلمك، هل أضيع هذه الفرصة وقد لا ألمحك إلا بعد سنوات، أرجوك امنحيني فرصة للتعبير لك، الحب حلال وليس حرام، قل لها كل ما تجده على لسانك من كلام، دون ترتيب مسبق، وابتح حولك عن أي جملة ولو كانت مكتوبة على جدار الإعدادية، المرأة بلا حبيب كالبقرة بلا حليب، لا، لا تقل هذه، تجاوز مسألة الجدران، فهي لا تتضمن إلا الفاحش من الكلام ففلان فعل لفلانة، فلانة تذهب للحقل الفلاني، قل لها كنبغيك.

لكنّها لا تستجيب؛ لذلك صمتُ وبقيتُ أسير إلى جانبها في صمتٍ، قد يفعل الصمتُ ما لم يقدر عليه الكلام؛ لأنها بقيت كتمثال متحرك، مررت بخفة أمامها إلى الجهة الأخرى، وبدأت من جديد أهاتف قلبها عله يلين، ما باليد حيلة رأيتك فاندَهشت، شيء تحرك في داخلي، أشعر بأنك ستغيرين حياتي، سأترك السجائر من أجلك (رغم أنني لا أدخن) لن أستطيع العيش دونك أبداً، أعطني فرصة وإن لم أكن رجلاً حقيقياً فاتركيني، ولكن أعطني فرصة لتعرفيني، لم أكن أو من بالحب قبل اليوم، لكن ما يحدث لي غريب، لم أكلم فتاة في الشارع من قبل؛ لأنني أحترم الشارع، أح أحترم المرأة، المرأة كالرجل تماماً لها حق المساواة، وأنا أقدر كل هذا، أعرف كيف تحسين الآن، تقولين إنني شاب مستهتر لا يحترم المرأة هذا ليس صحيحاً إن الحب وحده يجعلنا ... أخيراً ابتسمت وقالت:

- i m sorry i don't speak arabic

أجمل ما في الأمر أنني استعملت كل التعابير الرودانية في الصيد البري لكنّها كانت فتاة أمريكية من منظمة السلام الأخضر، تقطن بالمدينة من أجل مهمة إنسانية. وهل توجد أزمة إنسانسة أكبر من هذا الفراغ الذي نعيشه.

كانت عطلة 2001 إذن حاسمة، فاجأت نفسي بكثير من القرارات البسيطة، كنت وحدي أجول بالمدينة وأتذكر حياتي، رغم أن عمري كان فقط 21 سنة إلا أنني أحس بنضج في داخلي، نحن الحزاني نكبر بسرعة، الألم يزيدنا نضجاً، الألم عمر آخر، سأعمل إذن، سيكون لي مدخول قار كأني موظف. سأتلصص من الإحراج الذي يسببه لي طلب المصروف من أبي، وسأساعده حين يكون في أزمة ويكون السوق راكداً.

تعبت اليوم من الكتابة، والطبيب يحذرنى من الإجهاد، وذاكرتني تخور قواها، أيها الألم الصامت تريث، أنت تأخذني إلى نهاية وأنا ما زلت أخط البدايات، تريث في قتلي، وتمهل في أخذي، ارتفع الألم وأمسك برقبتي التي تيبست، سقطت أوراقى تحت السرير وجمعتها الممرضة دون ترتيب.

- سيد سولال، تبدو شاحبًا.

- متعب جدًا، أريد مضادات الألم.

- سأستدعي الطبيب.

الموت سيد أمكنة كهذه، مصحة الأنكولوجيا، وأكبر أطباء الأورام ومركز جامعي للبحث العلمي وجراثيم صغيرة قد تقضي عليّ. سأموت دون أن أنهي سيرة الوجد. أريد أن أنهي كل شيء كالعربي باطمئنا، الغيواني الذي خط ألمه ورحيله. يهتز جسمي حين أغيب كما تقول الممرضة التي لم أقبلها بعد، هي ليست أول مرة أرغب فيها بالكتابة، فقد كان لي مشروع أدبي من قبل ولكني لم أكمله، علاقتي متوترة بالقلم والأوراق، منذ أول سطر كتبتة.

كلام كثير يجب أن أقوله لكن لا أرى ضرورة لكتابته الآن، خصوصًا في علاقتي بسمير الذي يعاني كثيرًا من صمتي، فأول قراراتي أن أصمت، لا أحد يعرف ما أفكر فيه، في بداية سبتمبر، وربما في هذه السنة تأسست علاقتي مع الصمت وارتبطت بشهر سبتمبر العواصف، أحب المطر، المطر يغسل الأحزان، هذا ما تعلمته من سبتمبر، سمير أرسل لي رسالة يقول فيها:

«لبيتك تتكلم فتخبرني برأيك الصريح، إنني أحاول أن أرضيك لكني أجهل الطريقة، كيف أرضيك؟ ستغضب مني وتسبني حين أعود من الدار البيضاء، سأحضر لك هدية، أنا حيران، لقد بدأت أكرهك أيها المتستر، إذا لم تجبني الآن، فسأفعل ما أشاء، أنت تحاول أن تزعجني بصمتك العنيد، عليك أن تتحمل ما أفعله أنا لا أنزعج بما يرضيك وما لا يرضيك... فعلت أشياء رهيبية، لا أجرو، لا أجرو على إخبارك بها لأنك ستغضب، أنا حائر ومرتبك إنها مسألة مصيرية جدًا. رغم أنف سولال سأفعل ما أريد».

قرأت رسالته، ولم أغضب ولم أنفعل، وحين عاد من الدار البيضاء التقينا وبدأ يحكي عن مغامرته غير المحسوبة المخاطر، قال إنه سيفقد حريته وأحلامه وإلهامه، وبقي ينتظر مني الأجوبة وكنت صامتًا.

أحيانًا أصمت كتمثال، لا أحد يستطيع جعلي أتكلم أو أنفعل، أنا أنفعل في دواخلي وأنظر إلى من حولي كشاشة صامتة، وتقودني نظراتي فقط، كنت أستعد لأتخذ قراراتي أيضًا لقد فكرت مطولاً في كل شيء، فاكتشفت أنني كائن حائر أيضًا لا يمكنني الاستقرار إلا في قصة حب هادئة، وكان علي أن أكون أقوى من أي وقت مضى، وأن أتحمل مسؤولياتي، ما كان ينقل كاهل سمير هو نفسه ما

يثقل كاهلي، إنَّه التفكير في المستقبل، كان عليَّ أن أرمي كلَّ الماضي ورائي وأن أتخلص من نفسي، مما سيقوله الآخرون عني، قررت أن أكون وفيًّا لبياض الثلج، وأن أتزوج.

«أخي العزيز سمير ...

اشتقت إليك كثيرًا هذه المرة، كرهتُ صمتي وندمتُ عليه، لكن أحيانًا تجتاحني تلكَ الموجة من السواد فأكون كشجرة أركان وحيدة في الصحراء، ولو كُانت مثقلة بالثمار لا ينتبه إليها أحد، مثقل أنا بالكلام ولم أستطع أن أتحدث، أريد أن أهدأ فقط، أنت تجعلني دائمًا محط اعتذار، اعتدت أن أبادر أنا دومًا بالحديث، ولكن هذه المرة لم أستطع، كُانت لي عوالم أخرى، عبثي لا أنفعل، وهذا ما يحدث لي أحيانًا حتَّى لو مات شخص أمامي لا أتأثر، الرمال تحيط بقلبي، أنا واحة هجمت عليها الصحراء ذات زمن فحولتها إلى كتبان متحركة، دواخلي جافة وغيَّر مستقرة، أنتظر أن تزحف الرمال عن جسدي لأتحرك بقوة أكبر، لكنني لم أستطع أن أتحوّل إلى واحة من جديد حين كنت تكلمني، أسف جدًّا، ها أنا أعتذر لك من جديد رغم أنك المخطئ في الأصل ولكن لا كبرياء في الصداقة، وأعرف أنك بعدها ستفعل أشياء جنونية، أو ربما ستقول لي إن اعتذرتُ لك فاعلم أنني أصبحت أكرهك وأصنّفك مثل الآخرين، ولن تعرفني من جديد».

«أخي العزيز سمير ...

تقولُ إنِّي متشائم جدًّا، والله لست متشائمًا، أنا نوع خاصٌّ من الشَّبَاب تكونت أحاسيسه في مجمع متناقضات، لست معتدلاً أبدًا، لست بسيطًا، كُبرت وكُبرت عُقدِي، اتخذتُك أباً وصديقًا، إنَّها الظروف، إنَّه الجو الذي جعلني هكذا، أحيانًا لا أفهم نفسي فالمشاعر التي تجتاحني لا أجد لها تفسيرًا في أي علم، الثاني والعشرين من يوليو 2001 اليوم أحسست بالضغط العالي الحب، أحسست بأنني تجاوزت حريتي ولأمت حرية الآخرين، أنا شخص في حقيقته مختلف عما هي عليه تصرفاته، أنا شيء وأفعالي شيء آخر، متناقض مع نفسي، مع ذاتي، مع كل شيء، أريد أن أدخن ولكنني لا أريد حقًا، قربت فنيئة البيرة إلى فمي وتراجعت، لأنني لا أريد أن أفقد خصوصياتي كرجل من الزمن العاصف يقبّل الوقت في انتظار الحياة، ويستمر في الحياة في انتظار السعادة، ارتباطاتي كلها منطرفة، كل شيء حولي يبدو غير عادي، أكره الأقلام والدفاتر، سأكسرهما لو لم تكن هدية من صديق، شفرات الحلاقة متراكمة بقربي، منذ هجوم الشعر على ذقني في مراهقتي المتأخرة نسبيًا، وأنا أراكم شفرات الحلاقة كأن بيننا حميمية المراهقة المتوسطة، تنقلت كثيرًا بين تمضغوست وإمينتانوت، ضعنا في الجبل ولكن لما عدت وجدت معي ذلك الشخص الذي أكرهه داخلي».

«أخي العزيز سمير ...

«لقد أخطأت كثيرًا في حقن، تسرعت وأدخلت الرسامة في دوامة عاطفية، ففي اليوم الذي اعترفت لي بحبها كنت قد تلقيت رسالة من بياض الثلج، وتلقيت إشارة من صاحبة النظارات الوردية، هي

نفسها سألت الرسامة هل ما زال متمسكًا بي، كيف ستجيبها هل ستقول لها مثلًا إنه لم يعد كذلك وإنه متمسك بي أنا، ما حجم خيانتني لأنثي تركتها من أجل صديقتها التي كانت تتدخل لتصلح بيننا، لا أظن أن الوقت كافٍ لتسامحني، أو حتى لتفهم ما حدث بالتفصيل، ما كان يقتلني في الفرعونية أنها لا تعبر، أما الرسامة فقد بدت سعيدة وأنا أخبرها بقصة اخترعتها للتو، لقد كانت تعجبني لكنها ليست ذلك النوع الذي يستطيع أن يعصر السحاب ليستخرج منه خمراً، لا أستطيع أن ألعب بثلاث نساء، لست من ذلك النوع، كان عليّ أن أختار، وكان فعل الاختيار نفسه محط شك، أنا أشك في كل شيء، لا أعرف ما أريد وما لا أريد. سامحني أخي العزيز، أنتهج سياسة عدم تحديد المواقف، أنتظر فقط مرور الوقت وأنتظر أن تأتي عاصفة لتحولني إلى واحة وتزيل عني الرمال الحمراء التي بدأت تسمح للأحراش بالنمو عليّ».

أخوك سولال رشدي

إنه أهم صيف في حياتي، اشتغل فيه ذهني كثيرًا جدًّا، قرأت فيه أكثر مما قرأت في أي صيف آخر، عمري 21 سنة فقط، ولم أقل فقط؟ إنه عمر بكامله، لدي ذلك الإحساس الغريب بأني سأموت مبكرًا، كانت الفكرة التي تدور في ذهني أن أبقى وحيدًا طيلة حياتي وأن أبدأ الكتابة.

بدأت الكتابة إذن، أن يكون لك مشروع أدبي يعني أن تمتلئ حد التخمة بالحياة، وإنك لن تحتاج إلى الآخر مهما كان قريبًا لقلبك، شعرت بالخوف، سأظل منحنيًا أكتب وأكتب عن كل صغيرة وكبيرة، حملت القلم وخطت أربعين صفحة عن الموت دفعة واحدة، فشعرت بالرعب، برعب كبير فتركت كل شيء مكانه، وتركت أحاسيسي المريضة بالوهم والتناقض، وراسلت بياض الثلج، أخبرتها أنني أريد الزواج منها، وانتظرت رسالتها، زمن الرسائل يدع الوقت للكثير من الأحداث، وحين تقرر الزواج عليك أن تنهي كل علاقاتك السابقة، علاقتي بالوردي ذابت فقط ولم تحسم، انتهت كرجل حمل حقيبته ورحل عن الوطن، كانت طيبة جدًّا ولكني كنت أريد فتاة ثائرة، أريد فتاة تقتحم الحياة ولا تتراجع كحلزون أمام أول عاصفة، لكنها كانت نسمة طبعت حياتي مدة، الرسامة انقطعت أخبارها، وحين التقيت بها يومًا قالت لي جملة فيها من التحدي ما فيها؛ أي غياب أن تعتذر عن الحب، أي غياب أن تقول لفتاة سامحيني أخطأت في قراءة مشاعري، أي غياب أن تترك فتاة بعد اعترافك لها مباشرة، حين التقينا قالت لي:

- شفتي أنا ساهلة ليك، ونوض راه الحياة ما فيهاش غي الحب.

جميل جدًّا أن تقول ذلك، أفضل أن أنجح بدل أن أجح فتاة، فكرت في كل اللواتي عبرن حياتي منذ ضربة الحب في الليسي، وحتى ما كان قبلها من إعجابات مرهقة، الفتاة التي تزوجها أستاذنا الشاذ وتركها بعد ذلك، التوأمان المشتعلتان اللتان أنارتا الثانوية، والتي لم أعرف أي منهما عانقتني يومًا، كل شيء سأتركه ورأي وأدوب في بياض الثلج.

بياض الثلج ذوبني.

أعتذر لكل اللواتي عبرن حياتي ...

كان يجب أن أكون أكثر وفاءً ...

لَكِنَّهُ القلب، سمير صديقي ترك قلبه فوق المائدة، يخاف أن يكون موضوع خطبة الجمعة لهذا الأسبوع، ففقيه الدوار لمحّه تحت شجرة التين رفقتها، كانا جالسين فقط كحبيبين، وسمير حينها لم يكن قد كسر الخطوط الحمراء، كَانَتْ لَهُ مبادئ، فقد خرج للتو من عالم التصوف رفقة جماعة من العدل والإحسان، كان جميلاً بلحية خفيفة وآثار الرباطات المقدسة على وجهه، هكذا كنت أمازحه، وسبب خروجه عن الجماعة أنه يحب الموسيقى ويجب تلك الفتاة الناعمة، التي قرر أن يتزوجها، وشجعتة على ذلك، وسمير حين تشجعه على شيء يشك في صلاحيته بسرعة، وإن فعلت العكس ومنعت عنه فكرة يتشبث بها، يقول: لو كان الناس مثلي لتغيرت مدونة الأحوال الشخصية.

فهو يقدس الحب لدرجة كبيرة، وكان يتحدى الجميع من أجلها، كَانَتْ فتاة طيبة وقرؤية، جميلة جداً، لَكِنَّهَا لم تكن ذكية، وكنت أدري بهذا الحب من سمير، كنت أعلم أنه سينتهي في سلة الأحوال العاطفية، كان الضغط كبيراً، وفي مجتمع مريض يكون الأفراد قرباناً لآلهة الغباء، وكان عليه أن ينسحب.

أهداني رسالة بخط يدها، كتبها رفقتها في منزلهم، وتلك مصيبة، كيف سينسحب من علاقة متشابكة يعلم بها القاضي والداني، وشرب قهوة أمها، وفي عرف الدواوير الأمازيغية، وهذا غير مدون في مدونة الأحوال العشقية، أن تشرب قهوة الأم معناه أن تلتزم وأن تسير باتجاه الخطوة المقبلة وهي الخطبة، وهو الشيء الذي لم يحدث ... فقد انسحب سمير بجرأة مستغلاً حدثاً بسيطاً للغاية لا يستحق أن يكون سبب فراق، وتزوجت هي بعد شهر من ابن عمها. رسالتها كانت أعلى رسالة كما قال؛ لأنه دفع مقابلها ثمناً باهظاً، أو لنقل كان سيدفع مقابلها حياة بكاملها، حياة ستفقد المعنى والقصد.

أكره قصص الحب القروية، إنها عواصف في فنان، منذ ذلك الحين عرفت أن الحب والامية لا يجتمعان في قلب رجل واحد، أو في قلب أنثى لم تنضج لغتها بعد، فكيف ينضج الحب في قلبها، الحب لغة، إشارة، إيماءة، تصوف، ارتقاء.

وأنتساءل حقاً ما الذي كانا يقولانه تحت شجرة التين، سمير الذي يحمل أفول أصنام نيتشه، واستعارات الراجعي وهيامه بمي زياده، وغزليات نزار قباني وصدمة بلقيس وفتاة صغيرة السن وضيقة الأفق الفكري، بعد كل القبل مثلاً ما الذي سيقولانه؟

ربما أسقط عليه نماذجي العشقية، ولكني من نوع الجنسانيين اللغويين، كنا قد تلوثنا بسطحية الأجساد وكرزية الشفاه، الأمر لم يكن سوى قصة جسدين غضين وقلبين طبيين، وكان العقل اللغوي والأدبي بعيداً سيتدخل فيما بعد ليعكر صفاء الحب أو ليدعمه بمطر خفيف ينبت له أسندة أخرى.

سمير كان مثلي، فحين اشتد الضغط كتب لي على مذكرتنا المشتركة:

«لا أريد أن أفقد إلهامي».

كانت الكتابة عنده مصيرية، والموسيقى مصيرية، لم يرد أن يتزوج مبكرًا، فانسحب بهدوء مسببًا شرخًا كبيرًا في دوار صغير.

ولمته كثيرًا لأنني بطبعي أكره الخيانة وأكره التراجع.

وأكدت لنفسني أنني سأستمر في قرار زوجي، كان عليّ فقط أن أنهى بعض الأفكار العالقة، وأن أقرأ ذاكرة الجسد مرة أخرى.

حين يحب سмир فتاة يجعلني أعيش معه قصته من أول نظرة لآخر نقمة، وكذلك كان يعلم تفاصيلي الحياتية وحتى الأفكار الغريبة التي تخطر ببالي في كل لحظة، مهما اختلفنا كنا نتحد في الحكي، كانت ساعات الحكي والحكي المضاد تستغرق منا عمرًا بكامله.

حياته كانت هي حياتي، بشكل أو بآخر، فتلك الأحاسيس التي يعبر عنها تعبرني وتخرق جسدي بطريقته المتناهية في التدقيق وبإحساسي المفرط بالآخرين، أضع نفسي مكانه وأسعد كما يحكي وأحزن كما يحكي وأصمت حين يصمت وأضحك حين يضحك.

إنه يستشيرني في حضوري وغيابي، وحين يهمل بفعل شيء ما يضع في الحسبان رأيي، رأيي يعلمه جيدًا، وأنا أيضًا حين أتصرف أقول في نفسي ما الذي سيقوله عني سмир وأرتب احتمالات جنوني، وكنا معًا نستشير شخصًا آخر، نسميه الأخ الأكبر، الأخ الأكبر هو نحن في المستقبل، فنطرح السؤال دومًا، هل سيرضى عنا الأخ الأكبر؟ هل سنرضى عن قراراتنا في المستقبل؟ في كل خطوة يخطوها سмир يتساءل، وأتساءل معه، هل سيرضى الأخ الأكبر؟

نضع له ألف حساب.

لكن الأخ الأكبر لا يرضى أبدًا، إنه متعجرف دائمًا، وهذا ما يربكنا ويحطم حياتنا، إنه يستغل كونه الأكبر وينغص علينا حياتنا البريئة حتى قيل أن تحدث، غالبًا حين نفكر في أمر مدة طويلة نتخذ قرارنا ونسير عكس رغبة الأخ الأكبر ودون مباركته، ونجبره في الأخير على تكيف توقعاته مع واقعنا، مهما حدث في التاريخ.

ولكني في لحظات الكتابة هذه أقول يا ليتنا استمعنا للأخ الأكبر، ما ضاعت أحلامنا البريئة وما قتلت في مهدها، ما يحرقنا أننا لا نستطيع استيعاب المشاعر التي تدور في أذهاننا، فسرعان ما ننوتر وسرعان ما يتحول التوتر إلى غضب، والغضب إلى حزن، إنه الحنين.

ويشتد احتراقي الداخلي، أقصد الاحتراق الحقيقي بالكيماوي، أنا أدمر نفسي كي أبنيتها من جديد، أريد كوكا كولا، المشروب الذي كرهته طوال حياتي، أشرب منه الكثير بعد كل حصة، لم يمنعني الطبيب لأنه كان بحاجة لسعرات حرارية تكفيني بعض الزمن. أسحب الكرسي المتحرك لأنظر تجاه المطعم المقابل للمصحة. أشاهد أو أتخيل أخي يحضر المشروبات التعويضية التي صنعها بنفسه. هذا الأخ الذي أصبحت ثقافته أوسع من موسوعة. عاد من البرازيل بعد دورة تكوينية في الثقافة اللاتينية. إنه يجمع ثقافة شعوب العالم عبر فن الطبخ ودمجها مع الجو الشنقراطي؛ ليصنع عالمًا من النكهات التي تحمل تاريخها في مذاقها، إن المطعم يكبر ويكبر ويزداد عدد الطباخين والخدم والمنظفين وعناصر الأمن. ها هو حلم يكبر ويتحقق، وأنا أحترق. أقتل كل خلاياي، المريضة والسليمة أيضًا، سأنظف ساحة القتال وأزرع أشجارًا وورودًا جديدة في حدائق جسدي. أين جسدي؟ لا أكاد أشعر به. ينسحب مني. أنا روح معلقة في الفضاء. في الطابق الرابع من أرقى مصحات المدينة، وماذا يفيد الرقي ومناعتي منحطة.

الفصل الثاني

كلما أحضر الطبيب بروتوكولاً جديداً ليجربه على جسدي المنهك يختبر معنوياتي، يعتقد أنني أنهار في داخلي، يقول مثلاً إن مرضي يتعلق بالطاقة وبالمقاومة، لا أدري لم يتعب نفسه، طلب مني اليوم البحث عن معطي ليمنحني نخاعه العظمي، بضع آلاف في العالم كله يملكون خريطة دم تشبه خريطتي، وقد يكونون من أقاربي، قلت له إن كل أقاربي سُمروا وأنا الأشقر الوحيد بينهم. ضحك كثيراً وقال الخريطة الصبغية لا تهتم بلون البشرة، قام الجميع بإجراء تحليل الدم واستخراج الخريطة المرغوبة دون فائدة. الآن سيشتري النخاع من بنك دولي بثمن مرتفع جداً، في مصحات السرطان الكثير من التجارة والقليل من العلم، لكن الدكتور صادق يحرص على ألا يتلاعب التجار بمرضاه. وكان صريحاً معي في كل مراحل العلاج، مراحل البقاء على قيد الحياة على الأقل كي أنهى سيرتي الذاتية هذه. لقد أخبرته اليوم أنني أكتب، حمل أوراقى وبدأ يتهجى حروفاً تشبه الحروف، ذلك أنني لا أستطيع حمل القلم ولا رؤية الورقة، فاقترح عليّ تسجيل يومياتي كما سماها في آلة تسجيل وسيكلف سكرتيرته بتقريغها.

أحتاج الكثير من الطاقة لأكتب، يسقط القلم من يدي أحياناً فلا أنزل لأحضره، أسجل في ذهني حتى تمر الممرضة لتقدمه لي، القلم معقم أيضاً، وملفوف في ورق بلاستيكي معقم؛ لذلك يتعني، ولكني مُصرٌّ على ترك أثري في هذه الحياة.

التحقت بمقر عملي، مجموعة مدرسية بجبال الأطلس الكبير، بمنطقة تيزي نتاست، طاكسي كبير، شاحنة نقل بضائع، سنتقلني كأي بضاعة، وكيلومترات على الأقدام. مسالك وعرة بين فجاج الجبال، هكذا وصلت إلى الجحيم.

أنا أسير وأفكاري تسير معي، كأي شخص آخر يلتحق بعمل ليس له. أحمل إحدى وعشرين سنة في جعبتي، منها أربع وأنا مراهق، ما زلت مراهقاً. رتبت حاجياتي في ركن من السكنى. وأعددت طعاماً رفقة الزملاء الذين يرتسم القلق والشك على وجوههم، مغرب آخر هنا، هذا هو الهامش الذي كنا نتفلسف لأجله، ليس هامشاً فكرياً يا ديروند ويا ديريدا، إنه الواقع الأقسى الذي يمكن تخيله. هامش الهوامش المنسية في الجبال الوعرة، شعب آخر لا ينتمي إلا للصحور والقسوة، إنه الحزن المغربي مرة أخرى ينتصب هنا في عالم النسيان والبعد، نحن أقرب إلى السماء منه إلى الأرض. هنا الجبل وصهيل شعب حارب الانتداب الفرنسي ولم يبرح مستوى عيشه عهد السبيبة والبون والمجاعة واللقط والقنص والرعي.

حين وصلت إلى الدوار وجدت العيون تترصدني كأي قادم من عالم آخر، أطفال يتضحكون ويترامضون لمساعدتنا في حمل حقائبنا، ملابسهم رثة من كثرة اللعب طوال العطلة، تبدو وجوههم شاحبة كأنهم هاربون من حرب أهلية، نساء يطلن من الشبايبك الصغيرة لرؤية المعلمين الجدد، مقدم القرية كان غائباً؛ لأنه يوم السوق الإسبوعي وعليه أن يزور القائد ليزوده بكل أخبار الدوائر، المدرسة تقع في أقصى البلدة.

كنت أعرف أنني مقبل على العمل في العالم القروي، لكنني لم أكن أعلم أنني سأعمل في منطقة منكوبة، الغبار سيد الموقف، الجفاف سيد الموقف، فصل الصيف لم يترك أخضر ولا يابساً إلا أتى عليه.

أكثر ما يربع هي الوجوه الشاحبة للأطفال الذين سأدرسهم، ملامح شيوخ على أجساد أطفال، لقد كبروا وتجاوزوا الستين من عمرهم.

فكرت ملياً في عرض أبي حول تجارة الصوف وخيوط الصوف في المدينة بديل هذه الغربية، انتصبت في ذهني دموع الوالدة وهي تودعني كأني ذاهب للحرب.

«أخي العزيز سمير

ربما لم أتمكن من وداعك قبل التحاق بمقر عملي لأسباب تتعلق بك، فقد رحلت دون إشارة ولم أجد في نفسي الرغبة الكاملة في الالتحاق بك لأودعك. أنا الآن هنا، خلف الجبال التي خلف الجبال التي خلف الجبال، أزرع الحرف في الفراغ القاتل. التحقت بالمدرسة المكونة من ثلاثة فصول في دوار بين فجاج «تيزي نناست»، استطعت أن أمتص صدمة اليوم الأول وكرثية السكن الوظيفي بالجلوس قبل الغروب وبعده قرب باب القسم بعد أن ودعت التلاميذ، بقيت مسمراً أمام هذه الصخور الكبيرة، كركرات الأطفال خفتت، وانسحب المعلم الذي عيّن معي إلى زاوية في قسمه، بدا لي كأنه يبكي في صمت، لا يمكن أن تحضر شاباً من مدينة الدار البيضاء وتتركه هنا حيث الصمت المطبق، على الأقل ليرسل بعض الضجيج ونرفقه معه قصد الاستعمال الطارئ. انتصب فجأة حنين مهول للمدينة، مهول جداً، للطرقات والضجيج والحركة والناس.

بعد برهة عاد تلميذ وهو يرتدي خجل اللقاء الأول قائلاً:

- هل أحضر لكم الخبز غداً؟

- نعم بني، شكراً لك؟

رحل وهو يركض في فرح.

في غرفة آيلة للسقوط، مع زميل لي اسمه رشيد، على علو يفوق 2000 متر عن سطح البحر، لا ماء صالح للشرب ولا كهرباء، نستعمل الشموع التي يتراقص ضوءها في تماوجات رتيبة، يبكي في هدوء وينير بقعة صغيرة حوله، يخترقه الباعوض بين الفينة والأخرى وينتحر حوله، الهاتف صامت، لم يتصل أحد، تشعر بوحدة فظيعة حين تنظر إلى هاتفك الصامت، صمت يتحرش بك ويكاد يخنقك. لم يتصل أحد لأن التغطية ضعيفة جداً هنا، تذكرت أمي وأبي، وتذكرتك كثيراً صديقي، تذكرت كل شيء في هذه الليلة الأولى في هذا القفر من البلد. صوت الريح يهز النوافذ

والبرد قارس جدًّا، احتياطاتنا لم تكن في محلها، الأفرشة غير كافية وجدران البيت متصدعة والبرد قارس جدًّا. إنَّها ليلة تحدثنا فيها الطبيعة وغلبتنا، وأنا بدوري انهزمت أمام أحاسيس كثيرة».

صديقك سولال رشدي

في الليل أحسست أنني شخص آخر، بدأ ينسحب مني الحماس بطريقة غريبة وأنا أتحوّل من طالب إلى معلم في قمة جبل «تيزي نتاست». يخرج مني مرحي كأنه يسيل من أنفي وأنا نائم أتفرج على ذاتٍ تتحطم داخلي، ونمت كشخصٍ بئس. بئس تمامًا، دون أحلام، حتّى جسدي كفّ عن إنتاج ما قد يثير أحلامي، أو ربما ذاكرتي جفت حتّى من بطلات البورنو.

استيقظت في الصباح على صوت التلاميذ يحملون قناني المياه من العين الوحيدة بالدوار، فهمت أنهم اعتادوا على إحضار الماء للمدرسة، تسلمت الخبز من محمد، تناولنا فطورنا في صمت، كنت صامتًا، صمتًا حادًا عنيفًا. الصمت الذي يشي بأن بركانًا يحدث في داخلك، لكنّه بركان صامت أيضًا ينفث اللافا الحمراء في داخلي بهدوء مميت.

دخلت القسم لأول مرة، ارتديت وزرتي البيضاء وغلفت وجهي بقناع المعلم المنشط وانخرطت في عملي مع الأطفال وأنا أبتسم لهذا والأعب تلك كالبهلوان، أشجعهم على التواصل معي، لكنهم لا يفعلون، بل ينظرون إليّ فقط، كأني مهرج فاشل. فشل في إضحاك جمع من الأطفال الصغار المتجهمين الخائفين.

«أخي العزيز سمير ...

في المساء أكتب لك، أحادثك كأنك هنا تستمع إليّ كما كنا نفعل ونحن على الدراجات في طرقات تارودانت، اشتقت إليك صديقي، أردت أن أسرد عليك قراراتي الجديدة وأطلب رأيك فيها، قررت أن أبقى عزبًا وألا أتزوج، عاريًا من الحب والارتباط، قد يصدّمك قراري كما سيصدّم الكثيرين خصوصًا بياض الثلج، لكن، يستحيل عليّ الآن أن أفي بوعودي، الأمر قاس جدًّا ومؤلم. الحياة أصبحت قبيحة جدًّا في رأيي، ولكنني سأمضي قدمًا وأنهى فترة العمل في هذه الجبال البعيدة وأعود للمدينة، تتصل ماما الحاجة لتطمئن عليّ فتخنقني دموعي، غصة تلو غصة تجتمع عليّ عتبة حلقي لتخنقني، ماذا سأخبرها؟ هل أقول لها إن مؤشر الحياة انخفض وأني أستعين على الحاضر بالمستقبل؟ هل أقول لها إنني أشرب ماءً غير صالح للشرب؟ هل أقول لها إنني أستضيء بالشموع هزيلة الإضاءة لأحضر جذاذات الدروس اليومية؟ هل أقول لها إن هؤلاء التلاميذ لا يفهمون ما أشرح لهم طوال الحصص؟ أم أحكي لها عن زملائي الذين يقضون الوقت في التدخين والشرب؟

سأقول لها إنني أنطفئ وإنني أتخلّى عن نفسي في ظلّ هذه الوحدة القاتلة».

أخي العزيز سمير ...

اليوم ذهب زميلي إلى المدينة وبقيت وحدي بالمدرسة. أسمع صوت الرِّيح ينتقم مني، خرج التلاميذ بعد الحصص الدراسية إلا واحدًا عاد ليقول لي:

- هل تحتاج شيئًا يا أستاذ؟

طلبت منه أن يرافقني في جولة حول الدوار، فدعاني إلى شرب الشاي في بيته. البيوت هنا من الحجر والطين، تقوم على أدنى شروط العيش فقط، أهم شيء هو حطب التدفئة والطبخ، وطقم الشاي، إنهم يشربون الكثير من الشاي الحلو ويتحدثون بأمازيغية سريعة لا أدركها رغم أنني أستطيع فهم اللغة الأمازيغية. رغم ذلك فهمت أنهم يشتكون من كلب ضخم يفترس دجاجاتهم وقنياتهم ومعزاتهم الصغيرة ليلاً، وهو لا يعود للدوار إلا مع بداية الموسم الدراسي، طلبوا مني التخلص منه، تعجبت من سذاجتهم.

صديقك الوفي سولال

أول مهمة إذن يجب عليّ أن أقوم بها في هذه المنطقة هي قتل الكلب «أسكاي» Oskay رافقني الطفل في اتجاه المدرسة من جديد وكان يتحدث كثيرًا ودون انقطاع، يقول الكثير من الكلام والأخبار بحماس كبير، يتحدث عن تاريخ المدرسة وكل المعلمين الذين مروا من هنا. أصولهم التي تتوزع على مختلف مناطق المغرب، طبائعهم وأمزجتهم، أنواع العقوبات التي ينزلونها بالتلاميذ، وحكي لي قصة الكلب «أسكاي» الذي يرفض تناول أي شيء يقدمه له أهل الدوار مخافة أن يسمموه، يأكل فقط من يد المعلمين أو يسرق الدجاج الحي من الخم والقنيات ويصطاد الأرناب المتوحشة. وقال أيضًا إن هذا الكلب يحس بالمعلمين ويعود مباشرة بعد كل عطلة ليرافقهم.

«أسكاي» أصبح صديقي، كلب أنقذني من الموت بعد أن هاجمتني كلاب الغابة المتوحشة وأنا أقوم بجولة بين الجبال أعلى الدوار، كان يومًا رهيبًا جدًا حين أحاطت بي عصابة كلاب من كل مكان، فتك بها «أسكاي»، أخافها بسرعة. كلب ضخم وذكي، يحرس المدرسة ليلاً ويغيب نهارًا، الأعبه فيلحق يدي بلسانه، ويحاول أن يلحق وجهي. لكنه بمجرد ما يرى قرويًا يكشر أنيابه ولا يهدأ حتى يمر، وكان سبب عداوتي الأولى مع سكان القرية.

سألني الطفل عن اسمي، ولتفادي الكثير من التعليقات، قلت له إن اسمي ياسين، ياسين فقط، ولكنه أخبرني أنهم أطلقوا عليّ لقب «أشهبون» أي الأشقر. والألقاب هنا تنتشر أكثر من الأسماء الحقيقية، لعنة هي الشقر في بلاد إفريقية. لا بأس بلقب كهذا، المهم ألا يعرفوا اسمي الحقيقي الذي يعد محط تساؤل دومًا. سولال، من أنت يا سولال؟

«صديقي الغالي سمير ...

أعرف أنك تكتب إليّ أيضًا في مذكرتك الحمراء، سأبعث لك برسائلي هذه عبر البريد العادي حين أحصل على عنوانك، كما ترى صديقي، ها أنا إذن بينَ جبال تيزي نتاست، تمر على ليالٍ كما تمر عاصفة على أوراق الخريف، تبعثني الأيام بنشابها. أقدم دروسًا أعرف مسبقًا أنّها ليست مفيدة في شيءٍ، البارحة طلبت منهم رسم رجل مسلم بهندام نظيف ولحية مشدبة ورسم رجل كافر بلحية مشعثة ولباس أسود، فتقنوا في تشويه وجهه. ما هذا الخراء صديقي؟ هل أنا مجبر على تقديم هذه السخافات داخل المقرر الدراسي، ماذا لو لاحظوا أن آباءهم المسلمين ملابسهم متسخة وشعورهم دبقة؟ لن يلاحظوا شيئًا، سأقدم البرنامج الدراسي كما هو فقد قررت منذ فترة أيضًا ألا أجادل السياسات الكبرى للبلد.

لقد انقطعت كلُّ المشاريع التي خططنا لها في العطلة، انتهى كلُّ شيء، حتّى مشاعري تجمدت هنا، لا أدري كيف تقبلت بياض الثلج استقالتني من حياتها، هكذا بقرارٍ بسيطٍ جدًا بعد أن قبلت العمل بهذه المنطقة النائبة، أصبحت كائنًا نائيًا أيضًا».

«أخي العزيز سمير ...

اندثر كلُّ شيء وتبخّر في الأسابيع الأولى من العمل، اكتشفت في نفسي تلك القدرة العجيبة على قلب الصفحات، نسيت كلُّ شيء حدث في عامين من التكوين، الوحدة جعلتني أغوص في داخلي فقط كالدرويش وأرتب أشيائي الباطنية في علاقة خاصة مع التأمل قبل وبعد الغروب، انتهى كلُّ شيء علاقاتي آلت إلى الصفر، نسيت صاحبة النظارات والفرعونية وحتّى صديقاتي الوفيات لي. صحيح أنّي تلقيت رسائل كثيرة منهن بعد ذلك لكن كلُّ شيء فقد راهنيته، كنت أعد نفسي لحياة جديدة. ربما ما كان عليّ أن أكتب. الكتابة حولتني من شخص يعيش الحياة من أجل الحياة إلى شخص يعيش الحياة من أجل كتابتها على الورق.

الجبال التي خلف الجبال التي خلف الجبال وأنا والمدرسة والأطفال الأبرياء وكلبي أسكاي الذي يتمط كل مدة بجانبني، ويلعق محيط فمه بلسانه الطويل، والعوالق النفسية للوحدة التي سبجت فيها نفسي، لا أستطيع الاندماج مع باقي المعلمين الذي استسلموا للطلول المزاجية ودخنوا كل ما يصلح للتدخين. كنت في الجبل أبحث عن شيء ما لا أعرفه آنذاك، كنت أبحث عن وجودي ضمن عالم بانسٍ وحقير جدًا، تخليت عنها، ليس بالسهولة التي تبدو لكني تخليت عن كل شيء منذ قررت أن نقطة تحولٍ وضعت وأنا وحدي هنا».

أخوك سولال رشدي

الروتين يقتلني، كلُّ صباح أدخل القسم وأؤدي دور المهرج وأطبق تعليمات المذكرات الوزارية، أكتب نماذج الخط العربي وأصحح الدفاتر، أحارب الحشرات والبرد القارس. أشياء تتكرر حتّى تعتقد أنك سلسلة في معملٍ للتغليب. مجرد رقم بين الأرقام، منفصل عن الحياة وعن الناس.

الزمن بطيء حد الجمود، حد القلق. أستغل بعض الأوقات للتجول بين أشجار الجوز ومحادثة السكان البدويين عن حياتهم اليومية، إنهم الأشد نفاقاً ممن عرفت من البشر، كل أحاديثهم تدور حول المعلمين والمدرسة، إنهم مؤسسة غريبة جداً هنا، يتزعمهم الفقيه الذي لعب دوراً في تأجيج الصراع بين الناس والمعلمين الذي لا يحترمون حرمة المدرسة في نظره بالتدخين فيها، والحقيقة أنه لا يمكن الفصل بين السكن الوظيفي والقسم، لا حدود بين المجال الخاص والعام هنا فلا يمكن الحديث عن حرمة مدرسة بلا أسوار ولا حدود، لا ساحة ولا مراديف.

في هذه الفترة بالضبط عرفت أن الوطن بائس وحقير، وأنا نعيش داخل مستوطنة كبيرة جداً، خارج الوعي العام للتاريخ يعيش هؤلاء الناس في علاقة مع الطبيعة القاسية بعيداً عن مؤسسات الدولة، الوطن ليس في الجبال إنه هناك في العاصمة، هنا فقط مقرر دراسي فيه أناشيد وطنية تذكر بأن الحاكم يملك هذه الجبال، وأنها تابعة للسلطة المركزية، غريب جداً أن نتحدث عن وطن في سلة مهملات، يجب إذن أن نعيد النظر في مفهوم الانتماء، وها أنا أنتمي لجسدي، وهو انتمائي الأشد حقيقة من كل شيء، وإن كنت أحس أحياناً بأن جسدي يتخلى عني أيضاً.

وجوه القرويين محنطة بالجهل والطيبة الزائفة والفرح المقنع.

«أخي العزيز سمير ...

أعرف أنك أيضاً تعيش غربة في مكان عمك، وهو أشد بؤساً من هنا، ولكني أتق في طريقتك في تصريف الأوقات، فالقيثارة التي تعلقها إليك ستفيدك جداً، لم أسمع أخبارك منذ مدة طويلة فقد مر شهر وأنا أرفض مغادرة هذا المكان تحدياً لكل شيء حتى لنفسي، تصلني الأخبار متفرقة عن غدر الرفاق الذين قدموا رشاً لإعادة التعيين والانتقال لكني فضلت أن أكون وفياً لنفسي على الأقل. لن يحدث شيء إن أمضيت السنة في هذه الجبال الوعرة على الأقل سأدرب نفسي على الصمت والصبر والهدوء. وقد أحضرت معي رواية بروست «البحث عن الزمن الضائع» وكل روايات واسيني الأعرج وإبراهيم الكوني. البحث عن الزمن الضائع****، الزمن يسير وفق منطق عادي، المكان هو المفقود هنا في ظل التكرار، الضباب يغطي كل شيء منذ الساعات الأولى للصباح، نحن فوق مستوى الضباب. وقد تحملك غيمة وترحل بك بعيداً عن نفسك. لدي الوقت لأبلغ أقصى مدى في سرحاني وخيالاتي، تعلمت مرة أخرى أن أسرح بذهني إلى نطق سرالية بعيدة، أتتبع السحاب الذي يتجمع حتى يسود لونه ثم يتفرق كأنه غزل البنات يذوب بين يدي طفلة، لدي كل الوقت لأشاهد السحاب وهو يندثر.

البرد القارس يجعل أعضائي التناسلية تتجمد، ويجعل الأحلام أيضاً تتجمد، والنصيحة التي تراقنا منذ بداية تساقط الثلوج هي عدم التبول في الهواء الطلق، فالأمر يصيب بنزلة برد قاتلة، لكن اختناق المرحاض الوحيد في المدرسة جعلنا في حالة استنفار، تطلبت تدخل الجميع، حفروا حفرة كبالوعة وربطوها بالمنزل.

يومي قاتل صديقي سمير، التفاهات نفسها يعيشها الوطن كل يوم، أبداً ليس هذا طموحي وأنا في الثانوية، وأنا أعود من مدرسة علوم الإعلام لألتحق بالتدريس. الحياة تتلاعب بنا، الوطن قبيح جداً لم ينصفنا ولم ينصف هؤلاء المعلقين بالجمال، إن ما يشدني للجغرافيا هنا هو هؤلاء الأبرياء من الأطفال، إنهم يكبرون وتكبر معهم ذاكرتهم وسألتي بهم يوماً وهم في العشرينيات من عمرهم ليحاسبوني على ما قدمت لهم. أشد ما يخيفني هي عيونهم المشعة براءة؛ لذلك كلما دخلت القسم أخلع عني عباءة الحزن وأرتدي مع وزرتي وجه الفرح. لا أسقط عليهم هزائمي الكبرى ولا أصب في قلوبهم انكساراً في مواجهة الوطن. كأس تعاستي لي، ولهم ما استطعت من أناشيد وطنية. وهم ينظرون إليك كل صباح لتملاً جعبتهم بما لديك من حروف.

صديقك الذي يرتدي عباءة المعلم

كن بخير يا غالاً.

يحضرون دوماً قطعة خشب، غصناً يابساً، ومجامر لإشعال النار والتدفئة داخل القسم، طقس ضروري لهم لتحرير أصابعهم الصغيرة من البرد القارس والمسافة الطويلة التي قطعوها بين الجبال للوصول للمدرسة، فبين جبل وجبل فج عميق عليهم قطعه على أقدامهم الصغيرة، دوماً يتأخرون في الوصول وفي وقت اشتداد الثلوج يتغيبون عن المدرسة لأيام كثيرة.

إنهم ملائكة في بلاد الشياطين، تصرفاتهم غريبة أحياناً، ربما تدركهم شيطنة العالم من حولهم، فيتحولون إلى شياطين صغيرة، عليك أن تمنحهم الحب والوقت وألا تجبرهم على العيش في وقتك الخاص المطبوع بالحقد والحزن والانتقام. الفشل العمومي الذي يعم البلد يتسرب إليهم ولكنهم لا يحسون به لأنك هنا معهم تحكي لهم حكايات البطولات الزائفة لرجال صدقوا الوطن وتكر لهم. إنك تحملهم بعيداً مع سندباد الصحراء وعلاء الدين، الكتاكيت والقطط في القمص المصورة. عليك أن تسير ضد عقارب الفساد المستشري حولهم. الأمل هو ما قد تزيّن في قلوبهم الصغيرة؛ لأنه لا يحتاج مواد أولية، يكفي أن تعطي بذرة منه لتكبر في أبدانهم الصغيرة، إن لم نستطع أن نورثهم الفرحة فلنمنع عنهم التعاسة العامة.

«أخي العزيز سمير ...

تحولت إلى قس، أعرف ذلك، ولكنّها الطفولة إنّها تجربنا على أن نكون رهباناً نتعبد في محراب قداستها، أتخيلك الآن تحمل القيثارة وتعزف لهم ألحاناً أمازيغية تسير مع هويتهم ولغتهم عكسي تماماً أنا الذي أطبق المنهج بكل قوميته وعروبته، أتخيلك تسير بين البيوتات الطينية وأنت تتفخر بلكنتك الأمازيغية بينهم، وأتخيلك أيضاً تدخن سجائر رخيصة بين كل حصة وحصة، قد لا توافقني على سوء ظني بك ولكنني أتوقع منك ذلك خصوصاً مع ميلك المزاجي لكل ما هو دخاني ورمادي،

خصوصًا أن الأخ الأكبر ضاع بيني وبينك وفقد تأثيره علينا، لا يستطيع أن يتجول بين الجبال، هل قصدوا تقريقنا أنا وأنت في ربوع هذا البلد؟ كم اشتقت إليك صديقي.

أكتب إليك دومًا وأضع الورق الكربوني لنسخ رسائلي قبل إرسالها لك في آخر الشهر، لدي الوقت الكافي لأتذكر كل شيء في هذا الزمن الموحش، صنعت لنفسي محمية ضد تدخل زملائي ولم أمنحهم فرصة العبور إلى مملكتي، أخبرني هل ما زلت وفيًا لسناء أم أنك عدلت عن حبك لها؟ ماذا فعلت بك الأيام؟ هل تعيش مثلي داخل جمجتك أم أنك منخرط في حياة البادية مع السكان المحليين؟ أي قدر هذا الذي حل بي. أحس بأني أغتصب في سني عمري التي يجب أن تكون حياتي. السنة الثانية والعشرين من عمري تمضي هباء فوق هذا الضباب الكثيف، أريد أن أرتاد نوادي الرياضة والبارات والمسارح والسينما، أريد أن أجرب دور العاهرات المحكومات بالحن المؤبد، أريد أن أشتري ما أحتاجه في سوق المدينة، أريد أن أسافر كرجل حر، أريد أشياء كثيرة مؤجلة. ها أنا أقتات من غدي لحساب يومي، ها أنا أصبح رجل مادة أولية يبحث عن قشرة حياة وكسرة خبز وبقعة أرضية، ها أنا أنضم لجيش المعلمين الذين غسل التاريخ يده من وقتهم.

صديقك الذي يتذكرك في هذه الجبال ...

أتمناك بألف خير ..

سولال رشدي

المقاعد الخشبية تبدو حزينة، من أسوأ فترات اليوم التي تمر علي هي حين يخرج التلاميذ ويحملون شغبهم معهم بعد الفترة الزوالية، يسود صمت كئيب داخل الحجرة، أبقى فيها لدقائق أرتب مكتبي وأعد المذكرة اليومية وأصح ما تبقى من الدفاتر الحزينة، وأنا أصارع ذهني الذي يطرح الكثير من الأسئلة: ما فائدة ما فعله؟ كيف أحاسبهم على أعمالهم بنقط حزينة أيضًا؟ ولم أستعمل القلم الأحمر؟ لم لا ينتقلون للعيش بالمدن؟ لم يتشبثون بهذه الأرض التي لا تمنحهم غير البرد القارس والأمراض المزمنة؟ أسماؤهم تتشابه لأنهم من عائلات قليلة، فتجدهم بنفس الكنية ويتسابقون لنفس الأسماء: حسن الحسين علي محمد باحسين الحسن وهي أسماء من الإرث الشيعي بالمغرب؛ لذلك أضطر لترقيمهم، حسن 1، حسن 2، حسن 3 وهكذا. إنه الفراغ القاتل. أطرح أسئلة لا محل لها من علامة الاستفهام. تتاسل في ذهني كالفطريات. بعد أن التهمت كل الكتب التي أحضرتها ها أنا أعيد قراءة بروست مرة أخرى وأطرح أسئلة أعمق وأكثر جدوى وتتطلب وقتًا. هكذا فقط أشغل ذهني عن الأسئلة التافهة المتكاثرة من حولي.

«صديقي العزيز سمير ...

وجدت أنني أتحدث إلى نفسي كثيرًا، جعلت مني اثنين، أظن أنني أسير نحو انقسام ذاتي لن يستطيع متخصصو علم الأحياء تفسيره، سأتحول إلى كائنين اثنين في وقت وجيز؛ كائن يعيش حياته وكائن يرافقه في دروب حياته؛ لذلك أكتب لك وأتخيل صورتك في ذهني وأنا أكتب. ما استغربت له أنني

نسيتها تمامًا رغم أنّها اتصلت بي مرتين تستفسر عن حالي. أي خيانة عظمى ارتكبت في حقها، سأترك العلاقة تبرّد شيئاً فشيئاً حتّى تتدثر مثل شخصيتي الجديدة، تتوزع عبر الفضاء كالضباب الصباحي الذي نطالعه كلّ يوم في مدينة الضباب الممتد هنا كأيدي خبيثة تمنع شروق الشمس. أنا لأحق قرارات كالسرّاب منذ أن وعيت أنّي مخيّر في الكثير من توجهاتي، هي كأنّ ضحية لكل أمزجتي، صحيح أحببتها بعمقٍ نادر، لكن ها أنا اختفي وراء أقنعتي الجديدة، لا أريد أن أرتبط بها الآن، أريد فقط أن أجد ذاتي بين هذا الركام من الحياة والفضاءات المخيفة. لم أسجنها معي في مجمعتي التعيسة وهي التي تستحق جنينة ورد وياسمين وجلنار. أي قدر هذا الذي رمانني هنا بين صخور حمراء تعبت بي وبكياني، أنا أتحوّل شيئاً فشيئاً لرجلٍ مستقلٍّ على أسئلة الأيام، لن أعود إليك سيدتي الجميلة.

أخي العزيز، أخبرها أنّي لا أملك في راهني غير بضع لترات من أكسجين الحياة وأنّي ممتن للمستقبل والقليل من الأمل بأن أعيش كما أريد يوماً، تغادرني الأماسي حاملة معها بعضاً من فرحي وطفولتي البائسة، كلّ مساء يمر عليّ في هذا الجبل يأخذ من عمري مساعين أو ثلاثة؛ مقايضة خاسرة من عمري، وأنا متشبث بفكرة العمل من أجل المستقبل لا من أجل المضارع المغدور به، أيامي سراب بقيعة، باب في جبل السكون والصمت الطويل المميت، سيدي الوفاء لا مكان لك بيننا».

سولال رشدي، صديقك

آه عدت للكتابة مرة أخرى، أتمم لك هذه الرسالة الطويلة التي قد تشعرك بالملل، لكنّه واجبك أن تستمع لكل تقاهاتي، هذه هي الصداقة... ربما، لقد تحولت إلى فتات وسحاب مسجون في بقعة من سماء الله الواسعة، لا أتحرك ولا أمطر، كم هي براءة عيون هؤلاء الأطفال، وحدهم يشدونني إليّ المجال، يتطلعون إليّ وإلى السبورة في حنو وفضول بريء، ما أروعهم صديقي، ملايسهم رثة وأحذيتهم بالية وقلوبهم غضة وقويّة، غزلان داخل غابة الحياة. هم فقط يبررون صمودي بين الجبال المكسوة بالثلوج والخوف.

لم أغير موقفي من الحياة لكنني اتخذت قرارات بسيطة جداً، على طريقتنا المثلى، قرار دون دافع ولا مبرر، أشبه بسقطة مفاجئة، عثرة متواطئة مع الفراغ، لا لأرضي غروراً قديماً ولكن لأعكس الحياة في شغبٍ مستحيل، لن أرتبط بها الآن ستحزن قليلاً أو كثيراً وتنساني، أنا منك صديقي وقواي تخور كل يوم وذاكرتي منقّلة بما جادت به باحة الشر عليّ في الماضي، لن أربط فرحها بتعاستي؛ لأنّي سأفقد كل شيء بما فيه هي كأجمل أنثى رأت عيني، دعني حبيبي أتدرب على الحرمان حتّى أقتصد جهداً في الغياب، دعني أتسابق ضد الهروب لأصل قبل فوات الأوان إلى شجرة قراراتي وأسقط ما تبقى من ثمار المستقبل.

سأقول لها لا تنتظريني أنثى الغياب، لا تستعجلي حضوري، ارحلي فقط ودعيني رفقة حزني المؤبد، أضايقه ويضايقني حتّى أغلبه يوماً، علامات من الأرق تتجاوز حدود اللياقة وتقف على

ناصية نومي، وأحلام متكررة تنتظرني في زاوية من زوايا غفوتي السريعة كقطار الحياة، يجب ألا أرتبط لأنه يصعب أن أرتبط. أنا رجل خائن مغموس في الأعذار الواهية».

صديقك المتعب سولال رشدي

ذات ليلٍ حَالِكِ الظلمة

وضعت قلمي وطويت الأوراق التي بدت مبلة بعرق يدي لأنني أكتب وأعصابي مشدودة اليوم، هي آثار القرار البسيط الذي اتخذته، وضعت الرسالة قرب الرسائل الأخرى وقطرت عليها بعض الشمع الأبيض، ونمت وأنا مستعد لكل كابوس ممكن، وأي كابوس يمكن أن يدق نومك وقد استنفذت أحلامي في اليقظة، أنا أحدث نفسي أكثر من أي شخص آخر، ساعات من الوحدة والتأمل البغيض، لكني هادئ، هادئ... ربما.

ويمر يوم آخر.

وتزداد هلوساتي حضوراً.

«أخي الأعز سمير ...

ها أنت تتحول من شخص من لحم ودم إلى خيال في ذهني، طال غيابك فتحولت إلى ورق، لا أستطيع لمسك ولا عناقك، أراك فقط حين أكتب لك رسالة لن تصلك قبل شهر من تدوينها، مع الشكر الجزيل لساعي البريد الذي لن يضيعها فهو يعلم جيداً أن الرسائل أرواح تنتقل بين يديه، يعرف أن الكلام المرسل مقدس وأن المطويات في الرسائل قلوب مكسورة وأكباد مضغوطة تحت الطابع البريدي، لو تعلم محفظته أي نار عشق تحمل مع كل رحلة، وكم من الأجساد احترقت على ورق مخطط، وكم من مشاعر منثورة بين الأسطر، لو تعلم لما انفتحت يوماً».

صديقك سولال رشدي

اليوم كان استثنائياً في المدرسة، جاء وفدٌ مهندمٌ في سيارة دفع رباعية، لتفتيش عملي، كنت في قارة من اللامبالاة بهم، عادتهم سلبيتي فانزعجوا، ملأوا أوراقتهم بالملاحظات ورحلوا، كانت عاصفة صغيرة في فنجان، سرعان ما عدنا بعدهم لحياتنا الروتينية ودروسنا اليومية المسلسلة.

لقد اشتقت الجميع، ماما الحاجة ورائحة الحناء في يديها، أخي الأصغر نور وواجباته المنزلية التي لا تنتهي، الحاج سليمان الذي يرفض أن أناديه أبي. أهل الحومة والسوق، اشتقت نفسي بينهم. ستنتهي الدورة الأولى قريباً وأعود أدرجي، الوقت مر بطيئاً، لكن ماذا خلف وراءه؟

زميلي بدأ يدخن الحشيش بعد أن استنفذ الرغبة بالسجائر العادية، يحلم دومًا بالعودة للدَّار البيضاء بفضاءاتها الشاسعة، بعماراتها وإسمنتها وإسفلتها، بمراكز التسوق الكبرى والحانات، بساحة الأمم المتحدة والترامواي. بدأ يفقد وزنه ويدخل في حالة كئيبة جدًّا، حاولت أن أساعده بالخروج معه إلى الجبال وقت بزوغ الشَّمْسِ، لَكِنَّهُ كان يزداد بُؤْسًا كُلَّ يومٍ، يصرُّ عَلَيَّ وضع النظارات الشمسية حتَّى داخل البيت، يَقُولُ بأن كل الأشعة تزعجه، ويرى أَنَّهُ سيدخل حفرة مظلمة وعميقة تظهر أمامه، يخاف أن ينهار وَهُوَ بعيد عن أمه، لَكِنَّهُ بدأ ينهار.

أخذته هيبستيريا فبدأ يضرب الجدران والنوافذ ويسب العالم والتعليم والوظيفة العمومية، إلى أن ارتمتي عَلَيَّ فراشه في حالة عصبية رهيبية. لم أستطع تهدئته بل تركته ينفجر ويفرغ ما في جعبته، حتَّى أنا لم أسلم من سبابه، قَالَ إِنِّي كائن غريب جدًّا وإني أدخل رأسي في الكتب وأعيش بين الأوراق فقط كالعثة. معه حق. هَذَا ما أفعله دائمًا.

عاد إلى الدَّار البيضاء ودفع شَهَادَةَ طبية مدتها شهر قابل للتجديد، حصل عليها من طبيبه النفسي.

ترك رشيد في نفسي خوفًا غريبًا، كلما نظرت إلى مكانه في الغرفة يشد فزعي، والغريب في الأمر أَنِّي بدأت أتقوى داخليًا بسبب كل هذه الوحدة والخوف، أكون دفاعات جديدة، أشتغل أكثر في الفصل الدراسي، أتجول حتَّى والثلج يتساقط. وأكتب لَكَ كلما سنحت لي الفرصة لأكتب. أخي العزيز سمير، الأمر كله محض قرارات بسيطة، قررت أن أكون سلبياً في تعاملي مَعَ هَذِهِ الأوضاع المهلكة، بنيت مسافة كبيرة بيني وبين واقعي، خلال هَذِهِ المسافة أستطيع أن أصمد وأعيش اليوم المبتذل الذي ورطت نفسي فيه، يا لَهَا من مسارات متباينة، كنت أحلم دومًا بأن أكون صحفياً قبل أن أنسحب من مدرسة علوم الإعلام. الآن بنيت حلماً جديداً، أريد مطعمًا في مدينة كبيرة أسيرُه وفق ذوقي الخاص، إِنَّهَا أحلام كبيرة ربما ولكني سأحققها حتمًا، إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ وقت فقط.

ترك رشيد مكانًا شاغراً في غرفتي، رغم أَنِّي لم أكن أنتبه لَهُ كثيرًا فإن مكانه الفارغ يذكرني بِهِ الآن، هاتفتني وَقَالَ إِنَّهُ لا ينوي العودة إلى هَذَا الجحيم الأبيض، نكايه في الثلج المتساقط وفي الطباشير الأبيض أيضًا، والوزرة البيضاء، نكايه في الأبيض عمومًا، لن يستقيل من الوظيفة لَكِنَّهُ سيبحث بشهادات الطبيب إلى الإدارة ليمنح نفسه وقتًا أطول ويقرر بعد ذَلِكَ، لم تستطع إدارة المدرسة تدبير هَذَا الخصاص وتركت التلاميذ عرضة للضياع».

هَذِهِ الرسالة كتبتها صباحًا عَلَيَّ غَيْرَ العادة، وَهَذَا يدل عَلَيَّ أَنِّي بحاجة ماسة للحديث. مَعَ أَيِّ كان، حتَّى لو كان مجرد طيفٍ، بحث عن الأخ الأكبر في داخلي لَكِنَّهُ لم يكن هُنَا، كَانَتْ لديه مهام أخرى.

«أخي العزيز سمير ...

الحزن يتربص بي باستقزاز كبير هَذِهِ الأيام، تخترقني مسافات طويلة من العمى الروحي عبر ثقب عديدة في نفسي، بدأت أستهلِك الفراغ القاتل وأسِيرُ نحو حزن أبدي لا يُشْفَى، لا أريد أن أتكوَّم عَلَيَّ ربوة من الأحزان الآن، لكنني متدهور جدًّا كمملكة منهاره عَلَيَّ أميرها المصلوب من قيل الأعداء.

أعرف جيداً مَعْنَى أن يتكلَس الحزن داخلكَ، حينها لن تجدي علاجات مبنية على الأمنيات السخيفة أو على تفاهة استشراف الأمل، بدأت أتوقع على العديد من التشوهات الداخلية. وأتعايش معها، أحتاجك يا صديقي، أحتاجك أكثر من أي وقت مضى.

الثلج يتساقط في الخارج وداخلي، أستدفي بكلِّ ما أملك من أغطية ورغم ذلك أحسُّ بوخز في أصابع قدمي، التدفئة بمجمر تقليديّ تستنفذ الأكسجين في الغرفة، وكلما فتحت النافذة لإدخال الهواء يلسعني بردٌ قارسٌ جدًّا، أنا مُجمدٌ في مكاني لا أتحرك كثيرًا، أحرِّك فقط أناملي لأكتب على هذه الأوراق الصفراء المخصصة أصلاً لكتابة الجذازات، لن أكتب جذازة بعد اليوم، إنَّها تأخذ وقتًا طويلًا دون جدوى، على الوزارة أن تُعدَّ بنكًا لمثل هذه التفاهات وتزودنا بها، أصبحت كاتبًا عموميًّا، أكتب دون تفكير ولا رغبة.

ولكني حين أكتب لك أشعر بشيءٍ يتحرك في صدري كأنها رغبة في البكاء، وأنت تعرفني لا أطيق البكاء ولا أحبه، لكن هذه الحشرة في داخلي تنبئُ بهطول مطر غزير، ولا أبكي أبدًا. خلقت لأكون صخرة صلبة، مدعمة بكثير من القرارات البسيطة جدًّا، إن حدث وبكيتُ سأندمُ بشدة، وسأتذكر ضعفي طوال حياتي، إنَّه فتورٌ يتسلل إليَّ عبر ثقب الوقت الفارغ، يحرضني على الكتابة».

«أخي العزيز سمير ...

ولكن روعي على العكس تمامًا، إنَّها تحرضني على الكتابة».

«أخي العزيز سمير ...

يزداد الضغط يومًا بعد يوم، أشعر بوحدة كبيرة، ها أنا أعترف، أنهزم شيئًا فشيئًا أمام هذا الفراغ المهول، أمام صخور الجبال الممتدة أمامي، وجود البشر بقربي لا يعني شيئًا ما دمت لا أتواصل معهم، لا شيء يدعو للاستمرار بين هذه الصخور، الأمر شديد التعقيد، لكن الخلاصة الواضحة أنني فقدت قدرتي على الحياة. أفكر جدًّا في الانسحاب من هذا العالم الموحش، حفرة من الوحل والطيني، كلما حاولت الخروج منها ازددت غرقًا، إنَّه مأزق لزوج، الهاتف الأخرس بقربي ينظر إليَّ في كآبة غريبة ويزيد من حزني، إنَّه لا يرن أبدًا، فالشبكة ضعيفة جدًّا، الهاتف الصامت يزيد القلوب الوحيدة وجعًا، هل الهاتف هو المسئول؟ لا، فلا أحد على الخط، الطرف الآخر منشغل بالحياة، أصبحت أعيش بالتقسيت، لا بل بالتفتير، إنني أؤسس لذكريات حارقة مطعمة بماء النار، ستشتعل في الوقت الأشد برودة من قمم جبال تيزي نتاست، أداري بالصبر وأتوجع ملء الجسد وأصمت، أصمت من جديد وأكتب لك هذه الرسائل الحزينة التي أتمنى ألا تصلك أبدًا، أصمت كفراغ موسيقي في سمفونية الغياب، إيقاعات داخلية تنجو منها أيامي ولا تنجو منها أعصابي المهترئة، هكذا أعيش بالتقسيت، أوفر الفرحة ربما لغدٍ أفضل، لا بدُّ أن أعيش فرحًا مستقبليًّا كما أعيش حنينًا مسبقًا لهذه الأيام التعيسة.

عيون التلاميذ بريئة وجميلة، يغطيها كسل وعمش كل صباح. رائحة القهوة تفوح منهم، فهي مشروبهم الأول بعد الاستيقاظ، ملعقة كبيرة من القهوة في لتر من الماء المغلي وبضع تمرات أو حبات تين مجفف».

أخوك سولال

بدأت أتحوّل إلى مكعب من الروتين والفرع، أصبح الدفاتر كل يوم بنفس القلم وأضع نفس العلامات ونفس الملاحظات، أملاً المذكرة اليومية لأنظم بها ثرثراتي اليومية داخل القسم، إني أقول نفس الكلام وأكرره، وأطلب من التلاميذ أن يقولوا نفس الكلام أيضاً، وبعدما أخرج أمضي فترة سرحان طويلة أمام باب القسم، خصوصاً بين العصر والغروب، حيث لون السماء يحمر وتزداد الوحدة ثقلاً وثقلاً. وأنا أتخيل نفسي أزداد احمراراً كل مساء، إني أتحوّل.

والحزن حين يفيض يفيض على جنبات الروح ورصيف الجسد، ما الذبول إلا احتضار رمزي لجريد النخيل، ويبقى الجذع مكابراً بلونه الداكن محفوراً ومنخوراً من الداخل، ولا يسقط إلا واقفاً من شدة الكبرياء.

زميلي يعد لمجة وعشاء في نفس الوقت ويدعوني لشرب لفيفة حشيش، وأنا في داخلي أعرف أن الحشيش نفسه لن يجدي معي، أنزف هذياناً دون حشيش من فرط تأملي لدواخلي الخربة، أنا مندهش جداً من هذه التشوهات التي أراها كلما أطلت من نافذة على الداخل، ألفة جديدة بيني وبين إبراهيم حكيمي الذي يدرس المستوى السادس. زميلي الثاني في العمل، بقوة الزمن أصبحنا متقاربين، كل حينه لبارات الدار البيضاء، وساحة الأمم المتحدة وكورنيش عين زياب، للترامواي ومحطات القطار، للمعارض والأسواق الممتازة، هو لا يحن لأحد، كلهم خونة يقول وهو يمص لفيفة الحشيش:

- أبي أكبر خائن على وجه الأرض، إنه لا يدري ما أعيشه هنا، إنه ينتظر فقط أن أرسل له كل شهر ما أقبضه لينهي به مشاريعه البائسة، وأنا أدفع الثمن من جسدي. اللعنة على كل شيء، اللعنة على هذه الحياة وهذا البؤس، اللعنة عليّ أيضاً.

- هل يمكنك أن تدخل في صمت؟

- لقد صمت بما فيه الكفاية، دعني أنفجر.

حين يبدأ في الحديث بهذا الشكل أفضل أن أسرح في صور بعيدة عنه، فأنا لا أحتمل مثل هذه الشحنات السلبية أكثر، لا أسمع ولا أركز في كلامه لأنني لو فعلت فسأضطر لتبادل السباب معه وربما كسرنا كل أواني البيت على قناتها، فالوحدة والغربة تجعلك شخصاً عصبياً وتصنع منك وحشاً غريباً مستعداً للتطاحن على أبسط حركة، نحن كائنات مدججة في هذه الجبال، لا جنسية، لا عاطفية، حرمان من كل حذب وصوب، وحتى تلك الخيالات التي تساعدك على تفرغ شحناتك تشح في جو لا يسمح لك حتى بالتخيل. الجسد غائب. أنا أعيش بذاكرتي فقط الماضية والمستقبلية. وكلما كان

ضغط الجسد قوياً أحس بالعزلة أكثر فأحترق نفسي، وكم مرة فكرت في قبول دعوة أم تلميذة عندي صرحت لي بلغتها الأمازيغية أن ابنتها لا أب لها، وكانت كثيراً ما ترسل لي بعض الأشياء التافهة رفقة ابنتها كالمناديل المطرزة وأغطية أطقم الشاي، تقول إنها بارعة في حياكتها، كما تقوم بعصر زيت الأرغان وبعثها في قنينة زجاجية، هذا وتراقب عن كثب كل جولاتي في أعلى الجبال حيث تخرج بعض معزاتها إلى الغابة لترعاها، هي الوحيدة التي تحضر خيالي ليلاً وأنا ممدد في فراشي، المدرسة مراقبة من كل الجهات، ولا يمكن المغامرة بإدخال فتاة من الدوار إلى السكنى، كل شيء مراقب حتى تنفس المعلمين، نحن غرباء ولا أحد يضمن سلوكياتنا، نعرف جيداً أن الواحد من القرويين يتسلل كل ليلة لبيت جاره ويعيث فيه فساداً، ونعرف أن الشباب هنا يستمتعون رفقة زوجات المهاجرين للدّار البيضاء والرباط للعمل، الراعي محظوظ جداً ببقائه في قرية ثلثا سكانها نساء.

نصف ساعة بعد منتصف الليل، على أثر الإذاعة الوطنية، بيت الصداقة يبت أغنية الصينية لمجموعة ناس الغيوان، أهدتها لي على الخصوص الصديقة نادية الهواري، فجأة أسمع اسمي على الراديو وأسيخ السمع لألتقط كلمات الأغنية الحزينة، القوية التي تضرب في عمق الدواخل. بيت الصداقة وسيلة التواصل الأرقى في عهد البعد وللأغاني معاني متعددة ورسائل خفية، سبق أن سمعت أغنية «ما هموني غير الرجال اللي ضاعوا» مهداة إلى كمال من طرف حبيبته السابقة، فكان السياق أقوى رد على تركه لها دون مبرر يذكر. أحياناً يبدو لي المذيع خارج المدار. يستمر بيت الصداقة حتى الساعات الأخيرة من الليل، يؤنس وحدتنا الفظيعة، لم أطلب أغنية يوماً، فقد كانت لعبة مملة في نظري.

«أخي العزيز سمير ...

الأمر معقد جداً، والجسد بقدر ما تعطيه يطلب المزيد، الصوم الصوفي لا يليق بنا، الفحش المتستر لا مجال له هنا، اللعنة على القرية وعلى الجبال، الجسد متطلب، مع اقتراب فصل الربيع حتى الحيوانات تمارس حقها في الوصل إلا نحن.

وأنا في الفراش، مثقلٌ بأحزاني، لا أفكر في الجسد خصوصاً بالليل، أحاول فقط موازنة مزاجي استعداداً للنوم، وهذا كل مناي في هذا الإقليم الجاحد.

اقتربت عطلة الفترة الربيعية وأنا أستعد للنزول للمدينة بعد أن أمضيت شهراً بهذه الجبال، سأجمع كل الرسائل وأرسلها لك عبر البريد العادي، وستصلك إلى مدرستك، أنت لن تأتي طبعاً مع كل هذا البعد. عطلة الربيع تقترب، انفراجات في الطقس الثلج يذوب وأنا أيضاً. الشلالات قرب المدرسة تصدح بموسيقى خلابة للأمزجة، أشجار الجوز نفضت عنها الثلج وظهرت، اخضرار يبهج العين، إنها تغطي مساحات شاسعة بظلالها، مظاهر الحركة بالدوار بدأت تظهر، الرعي اليومي، أعمال بناء وإصلاح ما أفسده فصل الشتاء بأمطاره الطوفانية. حيوية واخضرار وفرح يعم الأجواء، لم

ينعكس الأمر على أجوائى الداخلية إلا قليلاً، فقد اشتقت منزلى بدرج الصوف والحاج وأمى الحاجة وأخى وأولاد الحومة وأصدقائى، أرجائى معتمة ما زالت باردة وعاصفية».

«صديقى العزيز ...

أحاول أن أتغير، أن أكون شخصاً آخر، هذا الجمود لا يفيدنى، أكاد أجن من فرط الوقوف داخل نفس الحلقة، تحيط بى صخور الجبل الكبيرة التي لا توحى إلا بالثبات، وأنا أصبحت أكره الثبات، أريد أن أتحوّل، أن أسير إلى الأمام أو أعود إلى الوراء، المهم أن أتحرك وينتهي هذا الركود داخلي، أريد أن أرى الدوائر تلفنى، أكره المربعات والمستطيلات، صديقى العزيز لقد دخنت، دخنت علبة بكاملها من السجائر فى ثلاثة أيام، كانت شراهة غير عادية للدخان، كنت أبحث بين السحب الرمادية عن شيء يفصنى، يفصنى ولا أعرفه، أشياء كثيرة تجعلنى أقف حيث أنا ولا أتقدم، أولها هذا المكان الفقر بين الجبال، مكان ساكن وهادئ إلى درجة أنه يثير غضبى، تمر بقربى خنفساء وتتعثّر بحجر وتتقلب على ظهرها، أستمتع بمشهد مقاومتها للانقلاب، وأراقبها، إنها أفضل منى وهي تعود لتقف على أرجلها وتمضى.

لا أجد شيئاً جديداً أكتبه لك سوى حديث الخنافس هذا، أنا أضعف وأراني أندحر، أضعف بشدة ووهني سوقى رخيص لا جدوى منه، هشاشتى ليست من النوع الهادم البناء، إنها هشاشة الموت، أشتاق إليك صديقى العزيز، أشتاق إلى أغاني الغيوان من حنجرتك، إلى جولاننا حول الأسوار التاريخية، إلى الأبواب والمدينة والصخب الصغير الذى يحدثه الباعة بعد كل صلاة أمام مسجد سيدي وسيدي، أشتاق حديقة الشهيد إبراهيم الروداني والخزانات والكتب، هذا موت سريري حقيقي، أن أظل لساعات أمام باب القسم بعد انصراف التلاميذ وأحاول الكتابة إليك كل مساء. وأدخن كل مساء، أحاول أن أتبين جراحي فى الرمادي وأرتب انكساراتى، أن أعنون خياناتى لذاتى ولها. الوحدة تزيدنى تشبهاً بقرارى بالابتعاد عنها، أي حب مفلس سيكون لو بقيت محاطاً بطيفها المعذب بى ولي، الوحدة شكلت أقوى قناعاتى، لا أستطيع أن أحبها، والمراهق داخلي وعنفوان الحب الأول وسطور لغة القلب الأولى انمحت، أنا لست عنواناً جيداً لقصة رومانسية، أنا خائن بالفطرة، والدخان يؤكد لي ذلك. وصمتي الطويل أمام أوراق مذكرتي الحمراء التي أهديتها ذات عيد ميلاد والتي سأقطعها وأرسلها لك عبر البريد العادي شاهد إثبات على جنبى التاريخى، سأقبل أولى خياناتى لنفسى، سأرسم أولى خطوط الخداع التي سنشكل مساري، أنا حي أقلق، حي أرزق رهانات خاسرة، صدقنى سمير أنا أعيش المستقبل بشكل يبهرنى».

س. ر

صديقك.

صباح كسلان، الفرع لا تستهويه جدران السكن الوظيفي، أمطط شفتي وأنا أستقبل شمس الصباح علي ابتسامة تتسلل إليّ عن طريق الخطأ، حتّى الذباب دخل مبكرًا من كوة الباب ليزعج صباحي، الشّمس تبدو حارة أكثر من اللازم ليوم ربيعي، يبدو أنّه يوم جنوبي مقفر النسّمات، يابس كخبز التّور الذي أشمه عن بعد، الجنوب لا يعرف غير الصّهد والريح، يخون فصل الربيع وينبئ بيومٍ حارّ، قلبي جريحٌ ينشقق من فرط الإهمال.

ممدّدٌ عليّ حصير من الدوم، جسد متعب وحزين، جسد من كلام ومجازات لا من لحم ودم، ولكنّه ليس فاقداً للغريزة؛ لنر إذن كم تستطيع السطور أن تأخذ من جسدي، وكم من مسار للقبّل قد تخلق، أنا مهووس بعلامات الاستفهام، فأني علامات الترقيم ستربحني في حرب الوقت والسرير؟ أتمنى حقًا أن تنتصب علامة التعجب.

الجسد يغلي ولا وفاء يحرسه من الخطيئة ...

كُتبت ورقة صغيرة لتلك الأم العازبة، أم تلميذة عندي، وأرسلتها لها عبر ابنتها، لم أكتب فيها شيئاً مفهوماً لأنها أصلاً لا تقرأ، وإن وضحت غرضي قد تطلب من أي تلميذ أن يتهجى لها ما هو مكتوب فيها وأصبح حديث القرية للأسابيع المقبلة؛ لذلك قرّرت أن أرسل الورقة شبه فارغة، رسمت عليها ما يشبه الشلال، دون أن أحدد موعدًا؛ لأنّ المعلم في الدوار دومًا مراقب من بعيد، وأصعد إلى أعلى الشلال الهادر المسمى بالأمازيغية إيموزار، صعدت بعد الزوال بعد إنهاء حصصي الصباحية من العمل.

شقتت طريقي في فج بين جبلين، اتبعت طريق الحمير كما يسمونه، فالحمار هو الوحيد القادر على شق طريق على سفح الجبل، ومع الوقت أصبح يسمى طريق الحمير، وعندما بزغت الفكرة في ذهني عدلت عنه بسبب اسمه، فاتبعت طريقًا أوعر بين الصخور على حاشية الشلال، وصلت المنبع بعد ساعة، بعد نصف ساعة جاءت، اسمها هند، اسم عربي لامرأة أمازيغية، تضع الكثير من الكحل في عينيها، تسوكت بلحاء شجرة الجوز الذي يعطي للفم لونًا برتقاليًا ويعطي للشفاة لونًا بنيًا، ورائحة زكية تغطي على القلاح الذي يعلو أسنان الجبلية.

أمازيغيتي ضعيفة جدًا لأنني كبرت بالمدينة، ولكنني أستطيع فهم ما تريد قوله وإن عجزت على الرد، إنها مثيرة جدًا، صدرها نافر النهدين، وحشمتها المصطنعة جعلتني أغلي وأنا أجلس إلى صخرة جرانيتية قرب منبع النهر حيث عيون الماء الصافية، تظل المنطقة شجرة جوز كبيرة، تحدثنا عن ابنتها تترت، وتعثراتها الدراسية، قبل أن أقترب منها وأخذ يدها برفق اهتز له جسدها، إنها شلال هادر، في القبلة الأولى دوختني رائحة السواك، قبلتها وقبلتها حتّى التحمنا فيما يشبه لقاءً عنيفًا بين جسدين غير متعارفين.

لم أنتبه إليّ أنّي كنت أعاملها كشيء لا كإنسان، وكأنت تعاملني بالمثل، وكان الأمر أشبه بمعركة يحاول كل واحد منا أخذ غنيمته منها، تتور الطاووس المعروفة في مناطق الأطلس كانت تغطي

فعلنا وتشهد على الخطيئة الأولى، حين أحسنا بحركة بعيدة لقطيع من الغنم العائد من أعلى الجبال استطاعت أن تختفي في رمشة عين، فهي خبيرة بهذه المسالك.

وأنا عدت عبر طريق الحمير، متخففاً من ثقل الثلوج على جسدي».

«أخي العزيز سمير ...

حين وصلت البيت الضيق دخنت مرة أخرى، لا يمكنك أن تتصورني مدخناً، وربما أنت الآن تضحك سرّاً وعلانية من طريقة إمساكي للسيجارة، ولكن الأمر لا يهمني حقاً، فالأهم من السيجارة تلك الصور التي يتخذها الدخان في الهواء، وكيف تتشكل المعاني وسطه، جسدي اليوم قطف جمرًا، وما زالت رائحة نهديتها في كفي، أنت تنقزز لأنني أكتب لك بيدي المخضبتين بجسمها، لم أنظر إليها كثيرًا، فقط لمستها من تحت تنورتها الواسعة. وحين سمعت خشخشة الجوار مخرتني عاصفة من الخوف والارتباك وتسمرت مكاني، أما هي فقد غادرت كشبح ودلفت بين الصخور والأشجار المورقة.

معنى الخطيئة أن تسحب جسدك من الجمود إلى برائن الشهوة بين الشلالات الهادرة، إنه فعل جنوني لا تفسير له، أتذكر الآن حين كنت طفلاً صغيراً أحمل قيثارة فوق ظهري، قيمًا تتوزع عبر الطريق إلى المسجد الذي نحفظ فيه القرآن منذ الفجر حتى الضحى، كان المشوار رهيباً ومقدساً، وحتى في بداية مراهقتي الصامته كنت أقرأ القرآن بصوت مرتفع في غرفتي وأسمع دعوات الحاجة تلاحقني في حبورها الطاعي.

أمي الحاجة، ها أنا أتحوّل إلى دخان شيئاً فشيئاً، ولا أملك من الحياة غير التأمل الباهت والسرّحان الطويل، ربما أنا في طريقي إلى الانقلاب الكبير على كل شيء، على القيم والمعتقدات والفضائل أيضاً، إنه صراع بيني وبين نفسي، صراع لا ينتهي، وأعرف مسبقاً أنني سأعيشه حتى النخاع، هنا أصل مشكلتي الآن، أنا أعيش المستقبل. أعرف أنني سأفقد بوصلة حياتي بعد سنوات من هذه المحن النفسية، وعندها لن أتذكر هذه البدايات القلقة والخجولة، أين ستوصلني هذه الوحدة الرهيبة التي أعيشها، ما معنى أن تعاشر فتاة تلتقيها لأول مرة وتقبلها بنهم وتمضي؟ ألم يعد لجسدك عليك حق؟ لقد قرأت اليوم للمرة الثالثة الجزء الثاني من البحث عن الزمن الضائع. ما أكثر التفاصيل في هذه الحياة، وكم عليّ أن أبذل من جهد لأرتب كل هذا في داخلي، صراعي سيكون مع دواخلي أكثر من علاقتي الخارجية، هذا ما أتنبأ به، بلغة الطفولة التي تجر أذيالها كل صباح لحفظ القرآن الكريم عند فقيه الحي، أقول إنني سأكون مشتتاً بين الخطيئة والتوبة. بين أدران الجسد وصفاء الروح، ولكني سأستقل الحافلة وسأسير في طريق الحياة، ويح الحياة والطريق. سأخترقك بكل ما أملك من شجاعة وبكل ما أملك من عبث أيضاً. أنا أصغي إلى السنوات المقبلة. أراني في بيت لائق وبذات أنيقة، أخرج ليلاً لأتمشي طارداً كل الأرق الذي هددني منذ الباكالوريا، سأكون أنيقاً أكيد، لن يكون الزمن أغبر كالآن، ولكنّه سيكون غريباً، تلك الغرابة التي تمنحك العمق والهدوء. سيكون هناك الكثير من الناس ورغم كثرتهم لن يكونوا قريباً أبداً، لن تستطيع لمسهم ولا عناقهم ولا صفعهم.

صديقك س. ر.

اشنقت أمي الحاجة، إنَّهَا المَرْأَة الوحيدة الَّتِي لا يمكنني أن أتخيلها بخطيئة واحدة، أغلب الكبار الَّذِينَ أحببتهم وقدستهم اكتشفت فيما بعد أن لَهُم أعمالاً وسخة جداً وَلا يستحقون كُلَّ الاحترام الَّذِي أحفظه لَهُم، ازدواجية في المزاج والصورة، بَيِّنَ مَا هم عليه وَمَا يتمنون وَمَا لا يريدون من الآخر أن يعرفه، لكن الصدف تلعب ضد الكثيرين، وهناك لعبة للوقت يلعبها في لحظات قليلة ودقيقة، الأقنعة الَّتِي يختبئون وراءها سرعان مَا تنكسر في موقف غَيْر متوقع، في مشهد غَيْر مرغوب، الكل يدعي عكس حقيقته، بما فيهم الحاج الَّذِي كان يعاكس كُلَّ ذات رطلين زائدين تمر بباب حانوته في درب الصوف. وكنت أراوغ إحساسي كي لا أفضحه يوماً، لكن بليَّته كَانَتْ أخف مما رأيت عند الآخرين، فعذرتة وكنت أحسب تصرفاته عَلَى هامش الخرف القادم. إنَّه أنا، دوماً أحمل الحاضر محمل المستقبل، أنا سيد الانتظارات الكبيرة. الأمل الصغير في المستقبل يقلل من فداحة اللحظة ويساعد عَلَى تمرير مواقف تبدو للوهلة الأولى محطات حياة وصددمات لن تنتهي تأثيراتها، وَهِيَ في الحقيقة لحظات عادية لن تكبر في الحجم إلا إن نحن أعطيناها أكبر مما تستحق من تأمل، الانتظار يجعل الأمر عادياً ومبنيّاً عَلَى التغيير المستقبلي، هكذا أفكر دوماً فأدفع عن نفسي مِواجهات رخيصة مَعَ مواقف عادية لأناس عاديين، إنِّي بِذَلِكَ أسحب الغضب من عليائه ليبول عَلَى الأرض ويهدأ.

الانحرافات عَلَى الطريق لَيْسَتْ دوماً حادة.

أمي الحاجة، كيف سأبرر لَهَا كُلَّ هَذَا الدخان الَّذِي طالما كرهته؟ وَكَانَتْ كلما أرادت أن تنبهني أعطتني مثلاً بواحدٍ من أبناء الحومة الَّذِينَ فقدوا احترامها لَهُم لأنها شاهدتهم يلتقطون السجائر بِيِّنَ أيديهم في رأس الحومة. والحقيقة أَنَّهَا تنسى الحقد كلما مرت بقربهم وقبلوا رأسها فتمطرهم بوابل صيب من الأدعية، وأتذكر الحاجة والغربة القاسية، وأجمع بِيِّنَ الأضداد في مقلتي، رغبة جامحة في أن أبكي ودافع قوي لأبقى صلباً كلما تذكرت أَنَّهَا لن تسعد بدموعي، أجمع في داخلي هدوءاً ورزانة وجنوناً قاسياً وصراخاً صامتاً. أريد أن أخترل المسافات وأمضي نحو المستقبل.

بعد أن كتبت هَذِهِ الهلوسات لصديقي، أصب لنفسي كأس شاي بالزعر الجبلي الَّذِي يهديه لي الأطفال في المدرسة، وعندما عرفوا حبي للأعشاب البرية والمنكهات الطبيعية أصبحوا يحملون لي رزماً مِنْهَا قاطفين إِيَّاهَا من أعالي الجبال، إنهم يبحثون عن أي شَيْءٍ يعجب المعلم ليحضره له هدية، الفتيات يصنعن محارم وأغطية صينيّات من خيوط الصوف الملونة وتأتيني بها.

وكلما نظرت في عيونهم أقول، لن أندم عَلَى ساعات التدريس الَّتِي قضيتها معهم، حين يصير كُلُّ هَذَا المشهد سراباً وذكرى، سأرى وجوههم البريئة تحفني وترقص بقربي، تمكنت من دمع الحروف عَلَى جدران عقولهم وبالحروف يمكنهم أن يعرفوا الحياة، الحرف وحده سيمكنهم من الفهم والبحث والتأمل، لا يمكنهم أن يتأملوا دون أن يجمعوا الحرف إلى الحرف ليصنعوا كلمة، والجملة إلى الجملة ليصنعوا نصّاً، ونصّاً إلى نصٍّ ليشكلوا عالماً، وَمَا حقيقته معهم حَتَّى الآن سيجعلهم يحفظون

وجهي إلى الأبد، إن الحرف مجرد بذرة ستتمو قريباً، الحرف شمعة لا تنطفئ أبداً، القراءة هي المفتاح، مفتاح كل شيء.

اليوم شاركت المعلمين في لعبة الورق، خرجت منهزماً بسبب عدم التركيز؛ لأنَّ حرفتي القديمة في السرحان والتوهان بيّنَ العوالم ما زالت متمكنة مني، لعبنا حتّى منتصف الليل، احتسوا قنينات من الستورك وربع قنينة فودكا، محتقلين بها على الطريقة الروسية، الكمية كلها لا تسكر ضفدعاً لكن الرغبة في السكر كانت أقوى، فسكروا، وصرخوا وتسابوا وتشاتموا فيما بينهم، لقد دخنت القليل من الحشيش، القليل فقط ولأنها أول مرة فقد ارتفعت نحو السقف، أو أن السقف هبط إليّ، والجدران تدور نصف دورة، تتلون بالقرمزي والرمادي، كأنها عروس المطر، والمطر أيضاً كان يسقط من سقف الغرفة، واشتهيت أن أطيّر، أن أكون سولال بن فرنسا.

عدت إلى غرفتي، ونمت حتّى الظهر لأنني سأستغل بعد الزوال، ولأول مرة أحس أنني أضعت يوماً من حياتي في الفراغ، أثرت عليّ نشوة الحشيش فكنت مقتلماً من جذوري وأنا أتوق لفنيت حشيش آخر، وكانت الحصص كلها أناشيد وأهازيج من موروثهم الشعبي، ورقص الأطفال في القسم كما اشتهدت أنفسهم.

بعد مغادرتهم للمدرسة جاء فقيه الدوار ليسلم عليّ وهو مارٌّ بالجوار، ولأنه اعتاد الوعظ المستمر حتّى خارج المسجد فقد كان لزاماً عليه على حدّ تعبيره تنبيهي إلى حالتي البارحة وأنا خارج من سكن المعلمين أترنح ليلاً. أبلغته الحقيقة كاملة قلت له إنني لم أكن أترنح بل كنت أطيّر في الهواء وأن عليه أن يجرب لكي يصدقني.

الفقيه كان خريج مدرسة عتيقة بنواحي مدينة ترنيت، شاب في مقتبل العمر ولكنّه شاخ بسبب أفنعتة الكثيرة التي يضعها حسب كل مناسبة، يجمع بين ثلاث مساجد، كل يومين يصلي بجماعة في دوار معين.

يعيش حياة بسيطة في غرفة واحدة ملتصقة بالمسجد، وهو مراقب في كل تحركاته على اعتبار أنه أعزب، وليس من عرف الأمازيغ أن يؤمهم إمام عازب أو يقوم على مصالحهم الدينية، وحاولوا تزويجه عدة مرات لكنّه يرفض، كان دائماً يختار أجمل فتاة في البلدة ويطلب يدها؛ لذلك رفض أن يتزوج.

دخلت غرفته يوماً، بعد صلاة العصر، وكان يشرب حساء المساء، شاركته شربته، وبقيت أتجاذب معه أطراف الحديث، حكى لي عن مساره الدراسي بين المدارس العتيقة والكتاتيب، وكيف حفظ لقرآن في سن الثامنة ليلتحق بمدرسة تمسولت بالأطلس الكبير ليتم تعليمه، ما زالت تدور في ذهنه تلك الجنسانيات التي يعيشها الطلبة كما السجناء حيث الكبت الذي ينفجر في علاقات غريبة بينهم.

- أمضيْنا ما تسمونه المراهقة، في حِجرات ضيقة، وروتين يقتل كل حياة فينا، من أجل العلم، نعم من أجل العلم، لقد حفظت ألفية ابن مالك وابن عاشر والأربعين النووية، والبردة والهمزية والكثير من أمداح النبي.

- هل كنتم تمارسون الرياضة مثلاً في الساعات الفارغة؟

- لا، لا مكان للرياضة في أعالي الجبال، نستيقظ باكراً قبل صلاة الفجر، وبعد أداء الصلاة بالمسجد نتوجه لباحة المسجد لمسح الألواح والكتابة والحفظ، حتى العاشرة تقريباً حيث نتناول وجبة ونستريح إلى ما بعد الظهر ونبدأ الحفظ من جديد.

- تحفظون كل شيء؟

- نعم كل واحد ومجهوده وعقله، أنا كنت ثقيل الحفظ.

- هل تلتقون بفتيات الدوار؟

- نشاهدنهم من بعيد فقط، ونحلم بهم ليلاً، وإن حلمت ليلاً يعرف الجميع؛ لأنك تضطر إلى الاغتسال قبل صلاة الفجر مهما كان الطقس، العذاب الشديد، كان قدامى الطلبة يمارسون على الجدد سلطتهم، يكلفونه بالكثير من المهام والسخرة، الأمر أشبه بمعسكر سري. إنه سجن، في سبيل العلم، في سبيل المغلقة، يعتقدون أن الفقيه خادم في مزرعتهم، لا يسمعون الموعدة، وإن سمعوا لا يطبقونها، العرف عندهم والعادة أقوى من القرآن والسنة. يا لهم من قوم.

- من أخبرك أنني كنت سكراناً البارحة؟

- الكل يراقب المدرسة والمسجد، ليس لديهم شيء أغرب منهما، كل ما بني بالإسمنت يبدو غريباً ويحتاج مراقبة. أنتم أيضاً غرباء ولباسكم غريب كلامكم غريب.

- لكنني لم أكن سكراناً، أنا لا أشرب.

- الحشيش، لا بد أنه الحشيش، كنا ندخنه أحياناً بالمدرسة العتيقة؛ لننسى ذنوبنا.

- أية ذنوب؟

- إسرأفنا في أمرنا.

- لكن لم تكونوا إلا طلبية ذكوراً.

- لِذَلِكَ نَسْرِفُ فِي أَمْرِنَا .

تملصت من دعوته عَلَى العشاء كي لا يسرف في أمري.

وقبل أن أخرج حذرني بمكر من أم تتريت وتورتها الواسعة، فلا شَيْء في نظره أفضل من الطريق المستقيم، رغم أن الجبال وعرة وليس فيها طرق مستقيمة، والبرد القارس أشد عَلَى المرء من تأنيب الضمير».

«أخي العزيز سمير ...

لم أعد لتذوق الحشيش أبداً، فأنت تعرف علاقتي بكل شَيْء يمكن أن يستعبدني، تعرف كم فرصة أضعت في حياتي كي لا يستعبدني أي شَيْء، عَلَى كُلِّ حال، إِنَّهَا الفوضى التامة التي تفتح بابها لِإِسْتِقْبَالِ حياتي، فهل أستسلم للضياع الكلي؟ أَلَنْ يجعلني هَذَا الضياع عرضة للتذلل فيما بعد؟ وأنا كُلُّ مَا يهمني الآن هُوَ المستقبل، لو كان الحشيش سيمنع عني التساؤلات الكبيرة التي تملأ رأسي الضيق وتقع داخل صدري من زمن الطفولة المتأخرة لكنت رهن إشارته، أما أن يوقف الزمن في ذهني لساعات فقط، فالأمر لا يستهويني كثيراً، أريد أن يسير الزمن بسرعة لا أن يتجمد لفترة محدودة ويعود بضغط كبير، ضغط يجعلني أتشقق صداغاً لِأَتَذَكَّرَ مَا فعلته في تِلْكَ الساعات المائبة التي كنت أسبح فيها في الهواء، يجب أن أواجه الوقت بنفسي وأصنع من عجبنته فلْكَ لِأَرْكَبه ساعة الطوفان الأكبر، حين يهتز كل شَيْء حولي، أما حين تهيم الأشياء عَلَى وجه الأرض بسبب دخان يلعب بذهني فالأمر لا يعدو وهماً أصغر بكثير من الأوهام التي تعيش في داخلي مُذْ عرفت الحب أمام باب الثانوية، وَمُذْ عرفت أن الجنس يزاحمه ويتداخل معه بشكل مرضي، وَمُذْ عرفت أن فكرة الموت تحاصرني من كُلِّ جنب.

قطعة بنية محترقة تذهب العقل ساعات ...

لليفة حشيش مفخخة بالأوهام.

وأصدقاء يصنعون من صحبة دقائق جيلاً من المحبة والأخوة الفارغة والذكريات المريضة بالصدر، إن كنت انسحبت في الشوط الأول من العراك فلأني أعرف أن حرب الحشيش خاسرة، تخسر إن خسرتها، وتخسر إن ربحتها؛ لِأَنَّ العدو حين يجرك إلى الصدام في ساحة صحتك وعافيتك فأنت منهزم لا محالة.

العطلة تقترب يا صديقي وسأجد فرصة للهرب أياماً من هَذِهِ اللعنة التي تحيط بي، سأتمكن من إرسال هَذِهِ الرسائل إليك، عبر البريد، سيحملها لك مقدم البلدة لِتقرأها وتعرف عني كل شَيْء بعد أن باعدت بيننا السبل، هاتك اللعين لم يعمل مُنذُ شهور، لا أعرف شيئاً عَنْكَ صديقي، واشتقت إليك حقاً، ذَلِكَ الشوق الممزوج بِالْحَنِينِ لكل دقيقة أمضيها معاً في تحليل العالم، خصوصاً عالم النساء الَّذِي يبدو لنا غريباً دوماً، كل اللواتي وقعن في حبك أو وقعت في حبهن، وكل اللواتي لم أستطع أن

أقع في حبهن بسبب مزاجي، وكل حديثنا عن مزاجي المتعكر دومًا، وتصرفاتك الطائشة، وجميع الأشياء التي فعلناها من أجل أن نفرح، والتي تمنينا أن نفعها ووقف التسويف المعتاد في طريق تحقيقها.

أتذكر كل قراراتك المصيرية التي لم تعد كذلك، كل شيء أصبح بسيطًا جدًّا، لدرجة أتساءل ما الذي دهانا لنعتبرها بذلك الحجم المهول الذي يمكن أن يورقنا ليالٍ طوال، حتَّى لو قالت حكيمة إنك لست رجلًا، فما الذي يضرُّك من كلامها ما دمت لا تحبها، وحتَّى لو قال جمال إنِّي كذبت على خديجة فما الذي يدفعني لتبرير موقف ليس لي أصلًا. وحتَّى لو قالت سلمى إنَّها لا تفهمني، فهل استطعت يومًا أن أفهم نفسي كي يبلغ إحداهم فكرة من بنات أفكاري المنشطرات المنشطيات المحتقلات حينها بالعبث المبين، أصبح كل شيء صغيرًا، والأمر عادي، كلما ابتعدت عن الشيء بدا لك صغير الحجم. هذا ما حدث لقراراتنا الكبيرة، أصبحت بحجم حبة كرز حمراء مريضة بضربة الذباب. جمال كان يخطط لأشياء كثيرة أراد فتاة للسريير وأخرى للحب وأخرى للشورى وأخرى للصمت. أراد صديقًا للفرح وآخر للحزن وآخر لليالي الحمراء وآخر لليوم المبتذل، أظنه حصل على كل شيء في نهاية الأمر إلا أنا، وكانت عقدة كبيرة أن يتخلى عني، ليُست عقدتي بل عقده، أما أنا فلا أرى في الأمر الآن سوى قرارات صغيرة جدًّا لا تغير في العالم شيئًا، تصرفات جمع من المراهقين أخطأوا طريقهم في الحب والصدقة.

س.ر

صديقك الوفي

هذا اليوم أنهيت كتابة رسائلني إلى سمير، أستطيع التنبؤ بالكثير مما سيحدث لنا جميعًا، بياض الثلج سوف تتساقط بسرعة فائقة، سمير سيتغير قليلًا، البعد لا يترك الألفة بين الناس، كونه لم يحاول الاتصال بي من مركز البريد بالبلدة التي يعمل فيها دليل على أنه غارق في عالم خاص. عالم القيثارة والدخان، قبل أن نصعد لهذه الجبال كان قد اعتاد الدخان واستلذه كثيرًا، والوحدة ستجعله يقتل رنتيه وقلبه.

إنه يحب الموسيقى وهي شغفه الكبير، القيثارة ستحمل عنه همومه كما حملت عني الكتابة إليه الكثير من همومي.

لا أتق في الأيام، تغير الكثير من الناس بفعل الزمن، يريد أن يكون فنانيًا تصدح الإذاعات والقنوات بأغانيه، كيف لو فشل في تحقيق حلمه، سيندم على كل نوتة سجلها يومًا، وأنا لم ليُست لدي أحلام؟ ماذا لو فشلت في تحقيق شيء جميل في هذه الحياة؟ هل سأمر منها مرور النسيم الذي لا يغير شيئًا، لقد قبرت الحب الذي كان بإمكانه أن يبني لي هدفًا جميلًا أسعى لأجله، وما قد يكون هذا الهدف؛ بيت، عائلة، ترقى مهني، حساب بنكي ضخم. أمثل هذه المهن تتضخم الحسابات البنكية؟ أنا لا

شيء. مجرد شخص مرّ من هنا، عابر حياة لا همّ لي سوى الأكل والشرب. أحسد سمير، دائماً بيني أحلاماً مختلفة الأحجام، صغيرة متوسطة وكبيرة، غالباً ما لا يحققها لكنّها تجعل لحياته معنى، تعطيه الأمل في عيش شغف الأيام والشهور والسنوات على قيد حلم، والأحلام لا يهم أن تتحقق، إنّها هدف في حد ذاتها، وأنا ليس لديّ حلم، أنا أعيش هذه الحياة بالتقسيط الجريح. أريد أن أشفى فقط من قلقي الدائم وهلوساتي الليلية، وأرقي الذي ازداد مع الوحدة الرهيبة التي اكتويت بها في هذه الجبال الوعرة.

صدمات الفشل المريع في تحقيق الذات، سيتخلى عني سمير حين يجد أنّي لا أصلح رفيقاً ومؤسساً في هذه الحياة المتكالية، ولكن إن فشل هو في حياته، سينتقم منا جميعاً الأخ الأكبر. سيستهزئ بنا ويقول ملء شديقه: طائشان، لا تفكران بواقعية، ها أنتما تدفعان ثمن صلابة رأسيكما، ها أنتما فاشلان بكل المقاييس.

أيها الأخ الأكبر، تلك المقاييس هي التي تورقني، إن فشل سمير سأكون هنا لامتصاص صدمته، إن فشلت أنا، فماذا؟! أنا فاشل منذ قررت الدخول في عالم الصمت الرهيب، أنا صامت حد النجاح. إنّ الشيء الوحيد الذي أفصح في صنعه، الصمت الرهيب الذي يقتل من يراني من الخارج، شبيهاً بصخرة صماء تدرجت عبر الوادي، سمير يريد أن يدخل التاريخ، يقول إن الذين يبهرونني في كتب التاريخ ليسوا أقل ذكاءً منا، ليسوا عباقرة بل مُجدّون. وأن منهم من دخل التاريخ رغم أنف التاريخ نفسه، وكل ما يحيط بهم يدفعهم للتراجع، مثلنا تماماً. سمير تدرج من كلية الطب إلى مدرسة المعلمين بسبب غياب والده الذي هاجر بطريقة غير شرعية إلى إيطاليا ولا يستطيع العودة إلى البلاد لتوقيع وثائق ابنه ليدخل كلية الطب، الأمر غاية في العبث. هذا هو الموقف الذي جعل سمير يصرّ على أن الحياة عبث وجنون.

وأنا ليس لديّ ما أتحمّل به على هذه الحياة، صحيح أن الحاجة تنظر إليّ أحياناً بطريقة غريبة وأن لون بشرتي مختلف عن أخي وإخواني وعن كل عائلتي، شقري يسبب لي الكثير من الإحراج وسط عائلة من السمر، لكنّها مجرد طفرة لا أقل ولا أكثر.

جمعت رسائلني إلى سمير في ثلاث أطرف كبيرة، كتبت له الكثير من الأشياء، لكنني أحس الآن أنّه بعيد جداً وأني قد لا أبعث بها إليه، لا أدري كيف سيستقبل كل تلك اللحظات الحميمة التي كنت أستحضر فيها طيفه وأحدثه، وأحياناً أكتب كأنني أحدث نفسي فقط، مما يطرح لديّ السؤال القلق: هل كنت أكتب إليه أم لنفسي؟ إنّني لا يحب البكائيات السخيفة رغم أنّه يرتكب حماقات أكبر منها، وها أنا أشعر بأنني يجب أن أصمت حتّى أمام سمير الذي أحبه كثيراً، عليّ أن أحكي لطيفه لا له، طيفه يتحمل الألم أكثر منه، أريد أن أحافظ على كبريائي المشقوق أمام الجميع.

ما سر قلقي؟

أريد أن أفهم سر قلقي الدائم هذا.

يجب أن أعود للبحث عن ذاتي، أن أعيش كُلَّ الماضي بهذا الوعي الحاضر في الآن، ستكون رحلة صعبة جداً لكن عليّ أن أدفع ثمن تذكرة عبورها لأجد نفسي وأبعد عني شبح القلق المتربص بي وبأوقاتي.

راسلت أم تتريت مرة أخرى، وصعدت إلى الشلالات عبر طريق الحمير، وكان جمع من الفتيات قد عدن محملات بالحطب من أعلى الجبال ويسلكن نفس الطريق، تحيت حتى التصقت بالجبل لأترك لهن فسحة للمرور، تهامسن وضحك قليلاً قبل أن يسلمن عليّ بلغتهن الأمازيغية، في مثل هذا الوقت، بعد العصر يكون الشبان مجتمعين هناك قرب الشلال، ينتظرن عودة الفتيات اللواتي يتخفن من أنقاهم ويقفن لمحادثتهم، إنَّها عادة مترسخة هنا، كأنه حفل تعارف. رحب بي الجميع، واستقبلوني بحفاوة زائدة. رغم أنني أعرف نفاقهم المتأصل في جيناتهم، حين جاءت أم تتريت جلست بالقرب من صخرة كبيرة مستظلة بظل شجرة جوز وهي تقشر القليل من لحائها بأظفارها لتمضغه.

قالت إن السواك أصبح لديها عادة كلما مرت بقرب شجرة جوز، تحدثنا قليلاً عن ابنتها وعن المدرسة والجو المعتدل، الذي يمكن أن ينقلب في أي وقت؛ لأنَّ موسم الشتاء مازال مستمرًا رغم صحو الجو، تتحدث بالأمازيغية محاولة مزجها بالدارجة المغربية متممة إيَّاها بالإشارات لأفهم قصدها، الآخرون منهمكون في أحاديثهم ويبدو أنَّه من العادي جداً في هذا المكان أن تتفرد فتاة بشاب دون أن تبتعد عن الآخرين، وكثير من الزيجات انطلقت من هذا المكان، أثارتي طريقة مضغها للسواك، ورميتها بقلبة في الهواء، وكنت متحرقة للانفراد بها في أعلى الجبل، لكن يبدو أنَّه من المستحيل فعل ذلك في هذا المكان المقدس والمدنس في نفس الوقت، هي ليست فاتنة بالمعنى الذي أعطيه للفتنة في ذهني لكنَّها شهية، ساخنة، ولون لسانها البرتقالي يزيدني اشتعلاً، خصرها مشدود بحزام وتتبع منه قوة امرأة قروية تحمل على ظهرها عشرين كيلوغراماً من الحطب. أئن أشتعل وأنا المكوم على جسدي منذ شهر سبتمبر حتى فبراير.

غيرت الموضوع بتبنيهي إلي أن هذا الانفراج في الطقس مؤقت وأن موسم المطر والتلج قد يعود بعد أسبوع، هم يستغلون هذا الطقس للحصول على المزيد من الحطب للطبخ والتدفئة، ولكني أريدها، أريد أن أدخل تنورتها الطاووسية.

نظرات صديقاتها تتم عن الحسد، فالحديث إلى المعلم يعني لهن الكثير، من يدري أنَّها قد تسقطه في شباكها وتجعله يتزوجها بعد موسم الحصاد، لكنَّها تعرف أنني سأغادر القرية في أقرب فرصة، رغم الحسد الذي يرقبنا فقد جعلتني أثمل من النظر إليها، ولولا الجلباب الصوفي الذي غطاني به شاب من القرية كي لا أجمد من البرد بعد أن تعرقت وأنا في طريق الصعود لفضحني جسدي الذي يشتعل دون إذني.

أخبرتها أنني سأغادر في العطلة بداية شهر فبراير، وأني أريد أن أراها قبل ذلك، لمحت لها أن تأتي إلى المدرسة ليلاً كي أودعها، ولكنَّها رفضت، وحملت رفضها على سبيل التمتع العادي للنساء.

خلعتُ الجلباب الصوفي وأعدته لصاحبه، شكرته كثيرًا وَلَكِنَّهُ أصرَ عَلَيَّ أن أحتفظ بِهِ حَتَّى أصل للبيت، لم أفعل ذَلِكَ لأنِّي أريد أن أتجنب التعرق وأنا أعود عبر طريق ... الحمير.

بقيت في غرفتي طول ما بعد العصر حَتَّى منتصف الليل، أعيد قراءة رسائلني إلى سمير، فيها ضعفٌ كبيرٌ لا أرضاه لنفسي، وَلَكِنَّهُ حقيقي، لم أخل منه إذن؟ تِلْكَ اللحظات التي جعلتني أسقط في برائن الحزن اللذيذ، المعلمان الآخران في الغرفة والمجاورة يضحكان بصوت عالٍ ويصدران ضجيج السكاري، المدرسة بعيدة جدًا عن الدوار، قريية من حافة الوادي ومن شوك المقبرة، إنهم يزعجون سكينه الموتى، ولأنني أطلت المكوث في غرفتي دون حركة، دق عليّ أحدهما باب غرفتي ليطمئن عليّ. أشار إليّ بعد أن دفع الباب بصعوبة إلى أن إشارة من مسلاط ضوء قريب من المسكن مودهة إلى نافذة غرفتي، حددت موقع المسلاط وارتديت كل ما لديّ لأستدفيّ به وخرجت، اعتقدت أن أحد التلاميذ جاء يطلب إصلاح هاتف أو راديو كما هي عادتهم ولكن كانت أم تترتت، زهرة، اسمها زهرة، زهرة بريية متوحشة، أطفأت المسلاط الضوئي وسرنا قليلاً للابتعاد عن الدوار أكثر، كان البرد قارسًا وبدأ الجو يتغير فعلاً مرتدًا إلى البرودة القاسية، رائحة السواك ما زالت قوية في فمها، وهي تتحدث، كنت سادعوها لدخول القسم حين رفضت أن نلج غرفتي، ولكننا استقررنا على صخرة بعد منرجين متقاربين. وجلسنا محتمين من البرد بحرارتنا، محتقلين بالقبلات وكنت هائجًا كثور، متكئًا على سور صخري، يداها قويتان وخشنتان بسبب الشوك وكسر الحطب، واستعمال المنجل، هذا حال المرأة هنا، قالت، نتعذب ليل نهار من أجل لقمة العيش، نعيش مع الطبيعة والحيوانات، استمعت لحكايتها مع أب ابنتها الذي أحبته كثيرًا ومنحته جسدها قبل أن يسافر إلى الدار البيضاء للعمل، وعدها بالزواج حين يعود في عيد الأضحى، لكنه اختفى تاركًا وراءه بذرة تترتت التي نمت وسط الفضيحة. حاصرها الناس بالشتائم والسباب حين بدأ بطنها يظهر لكنها واجهتهم جميعًا وفضحت كل علاقاتهم، الجار يزني مع زوجة جاره، وبدأت تسرب في العلن كل العلاقات المتخفية والمبغوضة، فلم يكن أمامهم إلا أن يتركوها بسلام ويحترموا قوة شخصيتها، وصلتها أخبار بأنه تزوج ورحل إلى شرق المغرب ثم إلى تونس.

أرطال من الملابس بيننا، والكثير من القبل والحركات غير المجدية.

كان الكلب أسكاي يراقبني من بعيد، وينتظر أن يرافقتني، حارسي الشخصي في الليالي المظلمة، ابن الكلب كان يقربي حين كنت غارقًا في لججتي، أي ييس أن تسرق من الحياة قبلة ليلية جافة، أي جفاف يعتريني وأنا أمارس طقسًا دافئًا في مكان تقل درجة حرارته عن العشرين، شفاهها الندية أسعدتني رغم ذلك، كانت حلوة وساخنة كشرية عدس في عز البرد، والتقطت ما قدمت لي من دفء لحظي، إحساس لذيق وحزين كفرحة سراب بعيدة في الصحراء. بعيدة، بعيدة وفيها أمل ولذة وجنس محرر للجسد الثقيل. ربما أجمل شيء في السعادة أنها توجد أمامنا دومًا لا خلفنا رغم أنها بعيدة، قد لا نلحقها لكننا نعيش على أمل ذلك.

رحلت إلى بيتها عبر مسلك آخر، حين ودعتها، سمعت أحد المعلمين ينادي عليّ من المسكن، ففي مكان كهذا على الزميل الانتباه لغياب زميله، ناداني بصوت مجروح كأنه غنى ليلة كاملة، ينضح

منهُ السكر، مَا زلنا نحتفظ في السكنى بكل قنينات البيرة الفارغة؛ لِأَنَّ النَّاسَ هُنَا يعرفون مَا تشربه من مزبلتك، غادرت زهرة مارة من مسالك لا يعرفها إِلَّا خبير، وعدت أدراجي محاذيًا للسور الذي مارست تحته نصف علاقة لا تغني من جوع الجوف المَكْفهر رغبة.

عدت رفقة أسكاي الذي يحتك برجلي، ويصدر أنينًا ليقول لي إِنَّهُ يشتاقتني، يتطلع إليَّ بعينه البراقتين، أسلط عليه ضوءًا من المسلاط اليدوي فيغلق عينيه ويطأطئ رأسه، كلب يجعلك تحس بحنانه الهامر، نظراته مودة طافحة، وحركاته ذكاء عاطفي مشتعل، خللت فروة ظهره وبطنه بأصابعي لأجيبه عَلَى قلقه عليَّ في هَذَا الظلام المدلهم، قررت أن أتركه ينام في غرفتي اليوم، بدل أن يعود لكهفه.

دخلت البيت وواجهني زميلي بهيستيريا من الضحك قائلاً:

- أظن أن الأموات تعبوا من أفلام المعربدين أمثالنا واستمتعوا اليوم بفيلم رومانسي.

- ماذا تقول؟ أَلَا يخفى عَنْكَ شَيْءٌ في هَذَا الجحيم؟

- حاذي الوادي الضاج وَلَا تحاذي الوادي الصامت مثلك. أنت نمس.

واستمر في لهجته المبتذلة وتعليقاته الساخرة التي شممت فيها حسداً أكثر من أي شَيْءٍ آخَرَ، فأن تقبل فتاة هُنَا مدعاة للغبطة، إِنَّهُ البؤس، إِنَّهُ الشقاء، الزملاء المعلمون يحسدونك عَلَى كل شَيْءٍ، لا يجب أن تختلف عنهم حَتَّى في الوجع، عَلَيْكَ أن تُكون مثلهم، تلبس مثلهم، تفكر مثلهم، تستيقظ في وقت استيقاظهم وتأكل مثلهم، وإلا حسدوك عَلَى النعمة والنقمة، هكذا هم شعب المعلمين، شعب الفراغ المهول؛ لِذَلِكَ هم يشترون نفس الأشياء بنفس الطريقة، التقسيط هُوَ منهجهم في الحياة. لا يجب أن تسعد كثيراً دون أن تعلموا سبب سعادتك، وَلَا أن تصمت كثيراً دون أن تعلموا سبب تعاستك ليشتمتوا بك.

السور كان لمقبرة الدوار، لقد أزعجت حشمة الموتى، يا لَهَا من لعنة، اللعنة عَلَى الجسد المحشو بالشهوات، اعتذرت لكل المدفونين هُنَاكَ ودعوت لهُم وطلبت من الله أن يغفر لي ولهم، نمت والخرج ييلعني، ابتسمت بحزن مشوب بسخرية خفية، أغير ملابسِي الداخلية وأنا أكرز عَلَى عواظي كي لا تقضني.

وتشتت الحزن عَلَى أعتاب قلبي وبيوت القرية وسياج المقبرة.

الجنس يحررنا والضمير يسجننا.

العد العكسي لاقتراب العطلة، شعور بالمرارة ينتابني كلما فكرت أَنِّي سأكون شخصًا آخَرَ، لن يَكُون لي مكان في البيت، سيكون أخي قَدْ استعمرَ واستحلَّ كلَّ شَيْءٍ في غرفتنا، أصلاً هُنَاكَ غرف كثيرة

بالبيت، ولكن الحاجة تصرُّ على أن نتشارك في الغرفة كي لا نشعر بالوحدة وكي تتقوى أختنا، وكي أنتبه لأخي وأربيه أيضًا، سأغدو ضيفًا ثقیلاً ربما، جدران من الغربة صنعت في داخلي جبلاً من البرود تجاه المدينة، اشتقت الجميع، اشتقت حتى قطط الحي التي تطعمها الحاجة قرب باب البيت، تطعمها خبزاً مبللاً بالمرق، وأحياناً علب التونة والجبنة.

وسمير قد يأتي وقد لا يأتي ...

ولكن إن حدث والتقينا سأعطيه الرسائل وجهاً لوجه وسيقول لي:

- أنت تحفة نادرة يا صديقي، لولا هؤلاء المجانين الذين يتحكمون بمصائرنا.

- لا يا صديقي، أنا لست تحفة نادرة ولم أكن قط ملاكاً، أنا كنت فقط مرآة لقلبك الطيب، يا صديقي، لا تتهم أحداً من الخلق وقل إن الله شاء. فالقلوب التي تحمل الضغينة لا يمكن أن تستمتع بحلاوة الحياة، يا صديقي ... إننا لم نمت بعد وهذا هو الأجل ... سنستمتع بقصائد السياب تحت أسوار مدينة الموتى، ذكرني بقصيدة القدرح التي لا تسكر أحداً، قلت فاتحاً المجال لذكرياتنا الحمقاء.

- أنا ما أزال وفي يدي قدحي.

يا ليل أين تفرق الشرب

ما زلت أشربها وأشربها

حتى ترشح أفقك الرحب

الشرق عفر بالضباب فما

بيدو فأين سناك يا غرب؟

- أفتقد أيضًا أغاني الغيوان من حنجرتك وصوتك الأجرس وجولات الدراجات الهوائية في المدينة والقشة التي تفقدك توازنك وأيضاً حكايا الجبل وسخطك على التقاليد البالية وأشياء أخرى لا يمكن البوح بها ولكن افتقدتك يا رجل.

- ياك أ قلبي جيت غريب.

ياك أ قلبي من بلاد بعيدة

ياك أ قلبي بقيت فريد

بُح يا صديقي وَلَا تخجل، ألم تفنقد حكايات حبي الفاشلة وكئوس القهوة الباردة؟ ألم تشفق إلى وعودي الزائفة بزيارتك كل مرة وتبريراتي التي لا تنتهي بعدها؟ بُح وَلَا تخجل، أنا كما أنا دائماً ذلك المذنب الذي يرغب دائماً في أن يتوب.

- ذكرتني أنت الفاشل الذي لا يريد أن ينجح، ليس كذلك تماماً بل أنت العنيد الذي لا يريد أن يصدق نفسه والذي يريد أن يسير ضد التيار وأنت القلب الطيب كذلك في علاقاتك في حبك لجديك وللجبل ولسولال. أنت تدري وتدري أنني أدري الكثير من الأشياء الأخرى التي نسيناها، هل حان الوقت للتذكر وما حجم الجليد المتكون؟ هل سيسمح بذلك؟

- لا يا صديقي لم أنس شيئاً كأنه الأمس، أنت تعلم أن لي من الأصدقاء المقربين اثنين فقط أحدهما رحل عني دون وداع إلى الأبد، رحمه الله، والآخر أنت الحاضر الغائب منذ شهور يا صديقي، إن دفء المحبة في قلبي لا يسمح للجليد بالتراكم رغم تراكم شهور الجفاء.

أنا منسيت حبابي ...

أنا ما نسيت القمرة.

أتمنى حقاً أن ألتقي سمير، أحتاج لقاءً مع مرآة روحي، ذلك الشخص الذي لا يعاتبك إن أخطأت ولا يبني مواقف ضدك إن تعريت على حقيقتك، سأخبره عن نهاية قصتي مع الحب، وبداية قصتي مع الجنس بعد أن تجاوزت المراهقة بقليل، سأخبره أن مزاجيتي تجاوزت الحد بكثير من الفصول، وأني أحسنت الفعل بتركي لبياض الثلج، لو حدث وخنثها سأكره نفسي وألوث الحب. سيفهمني، الوحيد الذي يفهم هذا المنطق الشعوري هو سمير، فضلت أن أتركها على أن أخونها. سأخبره أيضاً أنني أستطيع التقبيل دون حب، ودون رغبة، ودون اعتياد، يمكنني هكذا أن ألتقي فتاة قرب شلال وأنخرط معها في سلسلة هجمات جنسية، والأمر من كل ذلك أنني مارست الجنس قرب المقبرة، من في هذه الحياة يستطيع فهم ذلك.

وسأنصت إليه.

حين يحكي عن البيت الطيني المليء بالعقارب والثعابين الذي اضطر إلى السكن فيه، أو ربما سكن في المطعم المدرسي قرب المئونة بسبب عدم وجود سكن خاص بالمعلمين. الفئران التي تزحف نومه وقد تقضم أصابعه وهو نائم. ساعات الصمت الرهيب الذي لا تقطعه غير طقطقات القصدير أو الرياح التي تداعب قطعة خشب وتضرب بها الحائط، وتسبب هلعاً في منتصف الليل، أمازيغيته السلسلة سوف تساعده على الاندماج في المجتمع القروي الصغير في البلدة. وقيثارته، سيتعلم العزف الأمازيغي وتزنازرت، وقد يغير القيثارة بألة البانجو، وسيعشق فتاة من الدوار، وسيدخل منطقة «السقير» ليحدث كل فتيات البلدة، أكيد سيغرم بإحداهن وستكون نجمة أخرى تضيء سماءه، رجل يحب بسرعة ويتخلى بأقصى سرعة.

تشردت قرار اتنا يا صديقي.

استيقظت متعباً في الصباح، ودخلت القسم لأقدم برنامج اليوم ما قبل الأخير، والذي كان تصحيح الفروض النهائية.

بعد الزوال، بدأت حزم أمتعتي رغم قلتها، أستعد لمغادرة الدوار خمسة عشر يوماً على الأقل، الزمن المتجمد هنا يجعلك تعطي معنى لكل صغيرة وكبيرة، معنى للاستيقاظ والنوم، معنى لأشعة الشمس، للتراب والجارة، للصمت وحركات الذهن. تعيد الفكرة سبعين مرة ومرة، وتقلبها على مواجعتها ومواجعك، المعنى في الشاي والسكر والزعتر والشيح والسيجارة والبيرة والوسائد. تصبح سيد العلامات ورسول الدلالة، وتستعيد تاريخك الشخصي منذ ما قبل ولادتك، غريب أن الحاجة لا تحكي لي عن ولادتي ولا عن يوم عقيتي، تقول فقط إنها ذبحت خروفاً سميناً حين بلغت السنة من عمري. لا يهم. الفراغ يترك لك فرصة مراجعة ماضيك كله بكل حيثياته، نبضات قلبك الأولى تجاه فتاة أحببتها، شعيرات جسدك التي تنمو تحت مراقبتك، هجوم حب الشباب على بشرتك، احتقاؤك بالشارب واللحية، وقبل كل ذلك، معاناتك اليومية مع أعضاء من جسد يخلو لها التنطع أمام الجمهور. لهذه الدرجة يمنحك العمل كمعلم في الجبال استعادة كل دقيقة من سنوات عمرك، وأكثر من ذلك يمنحك قدرة على التخطيط لمستقبلك، المعلمون بارعون في وضع الخطط المادية والحياتية، فهم يعلمون متى سيشترون بيتاً، وكم سيدفعون للبناء، ومتى سيشترون سيارة وأي نوع بالضبط، وكل شيء، لا يمكن أن تغفل شيئاً من حياتك دون التفكير فيه وأنت في الجبال.

أطعمت أسكاي خبزاً يابساً مع عظام جمعتها له في اليومين الأخيرين، لا أدري كيف سأخبره أنني سأغادر، استعملت لغة البشر ونظرت في عيونه أتملئ درجة فهمه، أمال رأسه يميناً وشمالاً وحرك ذيله، قرفص واستلقى على طرفيه الأماميتين حتى تدحى بطنه وهو يتطلع إلي لأعبه، لكنه سرعان ما كثر على أنيابه حين سمع صوت أقدام قادمة في اتجاه السكن. رجل من أهل القرية تراجع خطوات حين لمح أسكاي، وبدأ يهدده. تبادل معه حقداً دفيناً مزماً من خلال نظرات تبادلاها معاً، لكن أسكاي حنى رأسه وحرك ذيله وابتعد حين رأى إشارة من يدي.

جاء رجل من القرية يدعونا للعشاء، احتفالاً ربما بنهاية الدورة الأولى، حاملاً معه كيساً من التين المجفف والجوز والتمر.

- الحاج عمر كيف حالك؟

- الحمد لله تعالى، نحمده ونشكره. تفضل، بركة للوالدين.

- الله يرحم والديك الحاج عمر.

وقدمها لي بركة للوالدين، شكرته على صنيعه وهو يغادر.

غادر زميلي ليلاً للحاق بحافلة تقلهم إلى مراكش عبر تيزي نتاست، وبقيت وحدي في البيت مستعداً لأغادر في الصباح الباكر منتظراً عودة نفس الحافلة إلى تارودانت. في الصباح كان الضباب كثيفاً، كما توقعت أم تتريت، لا تستطيع حتى أن ترى طرف قدمك. حملت حقيبة الظهر وخرجت باكراً لأسير الخمس كيلومترات التي ستوصلني للطريق الفرعية التي تربط مراكش وتارودانت عبر تيزي نتاست.

في منتصف الطريق سمعت صوتاً غريباً اختلط بصوت الشاب حسني من سماعتي، توقفت وأزلت السماعة فإذا بي محاط بفيلق من الكلاب البرية التي تشبه الذئب، عشرات منها لا أتذكر إلا نباحها وأشباحها وهي واقفة تجاهي في هذا الضباب، تذكرت المعلمة التي أكلتها الكلاب المتوحشة في الجبل ولم تبق إلا على عظامها، كلاب ذئبية مهاجمة، فضلت أن تأكلني وأنا فاقد الوعي، بعد أن اشتغلت صفارات إنذار قوية في أذني فسقطت مغمى عليّ، لا أريد أن أؤكل وأنا حي من طرف كلاب غابة بين جبال الأطلس.

ولأول مرة أفهم معنى أن يمر شريط حياتك أمامك في ثوانٍ، إنها صور متلاحقة من الابتسامات والضحكات والدموع والوجوه تمر بسرعة البرق، بسرعة الخوف، بسرعة الضوء، الذاكرة أسرع من الضوء، عناوين الأخبار: معلم متدرب نهشته كلاب الغابة في وقت العمل القانوني عائداً إلى مدينته، الكلاب الثلجية أو الذئبية تهاجم معلماً في أعالي الأطلس الكبير نواحي تارودانت. الأسرة التعليمية تنعي بطلاً فقد حياته وهو يحارب الجهل في أعالي الجبال. وزارة التعليم تخلي مسئوليتها في وفاة رجل تعليم متغيب بدون رخصة.

ترى من سيوصل الرسائل لسفير إن مت في الطريق؟

كيف ستستقبل أمي خبر وفاتي؟ كيف سيدفنون رجلاً موزعاً بين أمعاء قبيلة من الكلاب الذئبية؟

حين أفقت وجدت نفسي بين يدي راعي ماعز يرشني بالماء، دفعته بقوة وبقيت ألكمه بعصبية وهو يشرح لي ما حدث، ولم أهدأ إلا حين رأيت أسكاي ينظر إليّ من بعيد، حقيقتي ممزقة وأوراق مبعثرة، ملابس تقاسمتها أنياب الكلاب حتى البوكسر الداخلي الذي لم أتمكن من تنظيفه من سوائلي في تلك الليلة المتمردة تمزق إلى قطع كثيرة؛ لأنّ روائح عضوية تنبعث منه أثارت ربما إناث الكلاب.

- لقد أنفذك أسكاي وكلبي الراعي من جيش كلاب الغابة، كان يتبعك منذُ خروجك من المدرسة صباحاً. عليك ألا تنهار في البرد القارس؛ لأنّ درجة حرارتك ستخفض وتموت برداً، وهذه الكلاب جبانة لذلك تجتمع في قطعان كبيرة من أسر متعددة. كلما واجهتها استعمل الحجارة والصوت لإخافتها وستهرب منك.

حين لمحت ثيابي الممزقة خارج الحقيبة، وعضة في رجلي اليسرى، انتابتي نوبة دعر جديدة وأغمي عليّ مرة أخرى. سرعان ما استفتت منها. ركبت ظهر حمار الراعي وتوجهت للحافلة. اتجهت مباشرة إلى المستوصف بمركز أولاد برحيل لأخذ حقنة ضد السعار، ومعالجة الجرح. نظرات الشفقة من الطبيب جعلتني أغضب، أكثر من مهاجمة الكلاب. قال إن تلك المناطق يجب أن تكون عسكرية وليست مدنية.

- حفنة من الأمازيغ المتشبهين بصخور الجبال يكلفون الدولة أموالاً طائلة لتعليم أبنائهم الذين لن يفلحوا على كل حال. الأفضل هو تجميعهم في مدارس داخلية بدل تشتيت الموظفين في مناطق نائية وخطرة.

- الأفضل، قلت له في غضب حزين ومستسلم، ألا أعود لهذا المكان. لا تهمني سياسات الدولة ولا مقرراتها. لم ينقذني غير كلب وفيّ لم أودعه لأنني لا أفهم لغة الكلاب. عليّ أن أتعلم لغة الكلاب بما أنني في وطن لن يرعاني فيه غير كلب وفيّ.

نظرت إليه وعيوني جمر طافئ، بها شرر متخفّ ضدّ عنصريته. لو لم أقرر خلال تأملاتي بالجبل ألا أجادل المغفلين لوقعت معه في صدام كبير. دكتور في الطب، لم يتعلم الأدب، لم يقرأ الشعر والرواية، مجرد تقني صحي لا يفكر. لو كنت أملك سلطة لجعلتهم يدرسون الشعر في كلية الطب.

أعطاني الممرض حقنة مضادة للسعار، ألمتني كثيرًا، وأصابتني بدوار خفيف، شكرته وخرجت من المستوصف الجماعي. يا له من يومٍ متعبٍ. استقلت سيارة أجرى كبيرة وعدت إلى تارودانت بعد شهور من الغياب.

تارودانت، عسك بخير أيتها المدينة الدافئة، المنسية في حوض سهل سوس الكبير، تحيطك الجبال والوديان كمدللة، ها أنا قادم إليك بكل الشوق القابع في جوفي. فلتغفري غيابي الطويل عنك. لقد جئتك محملاً بندوب في القلب وجروح في الذاكرة، فلتلثمي قلبي بالقبل ولتضمدي ذاكرتي بالعناق. ما كل هذا الحنين الذي يفيض وأنا أقترب منك لأشم تراب سورك الطيني الحزين، ما أجمل الاقتراب منك، من نخلك وصخرتك ومن عينيك.

قبل الدخول للبيت زرت الوالد في السوق وسلمت عليه، تفاجأ بعودتي وحضني بقوة كبيرة وهو يفتخر بي كعادته أمام التجار، بعدها توجهت لدرج الصوف، فتح لي أخي الباب وهو يصرخ فرحًا، ولكنني استغربت عدم وجود الحاجة بباب البيت لاستقبالي. سألته:

- أين أمي؟

- إنها متعبة قليلًا. لكن لا تقلق هي بخير الآن.

قبل أن يتم جوابه ركضت إلى غرفتها ووجدتها ممددة على الفراش والابتسامة لا تفارق محياها، لماذا لم يخبروني بمرضها؟ إنها خائفة القوى وَلَكِنَّهَا راضية وتبتسم في فرح حين رأنتي. رفعتها قليلاً عن السرير ووضعت وسادة بينها وبين المسند الخشبي الخلفي. ورحت أقبل يديها ورأسها. وأنا أشعر بأني خنتها بغياي الطويل، كان عليهم إخباري. هي منعتهم من ذلك.

أمي الحاجة هي ملح البيت والحومة، لم أسمعها يوماً تشتكي من ألم أو وجع أو نقص أو مصيبة، لا تقول إلا ما يرضي الله، لونها الأسمر يحيطه بهالة من البشر والنشاط، تنام بعد الكل وتستيقظ قبلهم، لا يضعفها مرض ولا كسل. قلت لها:

- يا الحاجة نديك للسبيطار؟

- ولاش؟ التسبيح بين يدي وحجر التيمم بقربي، أشرب الحساء والشاي والماء، أكرمني الله في بيتي لم سأذهب للمستشفى ليغلقوا عليّ الأبواب وحيدة دون أبنائي. تريدني أن أموت وحيدة لا أحد بقربي.

- بعد طول العمر يا الحاجة.

بعد ساعتين من مكوثي بجانبها، انتبهت إلى أنني لم أتناول شيئاً منذ دخولي، لأنني بقيت ممدداً على السرير في حزن الحاجة فنادت بصوت خافت على الخادمة دادا ونهرتها قليلاً لتعد الغذاء لي. بعد برهة دخلت نسوة من الحي وجلسن بغرفتها وانسحبت لأضع الحقيبة في غرفتي، وكما توقعت استحل أخي كل مكان في الغرفة ووضع حاجياتي فوق الدولاب الخشبي وعات فساداً في كتبي، كان يتبعني بخطى حذرة لأنه لم يتوقع حضوري اليوم.

- صور شاكيراً أيها الأحمق؟ وسيدات البورنو الأمريكيات خلف باب غرفتي؟

- إنها صور فنية.

- اللعنة عليك وعلى الفن. ما زلت طفلاً أيها المجنون.

- أكثر ما أكره هي هذه الجملة، ألم تلاحظ لحيتي، لقد ازداد طولي، ولي حبيبة، ألا يكفي هذا لأكون رجلاً.

- أنت مجرد مراهق بانس.

- مراهق وطباخ ماهر، تعرف أن مشاكلتي مع أبي بدأت بسبب المطبخ، هو يعتقد أن المطبخ للنساء فقط.

- وماذا تصنع في المطبخ؟ تساعد دادا مثلاً في قلي السمك؟

- في المطبخ الكثير من الأسرار.

- هل تشارك النساء نميمتهن؟

- أقصد أسرار الطبخ والنكهات. الأمر يستهويني حد الهوس.

- أنا كذلك أحب عالم النكهات والمذاق. أظن أن أبي اكتفى من عالم النساء ولا يريد رجلاً في المطبخ، وكما تعلم هو يبحث عن يخلفه في سوق الصوف.

دفعته على الحائط وانهلت عليه بالضرب وهو يضحك، ضحكنا كثيراً، واحتضنته بقوة، وكدت أبكي لأنني اشتقت إليه كثيراً.

- متى مرضت الحاجة؟

- قبل إسبوع فقط، أغمي عليها في الحمام البلدي.

- حملناها للمستشفى، فحصها الطبيب وعدنا بها للبيت، قال إنه ارتفاع ضغط سبب لها شللاً في بعض أطرافها، إنها تتناول الدواء وحالتها مستقرة لكنها لا تقوى على القيام من السرير.

- الله يشفيها يا رب.

- ستزيل هذه القاذورات من الغرفة بينما أذهب لأرى أصدقاء الحومة.

- هل ستري سمير؟

- لا أعتقد أنه عاد، إنه يعمل بعيداً جداً.

سمير الذي أحمل له كومة من الرسائل المحشوة بعداباتي، الرسائل التي مزقتها كلاب الغابة، الرسائل التي عليها بقع من دمي، ليته هنا.

وبياض الثلج التي انهمرت ذكرها مع دخولي للمدينة، بأي قلب تركتها وشطبت على حضورها من حياتي، وأخي الأسمر استحل كل ممتلكاتي بالبيت حتى مذكراتي وأوراقتي، هو يعرف تاريخي العسقي وأسماء البنات اللواتي تورطت بهن يوماً، أنا عار أمامه، في كل مناسبة ينطق باسم إحداهن وهو يغمز بمكر واضح، وهي رحلت حين تركتها للبحث عن ذاتي في خضم الأفكار المعطلة للحب.

بعد جولتي السريعة حول المدينة عدت إلى البيت، حكى لي أخي كل ما حدث في غيابي كل هذه الشهور، وحكت لي أمي من جانبها كل شيء. لم يحدث الكثير. لن يحدث الكثير والحاجة مريضة ومستلقية على السرير، ضعيفة ولكن إيمانها بالحياة قوي جدًا. رائحة الحناء في يديها وشعرها البرتقالي. عطر الريف دور القوي الذي ترشه قربها وسبحتها المضيئة التي لا تفارقها.

- يا الحاجة لماذا تديرين السبحة وأنت منشغلة بالحديث معنا؟

- أنا أتحدث معكم ولكن قلبي منشغل بذكر الله. كنت أخاف أن أموت دون أن أراك. الموت رحلة فقط بين عالمين، ولكن ربما نحمل معنا صور من نحب حتى لو عبرنا إلى الجهة الأخرى.

نظرت إليها بدهشة، هذه الحكمة التي تقطر من كلامها. ما مصدرها؟ الحياة مصدرها، تجاربها في الحياة والزمن القاسي الذي مرت به قبل أن تستقر أوضاعها رفقة والدي، سفرها وهي صغيرة من الشمال الموريتاني إلى جنوب المغرب رفقة والدتها، في الأربعينيات والحرب على أشدها في العالم. حتى أن حكاياتها تخلط بسيرة أمها، جدي، التي كانت حافلة بالهجرات والحروب، ولكن الحكمة هوية، وتقاسمت مع ابنتها هويتها التي تحملها في ذكرتها كحكايا عاشتها هي نفسها؛ لذلك يصعب علينا في كثير من الأحيان أن نميز بين سيرة جدي وسيرة أمي، لكن الثابت أنها حين تزوجت أبي كانت وحيدة لا أم لها ولا أب. كان هاجس المجاعة والمرض والخوف يراودها دائمًا بسبب كل ما عاشته أو سمعت عنه؛ لذلك كانت تساعد الجميع بكل ما تملك، وتقصد الطعام، حتى فتات الخبز الذي يبقى على المائدة تجمعه في كيس صغير، إن لم يستفد منه البشر يستفد منه الطير. سمرتها تحمل وجعًا إنسانيًا وتاريخًا من المعاناة، وحين أتقرس في قسامات وجهها الذي لم أرث منه ولو نقطة تتابني قشعريرة أمام هذه الخطوط والأخاديد وثقب الأذن الذي أصبح أكثر طولًا بعد ترهل شحمته، تساءلت دومًا ما الذي جعل الحاجة تملك هذا القلب الكبير؟ وكيف تزداد حبات الكسكس حجمًا بين يديها؟ وكيف تصنع الرفيسة من الخبز اليابس وتجعلها وليمة؟ كيف تحافظ على طقوس الحناء وعاشوراء وتزور كل أضرحة المدينة؟ لا تكابر ولا تماري وهي سيدة غنية بفضل تجارة زوجها، وبفضل فضتها وذهبها الذي أحضرته من الصحراء وأنفقته على بيتها في السنوات العجاف. البيت الكبير الذي يحتضنها، بعض غرفه من الجبارة والجبص والأخرى من الطين والأجور وبئر في المطبخ جف ماؤها وبقيت هولة للأطفال المشاغبين.

إنها سيدة خرجت من الكوخ وبنت قصرًا في تارودانت، صنعت مجدها الشخصي بيديها المخضبنتين بالحناء التي ترمز بها لجمالها واعتنائها بنفسها، ليس هذا فقط فهي حين تشم رائحة كفيها تستنشق البركة وتقول دومًا إن نساء اليوم صفر الأيدي لا تتحرك البركة بين أصابعهن.

من جمال الحاجة أكاد أصرخ: «أعبروا وجهي الصدي بعض الملامح الجديدة، فابتسامته قديمة وموجعة غالبًا. وعيناها غائرتان، غائبتان في غابات سحيفة تحثان عن «الرفاق وعن المقهى» وعن الزقاق والنخلة والفرح المتوارى خلف الزمن الباهت، تحثان عن زمن اللعب صباح مساء وعن ملابس العيد، صوت المآذن البعيد الذي ينتشك من وقتك ليزج بك في الوقت العام للمدينة. الجرة

الطينية وراء الباب الخشبي الكبير والغراريف المطلية بالقطران. الأيادي المطلية بالحناء ومهرجان الألوان على ملابس النساء. الكحل والسواك ونقط «الحركوز» على الوجنات الوردية. أعيدوا لوجهي فرحه الأصيل. قلت وَقَالَتْ معي المدينة.

أنا أحس بثقل السنين حين أتأمل تاريخ أُمي، إنَّها مزرعة من الأحلام رغم الانكسار والحروب القديمة المهلكة، هَذَا الإحساس جعلني أكبر كَثِيرًا وأدخل متاهات التفكير الطويل، ساعات من الصمت والتأمل الَّذِي يسرح بي في الدنيا كلها، وأحيانًا يخيفني.

تتسكب النوات عبر الكمنجات وينسكب ماء الخوف الثقيل داخلي، نوتة تحررني ونوتة تقيدني إلى ظلي، هَذِهِ الحرب لي. لي وحدي. أنا الأمير والجيش وأنا العدة والعتاد. هَذَا السلاح لي. لي وحدي. أحارب به صور الماضي السحيق الَّذِي يريد أن يحتل حاضري في حملة استعمارية بغیضة. سمعت أحدهم يقول إنِّي منشغل بذاتي والحق إنِّي منشغل بالحرب ضد ذاكرتي. أنا خائف؟ ممَّاذا؟ لا أدري. شَيْءٌ فِي غاباتي المظلمة يتربص بي، وحش لم يروَّض مُنذُ قلق. مُنذُ غرقت في البحث عن ذاتي، أو كَمَا يحبون التعبير عن هَذَا البحث بالبحث عن الحقيقة المطلقة، ولكنني اكتشفت متأخرًا أَنَّهُ كان بحثًا عن الزمن الضائع. الزمن الضائع سيدي بروست هُوَ الماضي الَّذِي نحاول العثور عليه من جديد؛ لأننا لم نفعل فِيهِ مَا نريد. مَا أردنا حقًا في أعماقنا. الحل؟ أن نكف عن البحث حَتَّى لا يضيع هَذَا الحاضر ويصبح ماضيًا ضائعًا وننتيه من جديد، نحول الزمن إلى موسيقى كي نعيش، ونحول الحب إلى قَبْلِ كي نحیی الإنسان في أجسادنا، ونحول الصمت إلى سلام كي ننهي حربنا الأزلية ضد الألم، إنَّه جرح لا ينزف دمًا وَلَا يلتهب، بل يشتعل اشتعالًا وهميًا في مخيلتنا، ورغم ذَلِكَ فهذا الوهم رهيب سيدي فرويد. إنَّه مؤلم ومحزن ويسبب التواءات نفسية حادة لا يراها أحد، وَلَكِنَّهَا فِي نظرنا نتوءات نخفيها مَا أمكن ونحس بها، كالأحدب نعملها فوق ظهورنا ونمضي. نمضي في طرق مختلفة ونستعين بالرفقة وبالحياء على حياتنا ...

أجلس إلى حافة سرير الحاجة وأبكي.

أبكي خوفًا عليها من رحيل مفاجئ، أبكي خوفًا على نفسي، أبت هَذِهِ الدموع الَّتِي تخفقني إِلَّا أن تتسكب على سرير الحاجة وَهِيَ تحضن رأسي الأشقر بين صدرها وبديها المشتبكتين مع سبحتها، أحسست للحظة أَنِّي أبكي لسبب تعرفه هِيَ وأجهله أنا، وَكَانَتْ هادئة حَتَّى في مرضها ووجعها الَّذِي لا يسمعه أحد.

- أنت تعتقد أَنِّي أخاف من الموت؛ لِذَلِكَ تبكي، أنا لا أخاف مِنْهُ لأنني التقيته عدة مرات من قبل، هُوَ رَسُول من رب العالمين، هل ستكون حالي هُنَا أفضل من حالي قرب من خلقتي؟ لا تبك بني فقد فضلناك على جميع الخلق. إِلَّا عن رَسُول الله، أنت جوهرتي الَّتِي لم أهربها من الصحراء بل جاءت من السماء، أنت شبيه الشمس وشقيق النور.

- لا، أبكي فقط وَلَا أدري السبب، ربما شهور الغربة فوق الجبل جعلتني هَشًا وحساسًا. أعاتب نفسي أَنِّي لم أكن هُنَا حين سقطت أول مرة لأحملك بين ذراعي.

قاطعتي قائلة:

- أنا لم أسقط ولن أسقط، إنَّها كلمة لا تناسبني. الحاجة لا تسقط إنها واقفة كالشجرة. إياك أن تقولها مرة أخرى. لم أسقط في السنوات العجاف وأنا طفلة ولا في زمن الحرب والمجاعة ولا من ضربات الزمن وغدر النَّاس! فكيف أسقط وأنا في بيتي وجدرانه تحميني؟ وهل يسقط من يذكر الله في سره وعلايته؟ قاتل الله الجوع والمرض والبخل والشح.

واستسلمت لنوم لذيذ لم أنعم به من قرن أو يزيد، وأنا في حضن مملكة من الهدوء والصفاء الروحي، وقد رأيت فيما يرى النائم أنني أطير في حديقة غناء بها كل أنواع الأشجار والفواكه والكثير من الطواويس بألوانها الزاهية، غزلان وخيول وحيوانات كثيرة ترعى في سلام، والغمام يغطي السماء فلا الجو حار ولا بارد، وكنت شمسًا كما أخبرتني أمي.

بعد ساعات استيقظت فجأة وأنا على نفس الوضعية، نظرت في ملامح أمي لأجدها تغط في نوم عميق. اقتربت منها أكثر لأسمع تنفسها الصعب وأرى صعود وهبوط صدرها. قمت من مكاني وأنهيت نومي بغرفتي المشتركة مع أخي. ملابس في كل مكان وعشرات القبعات والأحزمة الجلدية وحقائب الظهر، وآلات رياضية منزلية، وفي الركن فراش لي أعده قبل نومه.

إنَّها العاشرة صباحًا، فتحت عيني بصعوبة على منظر أخي الذي يحاول نزع البوسترات عن جدار الغرفة ويجمع ملابسه في الدولاب، يحشرها حشرًا دون ترتيب. الحاجة لا تسمح للخادمة بمساعدته في تنظيف غرفته كي لا يعتاد على الدلال والفوضى. من لم يغسل رداءه ويطبخ أكله فموته أفضل من حياته. هذا هو شعارها.

ذهبنا معًا نزل عليها وهي في كامل بهائها وقد ارتدت ملابس جديدة، ووضعت حلًا فضية لأنها تعتقد دومًا أن ارتداء المعادن النفيسة يساعد في شفاء العظام.

- كيف حال الشنقيطية السمراء؟ قال أخي.

- كيف حال ملكة جمال الصحراء؟ قلتُ.

وابتسمت في خجلٍ فطريٍّ قبل أن نعانقها ونرتمي على سريرها الحديدي الكبير، ما أجمل هذا اليوم، بعد برهة دخلت أخواتي الكبيرات والتحقن بنا فوق السرير.

- الشنقيطية تلد الشقر ذكورًا وذكورًا والفتيات سمراوات. هذا الشعر يجب أن يكون لي.

قالتها فاطمة وهي تشدني من شعر مقدمة الرأس.

بعد ذلك دخل فريق من الأطفال الصغار، أبناءهن، وهم يتضحكون بسبب منظرنا على السرير ونحن مجتمعين حول الحاجة.

قضيت اليوم كله في البيت، بينَ حكايا أخواتي وأزواجهن، وحروبهن الصغيرة مع عائلات أزواجهن. مشاكل الأطفال والدراسة والحياة اليومية والساعات الإضافية، وفي المساء تقاجاً الجميع ونحن حول مائدة العشاء بالحاجة تسير على عكازها وتطل من باب غرفتها. كانت أصواتنا التي تنتهي إلى مسمعها ونحن نتضحك حافزاً لها لتقوم عن السرير وتأتي إلينا، زغردت فاطمة وهبت لمساعدتها على إكمال المسير إلى صحن الدار وهي تصرخ:

- الشنقيطية لا تسقط. تسقط الأسوار، تسقط المدينة، يسقط النظام، وتبقى الشنقيطية واقفة. الشنقيطية سليلة الصحراء وعمة الرمال وخالة الوديان.

أمي، السمراء، سليلة الشمس وسيدة القمر. حين ترتدي لحافها الأسود المزركش بخيوط الصوف الملونة وتكحل عينيها بالكحل المكي، وتتقط جبهتها بالحركوز تبدو أميرة. تصعد أحياناً إلى سطح البيت وهناك تجتمع حولها الحمائم التي تتناول حبوب القمح من يديها وهي مطمئنة. تنضاف إليها طيور الدوري المقدسة، إنها ضيوف الله التي لا تدخل إلا للبيوت التي فيها بركة. والبركة في عرف الشنقيطية لا يوجد لها مدخل معجمي. الويل لمن يطرد طائر الدوري من المنزل. يضع أعشاشه وبيضه في أمان، يدخل المطبخ وغرفة الحبوب وغرف النوم كأنه مالك البيت.

كنت أجلس إلى سريرها ولم أتوقع يوماً أن تجلس هي إلى سريرتي وتتطلع إلي بعينين ذابلتين وغارقتين في حزن قديم. أن أخاف عليها فهذا شيء، وأن أخاف على خوفها علي فهذا شيء أشدّ وقعاً. كيف لي أن أمنع عنها تلك النظرة العميقة الألم وهي تنظر إلى احتضاري. الأربعين من عمري. وكتل غريبة في جسدي. والألومنيوم والشاش والأنابيب والمحاليل التي تغلي بقربي. «لأنني إذا مت أحجل من دم أمي».

الفصل الثالث

- ١ -

لقد مرّ وقت طويل، انتقلت إلى مدرسة جديدة قرب مدينة تارودانت، وكنت أعود كل مساء للبيت. انتهى كابوس الجبل، ولكن ترسبات العام الأول ترسخت في الباطن وتشتغل في اللاوعي. ما زلت أخاف من الحشرات الزاحفة وأرتعب من الكلاب الضالة، كذلك فعل سمير، عاد ليشغل في بلدته الأصلية حيث ترعرع وكبر، عاد لحضن غرفته القديمة وبيته الجبلي. وقرر أن يتزوج، اتخذ قراراً بسيطاً جداً، في أوج علاقته بسيليا. سيليا كانت وردة، وردة برية نبتت في القرية، تبرق جمالاً وطيبة وبراعة. تحب المسلسلات المكسيكية والأفلام المصرية. طيلة سنتين استمر التراسل بيني وبين سمير، سواء عن طريق البريد العادي أو عن طريق الكارمايل. ولكن أغلبها يصلني عبر شاحنة القرية التي تحمل البضائع والناس يومياً تتراقص بين قريته ومدينتي، فكان من الممكن أن يبعث يومياً برسائله وأن أجيبه عنها أيضاً وأبعث بها عبر سائق الشاحنة مع بعض الدراهم مقابل الخدمة البريدية. كما أرسل له بعض الكتب والمجلات والجرائد اليومية والأشرطة الموسيقية الجديدة.

الذين لا يعرفون سمير لا يمكنهم استكناه ما في باطنه من خلال قسّمات وجهه؛ لأنه كان يبتسم في أحلك اللحظات، قلت له يوماً إنه يتقوى كلما اشتدت عليه وطأة الحياة، ويستصغر المصائب التي تجعل الناس عادة يفقدون أعصابهم، ولكنه في نفس الوقت يحتفظ بنظرة حزينة في عيونه الغارقة في بحار بعيدة دوماً؛ ذلك لأنه يسبح خارج الزمن داخل الأماكن المفارقة للأرض، ربما قرب غيمة أو تحت جناح طائر الدوري وهو يخلق مشكلاً دوائر وهمية في الفضاء. بحثه كان دائماً عن الجمل الموسيقية المنسجمة والكلمات المعبرة، سمير، سمير يسران، لم يكن أبداً عبداً للمادة ولا للمال ولا للأشياء والممتلكات، كان رجلاً استثنائياً في اختياراته الجمالية، وحين أحبها، أحبها بصدق، يعتقد أنها المرأة الوحيدة التي يمكنه أن يتزوجها دون صراع مع الأسئلة المرهقة عن التجمعات البشرية وفلسفة الزواج ودور الجنس. كل هذا لا يهمه، تهمة فقط سيليا، اختزلت حتى الآن كل النساء؛ لأنه ترك كل النساء من أجلها.

تزوجا في احتفال عائلي كبير، فعائلة يسران لا يمكن أن تسمح له بحفل بسيط لا يتماشى مع مكانتها وتاريخها، وكان كل البذخ الذي عرفه العرس في سبيل العائلة والقبيلة.

يخبر سمير سيليا دوماً أنه فعل ذلك من أجلها، وهذا ما يحس به فعلاً، قال إنها تستحق عرساً كبيراً، بما أنها الطريقة الوحيدة التي يفهمها الآخرون فقد كان كريماً معها ليفهم الجميع أنه يحبها وأنها ستكون سيدة بيته وسيدة حياته، أحب فيها بساطتها وحيويتها، أحب فيها بدويتها وعفويتها وتحدى الجميع من أجلها؛ لأن هناك دائماً فرقة ما تعارض زواجاً ما. عارضوا كونها فتاة صغيرة السن، كونها شبه أمية، لا تتقن فك الحروف، مستواها الدراسي لا يتعدى الابتدائي، وعارضوا أشياء أخرى كثيرة وتافهة جداً، تحداهم جميعاً ليبرهن لهم أنه يحبها.

راسلني حينها قائلاً:

«أخي العزيز سولال ...

أُحِبُّهَا وسأُتزوجها، لقد اتخذت قرارٍ بعيداً عن العاطفة والقلب، فكرت في الموضوع وعرفت أن كل الظروف والإشارات والأحداث تقول لي تزوجها، هي فتاة يافعة وأنا شاب ناضج بما فيه الكفاية ليقرر، فقررت أنني أحبها وسأُتزوج بها فأرجو أن توافقتي الأمر، أيها الأخ الأكبر، إنهُ قرار بسيط جداً، تطلب مني وقتاً قصيراً لأتخذه، فالحب مصبه زواج وأسرة، ربما صنعت لنفسك محمية ضد الزواج لكني لا أوافقك، ولم أوافق أبداً على طريقتك في ترك بياض الثلج. كَانَتْ هفوة كبيرة منك. لن تجد امرأة تحبك كما فعلت هي، لن تعيد الزمن إلى الوراء لتجعل أخطاءك تُمحي، صدقتي لا أريد أن أرتكب نفس هفواتك، والحب حالة لا تتكرر، حالة عصيان تثبت الحكم من جديد، فأرجو أن توافقتي أيها الأخ الأكبر».

سمير يسران

صديقك الوفي

لستُ الأخ الأكبر، الأخ الأكبر كائن وهمي خلقناه وملأناه بقيم ومعايير متعددة، نستشيرها كلما انعطفنا في دروب الحياة المتعرجة. الأخ الأكبر ذكرى حزينة أخرى مرتبة وفق قانون الزمن، صفصافة من الوهم الثنائي المستكين للقبيلة. تشكلت هيئة الأخ الأكبر في تمفصل غريب بيني وبين سمير، كان يراني الأخ الأكبر وكنت أراه كذلك، شيئاً فشيئاً استقلت شخصية الأخ الأكبر عنا معاً، فأصبحت هيئة محملة بأطر في التفكير وسبل في اتخاذ القرارات، والذي يحدث هو أننا حين نستشيرها نفكر معاً، ونقول إن هذا القرار أو ذاك لن يرضي الأخ الأكبر الذي ليس هو أنا ولا سمير، إنهُ الوجود الروحي لما هو مشترك بيننا من معايير ثابتة لا نريد أن نزيغ عنها، حين بدأ الأخ الأكبر يتحكم بنا معاً أو حين يستغل أحدنا وجوده الافتراضي ليصنع لنفسه ملجأ ضد الآخر، وحين بدأ سمير يستكين لوجود شخصية وهمية يمكنها أن تعمل عمل الأنا الأعلى حملنا المعول وكسرنا صنم الأخ الأكبر، هدمناه بمطارق التمرد، وكسرنا شوكته بعد أن خلقناه وزيناه بالمثل العليا، والحقيقة أنني مللت طريقة سمير في ملء هذا الوهم بانتمائه القبلي الضيق. الأخ الأكبر ليس قبيلة «هركيئة» بكل ثقلها التاريخي وليس معيار جودة القرارات، ولا معيار رقي الأفكار؛ لذلك كنت السباق لكسر هيمنته.

انتهينا من الأخ الأكبر ولكننا لم نحطمه تماماً، الأصنام توجد في دواخلنا، وهي لا تهدم بسرعة، تحتاج براكين من الصمت. كان للوهم مكانة كبيرة بيننا. نعيش في مجالها ونستكين لها، وللحرية مكان أوسع، إن إحساساً صغيراً بأن حريتنا تنتهك يجعلنا ننتفض. يا ليت هذا الشعب كان مثلنا، وما ينتهك حريتنا الفردية آنذاك شيء بسيط جداً أيضاً. مجرد تكرار نصيحة أخوية أزيد من مرتين يعد انتهاكاً جسيماً للحرية، والأخ الأكبر لا ينفك يردد وعظه المقيت في كل مناسبة لذلك هدمناه. حدث

يومًا أن طلبت من سمير أن يكتب باللون الأسود بدل الأزرق، فكسر كل الأقلام السوداء وبدأ يكتب بالقلم الأحمر والأخضر.

حين يتخذ سمير قرارًا لا يمكن أن يتراجع عنه، سيجعل كل أدلة الكون تميل لصالح قراره، حتى إذا اصطدم نجم بنجم سيعد ذلك إشارة تدعم قراره الكوني؛ لذلك لا يوجد مجال كبير لمناقشه ولا لإعادة بناء استدلاله المنطقي جدًّا. والأخ الأكبر هنا سيستسلم لرغباتنا لأنه لا يقف عادة أمام اندفاعنا، ويقدم النصيحة ويعود للوراء، يفضل أن يتسكع في انتظار أن تنتهي الأمور ليقول إحدى عباراته الشهيرة، رأيتم، ألم أقل لكم، ألم أحذركم ...

مأخوذًا بأنفة غريبة، بتاريخ قبيلته دون أن يشعر بذلك، يتحمس لكل ما هو مشترك، الجينات دساسة، تجمع الوعي الجماعي للقبيلة وتبته في تصرفات الأشخاص، تبته في لا وعيهم، فتجدهم يتصرفون بعنصرية وبدوية تقليدية رغم ثقافتهم ومستواهم المعرفي المدرسي. لم يسمح للجميع بالرقص في حلبة الرقص، بل احتلها هو والعروس وبعض المقربين من العائلة من الجهتين، من نفس الجهة فهو قد تزوج من عرقه وبنات عمومته، الشيء الذي جعل جده لأبيه يفخر به ويراه حاملًا لمشعل العائلة أنه اختار فتاة من صلبهم.

العرق دساس، يدس المعتقدات عبر شرايين الذاكرة الاستعمالية دون إذن صاحبها، قلت له إن الأمر يبدو مزعجًا، لكنه لم ينتبه إلى كلامي، كان سيد الحفل وثقل النظرات على جسده وحضوره كان مبهراً لدرجة أنه لم ينتبه، بدا فارسًا يحمل الخنجر المعلق إلى جذعه بأشرطة حمراء وسوداء، ويرتدي لباس القبيلة كأنه يستعد لخوض معركة لاسترجاع أرض مغتصبة، يعنلي صهوة جواد أبيض، يرتدي لباس الاحتفالات الأبيض، جلبابًا أبيض مخططًا بالذهبي وسلهامًا أبيض، عرفت حينها أن نقاشاتنا قرب الساقية وكل رسائلنا حول الآخر والغير وتحليلاتنا للمجتمع وسبل الانعتاق من قبضته وقبضة الأسرة كانت محض أدب وتسلية. شعرت بإحباط صغير حينها ولكني نسيت الأمر، فمهما يكن فللتقاليد مكانة خصوصًا في احتفالات العبور. وحدها المورثات الاجتماعية تنظم هذه الطقوس التي ما زالت حتى الآن تبدو لي غريبة وبدائية، خصوصًا أساليب الرقص في هذه الجبال، فالحركات بسيطة جدًّا ولا تتم عن عبقرية فنية أو جمالية. تتكرر في رتابة مملّة خصوصًا أنني لا أفهم الكثير من المواويل التي تلقى باللغة الأمازيغية في مثل هذه المناسبات.

كان فرحه شديدًا، أنساه أن الأفكار لا تموت يوم الزفاف. وماتت أفكاره التي كانت صلبة حين بنيناها معًا. شعرت ببعض الإحباط ولكن فرحتي به غطت على الكثير من التناقضات التي بدأت ألاحظها في شخصيته.

لم أعرف سر فرحه إلا حين حكى لي قصة الوزيرات المنتظرات قرب غرفته، ونجاح عملية الهدم بعد العصر، تم الاحتفال الجماعي بالدم والشرف، الجميع يحتفل ويرقص إلا العروس التي يبدو عليها الإنهاك والتعب بعد أن فقدت عضوًا من أعضاء جسدها. كان الأمر محيرًا بالنسبة لي، ربما لأنني بالغت في مشاهدة الأفلام الأمريكية أو أنها الأفلام الإيطالية. المهم أنني بالغت في التشبع

بطقوس أخرى لا تحتقي بالدم بقدر ما تحتقي بالرباط المقدس، ورقصوا على المنصة رقصاً أمازيغياً رشيقيًا وسهلاً.

أن ترقص يعني أن تحس فرحًا داخليًا يتحرك له جسدك، لكن ليس أمام جمع غفير من الناس، من المدعويين الغرباء، فالأمر يتحول إلى استعراض فج للفرح الداخلي.

أكره طقوس الظهور.

- هل تعتقد أن رجولتك تحققت أمام الجميع؟

قلت له حين جلسنا معًا إلى مائدة تحتوي براد شاي وبعض الكعك والفواكه الجافة، وأجابني دون أن يكثرت لعمق السؤال ولأن لبرتي الاستقزازية التي طرحته بها:

- المهم أن الأمور سارت على ما يرام.

كان أمرًا واحدًا، هو هدم جدار بكرة رخوة؛ لذلك بقيت على لهجتي الاستقزازية نفسها علني أجد منه تحليلًا أعمق للطقس الذي انخرط فيه بكل هذا الاهتمام:

- الأمور لا تستحق كل هذا الضجيج من أصلها. قلت له.

- هنا لا، أنت لا تفهم ذلك لأنك ابن المدينة. ستتبعك لعنتهم ونميتهم طوال حياتك.

- وهل تنوي البقاء هنا؟

- نعم هؤلاء أهلي وعشيرتي.

- تمامًا، الأمر واضح من خلال الرقصة الجماعية، كانت استعراضًا لمكانة العائلة أكثر مما كانت فرحًا شخصيًا.

- هكذا تحدث الأمور هنا. لكل منطقة تقاليد في الزواج، هنا نحتفل بهذا الشكل، بعد العصر نحضر العروس ونقدمها للعريس المعتكف في غرفة نومه ليقوم بواجبه.

هنا، هنا، هذا الارتباط الغريب بالـ «هنا» شكّل لي عائقًا، ماذا لو كان سمير في مكان آخر غير بلدته المعلقة في قمة جبال الأطلس، هل ستتغير مواقفه، هل ستذوب تلك الـ «نحن» لتعوضها الذات الفردية التي لا تحتاج كل هذه التعقيدات. الزواج علاقة تعقيد أصلاً، إنها تجعل المرء يصلي في محراب الجماعة، ويمارس الجنس تحت رقابة القبيلة.

- تصور لو خبت تلك الرغبة الحميمة في تلك اللحظات، هل كان سيفقد رجولته طوال حياته؟

- أنت لا تفهم ذلك .

- أكيد لا أفهم، كيف يمكن للقبيلة أن تجعل عضوك ينتصب في وقت معين ليقوم بعملية الهدم الخطيرة.

شعرت حين عبرت عن رأيي بهذه الحدة أنني بالغت كثيرًا وأن الوقت ليس مناسبًا للتعاطي التأملي مع سمير، وهو ليس غيبًا ليستمر في نقاش عميق ليلة عرسه.

- أنت تسخر من كل شيء يتعلق بالتقاليد.

- أنا لا أسخر من فصول الاحتفال الخاصة بكل شعبٍ من الشعوب، ولكنني أستغرب كيف تصبح الحميمية قضية جمعية.

- ما يشفع لي أنني أحبها، وقد فعل أي شيء من أجلها، أ رضي القبيلة كلها من أجلها حتى لو سرت ضد أفكارى.

- إن كان هذا فذاك، وإلا فأنت تساق كما تساق كل هذه الخراف. ومهندسات الجنس في القرية يتحكمن في كل شيء. حتى في توقيت هدم البكارة.

قاطعني قبل أن أكمل فكرتي البسيطة قائلاً:

- سولال، ما زلت مريضًا بالتحليل والنمذجة والترتيب، متى ستكف عن دور السوسيوولوجي البانس، عليك فقط أن تنتظر إلى الإنسان كإنسان لا كفرد قابل للتصنيف والقياس، ستفشل حتمًا في إحاطة الحياة بنظرياتك، فتصرفات البشر آخر ما يمكنك أن تتوقعه.

انزعج سمير بسرعة لأنه كان منهكًا بتحضيرات العرس والعدد الكبير من الضيوف الذين حضروا من الدواوير والقبائل المجاورة. غيرت الحديث ليناسب المقام، وشعرت بذنب صغير يشوش عليّ وجودي لأنني بالغت في محاورته كأني أحقق معه في قضية خيانة ضُبطَ فيها متلبسًا بالتتكر لأفكارنا.

- هل تحبها؟

- نعم. كثيرًا يا صديقي، ستصبح أميرة معي، وسأكون أميرها الأزلي، وسنلد ثمرات حب ناضجة وطيبة، وسأبقى في هذه القرية طوال حياتي، قد يبدو لك الأمر صعبًا، لكن عليك أن تدرك أني ابن هذا البلد. وسأبقى فيه حتى أموت، ولكنني سأحقق أشياء كثيرة، سأكون موسيقيًا مشهورًا وسأخرج لغتنا إلى العالم، سترى، هي ستساعدني بالدفء والاستقرار لأبدع أكثر، أليس الأمر أسطوريًا؟

- بلى، إنه أكثر من ذلك. قلت له وأنا سارح مرة أخرى في ما هو أبعد من النجوم.

وقلت في نفسي، الأمر أسطوري فعلاً، أن تبقى في هذا القفر من الأرض لدواعي قبيلة ولغوية أمر أسطوري، هذا مفروغ منه، مكان يؤسّر كل شيء بل ويهسّره خصوصاً حين يتعلق الأمر بالجسد، هل كنت سأحدث مثله لو تزوجت بياض الثلج في ذلك الوقت، فكرة الزواج خندق من الطين والخشب لكن الذي تخندق فيه يراه فقط من الداخل، يرى البلور والكوارتز الذي يشع ويملأ المكان بالدفء والإبداع والتحدي المفرط لدرجة الشهرة والعالمية والمسألة اللغوية. رغم سخريتي السطحية أو ربما بسببها أحسست بوخز الضمير، لماذا جعلت من حدث بسيط كعرس صديقي بؤرة للتفلسف الجانبي؟ لماذا أسخر من اختيارات الآخرين؟ من الممكن جداً أن تكون صحيحة فالأخ الأكبر انقطع عن بث معايير داخلنا، هل أغار من سمير؟ أي وحش ساكون لو ثبت لي أنّها غيرة أو ربما ذلك الإحساس بالفقد الذي ينتاب الصديق حين يتزوج صديقه ويتركه في دنيا عزوبيته.

في صباح اليوم التالي، بعد العرس مباشرة عدت إلى المدينة، نزلت في محطة باب الخميس، محطة للنقل المزوج، وحين أقول محطة فأعني بها في هذه المدينة المهمشة في الجنوب المغربي قارة طريق تتجمع فيها وسائل النقل المرخصة وغير المرخصة، فالجبال التي تحيط بتارودانت لا توفر لها الدولة وسائل نقل ولا طرق، كأنها لا تنتمي لهذا الوطن النازف، هناك شاحنات لنقل البضائع والأشخاص في نفس الوقت، بعضهم فوق بعض، ولا تلتزم بعدد معين ما دام المحرك قادراً على دفع العربة فالأمور بخير وعلى خير، يتم نقل الإسمنت إلى جانب الخضر، مواد البناء والصبغة والقذور والكراسي، الأكياس البلاستيكية والأطفال والنساء، الملابس والشتلات، كل شيء فوق بعضه، وترى الشاحنة تشق طريقها بين الجبال كأنها سفينة نوح، تحمل من كل شيء زوجين.

دخلت عبر الباب الكبير للمدينة، وكانت تنتظرنني هناك. إنها راغدة.

لماذا ارتدت هذه التنورة القاسية؟ وحذاؤها الجلدي الشتوي يصعد إلى حدود ركبتيها، لماذا ارتدت الأسود؟ لماذا قصدت أن تقتلني رمياً بالجمال؟

احتضنتها بقوة وتمنيت لو أن الجو كان صيفاً كي ألصق بها أكثر، فمعطفها كان يمنعني من ملامسة جسدها، يحضنها بقوة ويمنع عني لمسها. «العالم قبيح جداً بدون نساء» كما قال الشاعر التونسي العربي السكوشي، العالم قبيح جداً بدونك، صديقي.

- أصدقك أيها المعتوه، هيا ابتعد عني، لست حبيبك، سأضربك بحقيقتي، ابتعد. وأخبرني كيف حال سمير وسيليا؟

- إنه بخير، يعزف ويكتب، ويحرق، وسيليا في مملكة الهدوء، سيدة أنيقة وجميلة.

يبدو أنّها انتبهت لكل ما قلت إلا كلمة يحرق، هناك آذان خلقت لتسمع الأشياء الجميلة فقط، ربما لأنها مرتبطة بقلوب عامرة بالأشياء الجميلة فقط، تبا للحنن في حضورها، تبا للاحتراق والمحرقه والهولوكوست والموت والحنين، تبا لكل شيء مقيت يعكر صفو السماء، تبا لي أيضاً وللأسوار والأبواب. سألتها حين لمحت كتاباً جديداً تحضنه بدلاً عني:

- ماذا تحملين بينَ يديكِ؟

- كتاب «حين يؤذي الجمال: دراسة في ديكتاتورية الجمال» للصحافية الأمريكية ناومي وولف ***** قَالَتْ وَهِيَ ترفع نحوي غلاف الكتاب لأراه بوضوح. ولكني كنت مغمض البصيرة، لا أدري ما يحدث لي وَقَدْ أمضيت الليلة في ملاحظة طقوس عبور سمير من كائن وحيد الخلية إلى كائن اجتماعي. السهر يفعل فعلته بي ربما، أو ربما دوختني بحذائها الجلدي الذي لم يكن عليه الصعود إلى أعلى ركبتيها وملامسة فخذيها بتلك الخفة. فقلت لَهَا بَيْنَ الجد والمزاح:

- نعم جمالكِ ديكتاتورية متسلطة على قلبي وعقلي ...

- ربما ... لكني قلت لَكَ لست حبيبتك.

تقولها وتضحك ويعلوها خجل خفيف، ما الخجل إلا بوردرة حلوة ترصع وجهها، إنها إنسانة قوية وَلَكِنَّهَا خجولة لا يتركها الخجل إلا وهي مرصعة به.

وتسألني مرة أخرى عن سمير.

- كيف مر العرس؟ وكيف كَانَتِ العروس؟

- عرس ضخم والعروس كَانَتِ ملكة جمال الكون فهو يومها كما يقولون.

- وسمير كيف كان؟

- كان وسيماً، وخائفاً.

- خائفاً؟

- نعم، خائفاً لأنه سيقنحم العقبة. أقولها وأضحك ملء جوفي.

ولكن راغدة كَانَتِ شبه غاضبة. لم أفهم غضبها. قَالَتْ إِنَّهَا تمنّت لو دعاها لعرسه لترقص طوال الليل كالمجنونة حَتَّى تنهد عظامها. قالتها بتوتر مبالغ فيه.

تمشينا قليلاً، قرب الأسوار بعد أن خرجنا من حارة سيدي العربي، جلسنا في مقهى فرنسا المقابل لمبنى البلدية، احتسنا قهوة بالكريما، كَانَتِ تحبها بالكريما، وكنت أحب ما تحبه هي، بعد ساعة افترقنا؛ لأنني كنت متعباً من رحلتي إلى الجبال. استقبلتني بالمدينة كما يستقبل الضيف في البيت. أن يكون هناك شخص ينتظرك في المحطة يعني أن حياة تنتظرك.

- دعيني أقبلك راغدة.

- ابتعد عني أيها الغبي، تزوج لنرتاح منك ومن شغبك. ألا تفكر في شيء آخر غير القبل والسرير والجنس.

- يا لك من بخيلة.

- وضحكنا كما لم نضحك من قبل بعد أن زال توترها الحاد الذي لا مبرر له.

راغدة امرأة متوسطة الجمال لكنّها رشيقة وتضع ماكياجاً يزيدُها اشتهاً. تضعه بدقة كأنها عارضة أزياء وتحسن المشي والتحرك والأكل والشرب والحوار. إنّها نموذجية في كل شيء إلا توترها الحاد الذي ينتابها كل مرة ودون سبب واضح. تقرأ بنهم في كل المجالات. تحب تدريس اللغات على الخصوص، وتحلم بأن تكون لها مدرسة خاصة لتدرس بها برامجها الخاصة بعيداً عن مقررات الدولة التي لا تسمن ولا تغني من جهل.

لقد مر وقت طويل فعلاً، ربما بسبب تأملي المستمر ومرضي المزمّن بالتمادي في النظر نحو الفراغ.

حين انتقلت إلى المدينة فكرت ملياً بالأ جدوى من العيش ببيت العائلة، وبحثت عن ألف طريقة لأفعل ذلك دون أن أجد إحساس الحاجة.

وأخي الصغير، الأسمر الذي بدأ يدرس المطاعم في معهد متخصص، ويقطع السوق طويلاً وعرضاً بحثاً بين دكاكين العطارين والعشابين، بحثاً عن النكهات المفقودة التي لا يجد كلمات لوصفها. لقد أصبح مهووساً بكل ما يخزن بطريقة طبيعية، كل ما يصبر في قناني الزجاج، فأصبحت غرفته خزانة كبيرة للمصبرات والخضر اليابسة. لا يستعمل في تجفيفها سوى الملح والشمس والخل البلدي الذي يصنعه من التفاح والتين. لقد كبر بسرعة ورمى هم الأسئلة جانباً وانخرط في سؤاله الكبير عن شهوة البطن.

واستفاد من خبرة الشنقراطية في ذلك، علمته الكثير من أسرار التقشف والتصبير، وآخر درس كان عن تجفيف الطماطم وتصبيرها مع زيت الزيتون. عرضها فوق السطح تحت أشعة الشمس وقيل أن تجف تماماً ملحها جيداً ورتبته في برطمان وسكب عليها زيت زيتون وأغلقها بإحكام. كرر الأمر حتى نفذت الطماطم من البيت.

- السنة المقبلة لن نحتاج إلى الطماطم؟ قال بفخر.

- لكننا نحتاجها اليوم أيها الحاذق.

- اليوم سنتناول الجزر الذي خللته الشهر الماضي.

- يعني أننا سنتأخر دوماً شهراً أو سنة لنتناول الخضر؟
- أنت لا تفهم ذلك، إنها طبيعية، لم تفقد غير الماء، الألياف كما هي والفيتامينات وكل شيء نزيل منها الماء فقط ونحتفظ بها بعيداً عن الميكروبات.
- أعذك غداً سأفتح كلَّ القناني وأتذوق منها لأعطيك رأيي.
- أيها الأحمق لا تفعل ذلك. ستفسد كلَّ عملي. يجب أن تبقى مغلقة إلى حين استخدامها، أرجوك لا تفتحها.
- هل تتدرب على حمل الأثقال؟
- نعم، ما رأيك بعضلاتي؟
- أفتخر بك. لا تقل لي إنك تتناول بروتينات صناعية.
- لا، أنا أحفظ كلَّ مصادر البروتين الطبيعي.
- إياك أن تستعمل إبر الهرمونات وإلا انكشمت أعضاؤك. قلت مازحاً.
- لا أحتاجها، أنا أنتج الكثير من التيستوستيرون. اهتم بنفسك فقط، فأنت تبدو كالقادم من حرب استنزاف جنسية. من يدري أي حياة تعيش في تلك العلبة التي تسميها بيتاً. أخبرني أخي، هل أسأت التصرف معك؟
- لا. أنا أحبك حتى بتصرفاتك السيئة. لا تقلق عليّ. صدقني لديّ مزاج خاص، خاص جداً. أريد البقاء وحدي أطول مدة ممكنة.
- آه، فهمت، أنت من الأشخاص الذين نسميهم معقدين.
- أتدري أنني قد أجمع أنفك وفمك وخذك في ضربة واحدة موجعة جداً؛ لتعرف من نسميهم معقدين. لولا أنك ستهرب لحضن أمك كالعادة.
- طبعاً، أتدري أن أبي لم يعد يحضني كثيراً، يعنقد أنني كبرت ولا أحتاج دلالاً كالفتيات.
- هل يؤلمك الأمر؟
- لا، لكنني أحب أن أحضنه أنا أيضاً.

- أيها الشقي. تعال لأعانقك.

أتذكر جيداً يوم عدت من قرية سمير بعد العرس.

دخلت البيت لأستريح من تعب ينخني من الداخل، يشق طرقاً ملتوية إلى جسدي، وأنا أعلم علم اليقين أن التعب في الروح لا في الجسد، وقصدت أن أستحم بماء أقرب إلى البرودة منه إلى الدفء، وأشرب منوماً من مركبات مختلفة، البوتاسيوم والمغنيزيم وخليط من الفيتامينات، أردت نوماً عميقاً دون تقلبات على السرير، أردت نوماً عميقاً، عميقاً دون أحلام. فحتى الأحلام تحتاج جهداً ولم أعد أملك من الجهد ما يكفي لأحلم وقد استنفذت كل خيالي في طريق العودة من الجبل. كنت أحاور ذهني وأنا محنط قرب سائق الشاحنة الذي بدوت له كأننا من عطارذ يطارد سحب الأفكار ويقلب هاتفه النقال كي يقرأ رسالة لم تصل بعد، رسالة ستصل بعد قليل، رسالة لن تصل أبداً.

تمططت على السرير فتذكرتها، اليوم سقط المطر حين التقينا، راغدة، إنه الحب، فالحب يهبط من السماء، لا يمكن إلا أن يكون حباً، إنها ليست الشخص العادي الذي يمكن أن تلتقيه وتمر دون أن تحس بسعة ما في قلبه من سلام. إنها ليست الصديقة التي قد تسلم عليها بحرارة فقط لأنها أنت لاستقبالك في المحطة وأنت عائد من سفر، هناك شيء غريب يحدث كلما رأيته، وقد يسري لوقت طويل في كياني ويجعلني أسرح. أغيب. ربما بريق عينيها يعلن أكثر من قصة حب روتينية، ونحن نعبّر الشارع تحت المطر، راودتني الجرأة لأسأل نفسي أمامها، أمام عينيها، وأطرح السؤال في منفاي الداخلي على كائن يسكنني، أسأل نفسي في حضورها: ما الجذاب فيها اليوم بالذات؟ هل أحببت تنورتها الصوفية الداكنة أم حذاءها الجلدي الأسود؟ أم عينيها اللوزيتين؟ هل أحببتها اليوم أكثر من ذي قبل؟ لكن سرحت وكان خطأ كبيراً أنني سرحت في حضورها فقد بدوت غائبة عن المكان. أمر أزعجها وأزعجني قبلها. وتوترت، واحتجت معها سبعين نكتة لتعود لطبيعتها.

لا أستطيع التوقف عن التفكير فيها الآن، سألتني عن سمير، يعجبها سمير في حضوره المستفز، تسألني عنه دوماً، قلت لها إن شخصيته بدأت تحيرني، وأني لم أكن مرتاحاً طيلة الثلاثة أيام التي قضيتها معه؛ لأنه كان ينشئ عالمه بعيداً عني. هي لم تفهم كل ما قلته، وأنا لم أحاول شرح كل شيء. وسرحت من جديد في حضورها. فتوترت.

والآن النعاس يغالبني، أتمنى أن تكون تلك العيون لي، أن تبقى تلك العيون البنية براقعة من أجلي، أنا الذي لم تكن لي عيون كهذه من قبل، لي وحدي. والنوم يغتالني أذكره أنني لا أريد أحلاماً، لا أريد أحلاماً، أريد أن أنام فقط.

غالباً ما أستيقظ بعد نوم طويل أجمع فيه المساء بالليل بجزء من الصباح كما حدث اليوم. العاشرة إلا ربع وجسدي مثقل بالنوم، وماء دافئ في الدوش، وبيتي الفارغ الذي اكتريته لأكون فيه وحدي، فأنت تكون في مثل هذا العمر بدخل قار ومحدود ولكنك كافٍ أمر يجعل مكوناتك في بيت والديك محرراً

جدًا، رغم أن الإحراج كان كبيرًا لهما، فلا معنى لكرام بيت لعازب في نظر أمي، أما أبي فقد كان يبارك كل خطواتي في اتجاه الحرية، وكان شرط أمي أن أزورها يوميًا ما دمت في المدينة، فقبلت الشرط وأصبحت في حالة إطلاق سراح مؤقت أوقع حضوري بزيارة للدَّار. أهل الدَّار يحبونك بعمق اجتماعي أكثر مما هو نفسي وعاطفي، أهل الدَّار يخنفون الحرية بين يديهم باهتمامهم المبالغ فيه، ما زلتُ مراهقًا في داخلي، لم أنه بعد فصول الاستقلال الذاتي، أنا لن أنهي فصول الاستقلال أبدًا، الأمر واضح منذ أول ليلة قضيتها بالبيت الجديد؛ حيث انهالت عليَّ المشاعر المحسوبة على الحنين، وازداد الأرق شراسة.

ارتحت كثيرًا في بيتي الصغير رغم نوبات الخوف التي تجتاحني أحيانًا، قبل النوم مباشرة، الخوف الذي لا مبرر له. سيحدث شيء بمجرد أن أغلق عيني، وقد يحدث في مخيلتي فقط، لا يحدث شيء ولكنهُ خوف مزمن جميل يرافقتني، حين يشتد وأكون متعبًا ونصف نائم، تتصارع أفكار غريبة في ذهني، غير مرتبة، هي ليست أفكارًا تامة، لا يمكن حتى أن نسميها أفكارًا، إنها أنصاف وأرباع أفكار، صور منشطرة تتقاذف لتستحوذ عليَّ، وأنا أجاهد لأتبع واحدة منها دون جدوى، أتتبع فكرة مهما كانت غبية لأهدأ ولا أهدأ، فأفتح عيوني وأشعل النور من جديد، وأجلس على طرف السرير في صمتٍ حزين.

أيتها الأفكار المنشطرة ابتعدي عن مجالي، أيتها السيالات العصبية المشردة والضائعة اتخذني لنفسك مكانًا محترمًا في ذهني، فرقصك الموجه يسبب لي التهابًا نفسيًا حادًا في مثل هذه اللحظات.

أحيانًا أجلس وأحاول كتابة هذه الأفكار فأشعر بالسخرية، إنها فلاشات كالضوء غير قابلة للانكتاب، أتناول موزتين كبيرتين وكأس حليب وأعود للنوم، فأنام حقًا وأترك جمجمتي ساحة حرب ولا أبالي؛ لأنني تعبت من ملاحقة أفكار بائسة وجمل مبتورة وصور باهتة، أنام والمعارك في ذهني تختلط بأحلامي النادرة، كوابيسي، فلا أنا بالمدعور الخائف ولا أنا بالمطمئن الهادئ، لا أنا بالنائم ولا أنا بالمستيقظ، إنه أنا بكل هذه التناقضات والحيرة والألم.

يقولون إن النوم يحل المشاكل، الأمر ليس كذلك، فإن تنام مجرد تأخير للحلول، قهر للمشاكل بالتأجيل والانتظار إلى الغد ومن استطاع أن ينام فقد قهر مشاكله ونام. إنه نفس المضمار، أنا أركض بوتيرة مختلفة كل مائة متر وأعود لنقطة الانطلاق من جديد.

لماذا أقطن بيتًا صغيرًا وحدي؟ أنا المرتعب كل مساء بحصة خوف قبل النوم، أنا الذي جفت مقلتي من الرهبة التي تشتد قبل كل غفوة، ذلك البيت الكبير الذي يأويني لا أستطيع القبول بقوانينه، بيت العائلة، الحاج والحاجة والخادمتين والعمات والخالات، إنه أكبر بكثير من أن أحمله، أنا عكس سمير، الذي ألف العيش في مجموعة أسرية تقليدية حيث عدد الأفراد يفوق العشرة والعشرين دون احتساب الأطفال، يصنع عالمًا وسطهم دون أن يشاركهم، حين صنعت عالمي بينهم بدوت كإحاصة في صندوق العنب، انعزالي كان مثار استغراب الجميع. أنا الآن في بيت صغير مؤثث بذوق رفيع، رفيع كخيطة صنارة. لا شيء زائد. كل شيء في مكانه، وكل مكان يحتوي الشيء المناسب له. إلا

السريـر فهو لشخصين وأنفرد به وحدي، بوسائد كثيرة فوقه، لأنني أغير الوسادة أكثر من أربع مرات في اليوم، وأنا أبحث عن نقطة النوم. هذه النقطة التي لا أعرف كيف أمسكها والتي يصـر الطبيب على أنها علاج الأرق الوحيد، يقول لي أن أمسك نقطة في داخلي تضبط رغبتـي في النوم، هو يفهم تمامًا أنها رغبة وأنا فقدت الرغبة في النوم منذُ زمن طويل. وحين أردت استعادتها وجدت أن للنوم رغبات أيضًا وأنه لا يرغب في.

أجابه الأرق أحيانًا بالسهر المتعمد، لعبة الغمضة، أقول في نفسي: «أنا الذي لا يحب النوم» أو «أنا الذي أعشق السهر فلم الشكوى» ولكني لا أشكـي من الأرق، لا أحد يعرف عن هواجسي وأرقي غيري ووساداتي الحزينات مثلي.

إن لحظات ما قبل النوم -خصوصًا إن كان متمرّدًا لا يقبل الانصياع- تجعلك تبالغ في كل شيء وصدقتك التي جاءت لتستقبلك في تلك المحطة البائسة جعلتها حبيبـتك الجديدة، الوحيدة، وتملكتها دون تاريخ عشق وحاولت جعل عينيها مملكة تيهك وجلعت لشعرها جبروت الهذيان. أنت تصنع في بضع دقائق سنوات من الهيام. الحقيقة إنك لم تصارحها ولن تصارحها هي التي تسأل عن سـمير أكثر مما تسأل عنك. أنت لا تحبها أصلًا.

أبقى في البيت طيلة ما بعد الظهر، أتمشى بين الغرفتين والصالون ولا رغبة لي بالخروج، البيت يجعلك تستجمع قفة كبيرة من الطاقة والراحة لا ترغب في استهلاكها بالخروج لعالم الشمس. لا أريد الخروج والمغامرة بما تبقى لي من أعصاب هشة، إنه يوم للكسل، للسريـر بوساداته الكثيرة، للاستحمام والتعري، للتمطط والقراءة. للمكالمات الهاتفية الطويلة، إنه يوم للصدقات فقط، للأصوات الأنثوية الرقيقة، صديقتي الكثيرات اللواتي لا يعلمن عني إلا صورتي الفيسبوكية، أي عالم هذا الذي نحيا فيه. هن يجعلنه محتملاً قابلاً للتحقق، وأنا الخبير في التشكيك بكل صداقة وتحويلها لقصة حب ممكنة، تجعل الأنثى تربط حبلاً متيناً اتجاهاً وتجعلني على مسافة أمان، بمقدوري الإقدام أو التراجع في الوقت المناسب.

أضع سماعات مغلقة بالإسفنـج كي لا تتأذى أذناي وأربطها بالهاتف وأتصل عبر تطبيقات رخيصة تمنحك مجالاً واسعاً للحديث المطول بتكلفة منخفضة، كذلك نسوة الافتراضي يغردن في أذنك دون تعويضات عاطفية. وأنت في جميع الحالات تخرج دون التزامات ودون أداء ضريبي، شعب الفراغ القاتل، شعب الأوقات الميتة، شعب الصبـحيات والأماسي الطويلة الحزينة، يرتبط بعضه ببعض لملء الفراغ بكلام زائد عن الحاجة، عواصف نفسية مصطنعة، إنها المكالمات الروتينية غير الضرورية والتي لا بد منها في سوق الفراغ المهول.

فماذا أعرف عن ريم؟

أول مرة تحدثنا معاً قالت لي إن منشوراتي على الفيسبوك بها من الشجن والحزن الكثير وبها من العمق والبساطة أكثر، هنيئاً لي بك قالت. قالت إنها نسمة صيف لا تؤذي أحداً، لم أعرف يومها كيف أجيبها، ولكنها تبدو لعبة عاطفية عميقة ما دامت قد انطلقت مما أكتب وليس من صورتي

الشخصية. وبعد أسبوع من الحوارات القصيرة والمطولة خصوصًا في فترة الليل، كتبت لي رسالة حددت فيها ملامح شخصيتي:

«أنت مخطئ تمامًا في اعتقادك، وأنا مخطئة في ظني بك، الحب سيدي حالة يصعب الحديث عنها بالكلام، إنه أمر مجحف حقًا، أنا لما قرأت لك ارتبطت بك، لا أقول أحبتك ولكني أحببت لحيتك، أنا مجنونة حقًا، أنت تقول الآن إنني مجنونة لأحب لحيتك فقط، إنها الحقيقة ليال طوال ونحن نتحدث كنت أنظر إلى لحيتك، أريد أن أطلب منك شيئًا واحدًا أن تفتح نافذة غرفتك وتخرج رأسك قليلًا، صدقني بعثت لك شيئًا، عاصفة من النسمات المحملة بالحب، هل وصلتك هل أحسست بها، لا تقل لي إنك أحسست بها لأن صدرك عار ككل ليلة تحدثني فيها، فجسدك لا يعنيني حقًا مع كل هذا البعد، إن ما يعنيني هي لحيتك، تضحك وتقول إنني مجنونة، قل ما تريد، لكنّها آسرة ولا أستطيع الهروب منها، وماذا نمك في هذا العالم الافتراضي غير الحلم والصورة والفرح المقنع، وسأجن أكثر حين تعلم أنني أغار من لحيتك، ستقول إنك تغار منها وأنت ستحلقها غدًا على الزيرو، أرجوك لا تفعل إنني أشعر بالوهن تجاه لحيتك هذا كل ما في الأمر. إننا مختلفان جدًّا، لا نفكر بنفس الطريقة، الاختلاف منطقي في كل شيء عدا الحب، لا يمكننا أن نختلف وإلا فنحن لسنا على حب. لم تسألني يومًا عن الطيف الذي أحلم به كيف أريده ولم تسألني كيف يمكنه أن يسكنني، لي صورة عامة عن رجل ما، أكيد بلحية مثيرة ولكن ليس أنت، أنت لا أحد يمكنه أن يغيرك، وسيكون من المخيب لألمي أن أحاول تغييرك، أنت صادق وحقيقي، وقلت إنك ملك للجميع، وقلبك مفتوح لنساء كثيرات، وأنا لا يمكنني القبول برجل قابل للتعدد، أريده لي وحدي أملكه ويملكني، بالمعنى المجازي طبعًا، سأكون ظالمة إن طلبت منك أن تتغير، سأكون غير حقيقية البنية؛ لذلك أبحث عن حبيب لا يتغير من أجلي ولا أتغير من أجله؛ لأننا سنكون قد خلقنا لبعض منذ الوهلة الأولى، أعرف أن لا شيء مما قلناه بقي عالقًا في ذهنك، غير كلامك المثير دومًا عن نهدي الأيسر، فعندما سيطرت علي فكرة لحيتك حاربتها بفكرة النهدي الواحد، وقلت لي إنك لا تحب في غير نهدي الأيسر، وقد تعجبت عن الفرق بين الأيسر والأيمن، ولكنك حسمت المسألة سياسيًا وقلت لي إنك تكره اليمين كيفما كان. أما أنا فقد حفظت منك كل شيء، لغتك وحيويتك وجرأتك، قلت لك إن الحب هو أن يتفنسني الرجل وأتفنسه، أعجبك الجملة واحتفظت بها في ذهنك مدة طويلة، لكنك أولتها في لحظة ضغط جسدي وقلت لي ذات ليلة إنك تريد أن تتفنسني، وطلبت صورة لأعلى صدري فقط، وتشممتها من حاسوبك أو هاتفك، حدث لك وأن اشتريت العطر الذي أخبرتك أنني أضعه، وصلت بنا الجمل لحواف خطيرة يا سيدي، وقد سرّني أن تتعرّى أمامي بالكلمات، وكنت مخلصه جدًّا لك ولاستعاراتك، وكان جسدي ينتفض كلما صادف حرفك جزءًا منه.

حين أحب شخصًا سيكون أول شخص وآخر شخص أحبه، سيسكن قلبي للأبد، لقد كسرت كل شيء حين قلت لي إنك تؤمن بالتعدد في الحب، وأنت لا تمنع أن تكون مع أكثر من واحدة، وبلغت جرأتك أن تضيف ضاحكًا: «وعلى نفس السرير» شعرت بغيرة قاتلة فلا يمكنني مشاركة لحيتك مع أنثى أخرى. هذا كل شيء. لديك فلسفتك الخاصة وجعلت قلبك عموميًا وتنتظر أن تخصصه فتاة ما، لا أدري كيف جعلتني أشعر بأنني أتحمس لحيتك كل ليلة. قلت لي ذات ليلة: «شعر لحيتي يستمتع وشعر صدري وبطني يقوم بثورة شعبية، ورجوتني أن أتحمس كل المناطق الأخرى حفاظًا على

الأمن العام لجسدك». أغررتني لحيتك لكن الأشد إغراء هي لغتك، وطريقة تفكيرك، إنك لا تتنازل ولا تتغير، قوتك في توحيدك بين الجسد والروح، وأنا المجنونة لدي كل الفرق بين الروح والجسد، واكتفيت بأن أحضن روحك. أنت لم ترد استعمال كلمات كبيرة كهذه في الحديث، وكنت تتجنب كل ما هو نفسي فما بالك بالروحي، الأجساد تندثر وتموت وتساfer وترحل وتردم، الأرواح لا. هنا اختلفنا حين قلت لي إن الجسد يتعذب أو يرتاح في القبر، وفي الجنة حسب تعاليم الإسلام. وأكدت لي عبر تأملاتك أنه لا فرق بينهما. لم تكن فلسفة بل كانت تعاليم دينية. وأرسلت لي قبلة حمراء، واتهمتني بالبخل لأنني لم أرد لها لك. كيف تستطيع أن تنتقل هكذا من العالم العلوي للروح إلى أسفل الجسد بقبلة افتراضية؟ لقد أدمنتك يا رجل، أدمنت كلامك ولحيتك، مرحك اللغوي وجنسك الافتراضي يذوبني، وأنا التي يرونها في الجامعة حيث أعمل شاعرة، جردتني من لغتي وملابسي بلغتك، أدمنتك لدرجة لا يمكنني فيها اعتبارك نزوة، أو مشروع ديوان، أو فكرة كتاب، ولا حتى قصيدة قادمة، لقد قررت ألا أقبلك مجددًا أريد فقط أن ألمس لحيتك لساعات ولأيام بل لسنوات، أدرك تمامًا أنها علاقة سريعة وعنيفة، والعطب يصيب مثل هذه العلاقات بسرعة، من يصدق أنه أسبوع واحد من المحادثات السرية، لم أسمع فيها صوتك غير مرات قليلة وأنت تنتهد، لم أعتبرك صديقي كما أبدأ دومًا علاقاتي مع الرجال لأنك منذ الحرف الأول طلبت قبلة على الفم. أنت الجنون عينه قلت في نفسي، طلبت مني أن تعرف عن محاضراتي فقلت لك إنها كلها عن تشومسكي، قلت يا له من مسكين، لا يستطيع وصف قبلة على الافتراضي؛ لأنها جملة دون سند، وأقسمت لي أن القبلة كانت على عنقي، تحسست عنقي لإرادياً وأنا أشعر بخجل مضاعف من جسدي. أي هجوم كان. صدقني كانت شهية، وتشومسكي لن يستطيع تحويلها ولا توليد جمل شبيهة بها. بكل بساطة لأنه لا يضع لحية. كنت بعدها تأمرني، وأنا أكره الأوامر في الحب وعلى السرير، لكن لذة لحيتك كانت لا تقاوم. وطبقت أوامرك، لكن حين حاولت رد الاعتبار لنفسي بالمثل طلبت منك أن ترسل لي صورتك فانفعلت، ليس لأنك ترفض ذلك بل لأنك ترفض الأوامر. كنت دقيقاً جداً في خطواتك، وتحافظ على حدود شخصيتك. كنت تحاول تدميرني بأي شكل من الأشكال، كنت تردد أن الرجال الذين عرفتهم وأسميهم أصدقاء لم يكونوا كذلك، وقلت إن الصداقة معي حب جبان لا يمكن لرجل أن يقبله إلا أن يكون جباناً، ماذا لو كنا في نفس القارة، كنا لنشعل الدنيا لهباً وعشفاً، كنت لنتهي تدميرني بقبلة واحدة بليلة واحدة بقبلة واحدة. علاقاتك هوجاء زلزالية ومداراتك حنونة ولكنها عنيفة، يصعب علي أن أقبل لغة الجمع التي تستعملها وكنت تصر على استعمالها، لتشعرنني ربما أنني جزء من علاقاتك، ولكنك كنت قد نجحت في هزم كل دفاعاتي، أحترم وجهة نظرك ولكني لا أقبلها ولا أقبل أن أخسرك في ظرف قياسي، كانت لحيتك مسدداً يهددني كلما واجهني كبرياؤك. جردتني من كل منهجيتي وكسرت أسففي على رأسي، من أين لك تلك القدرة على سجنني في لغتك. صدقني كنت أتحسس رجولتك معي، وأقسم لك أنني مت ألف مرة وأنا أنظر للحيتك، سواء كانت مبعثرة أو مشذبة، وكلما دخل أبناء عمي أو إخوتي كنت أعانقهم لأعرف ملمس لحية رجل يشبهك، وقالوا عني مجنونة اللحى ولكني كنت أداعبهم في ودّ وأخوة. كنت قبل ذلك هادئة جداً، ليس الهدوء البارد فأنا أعلي كمجمر وأنت تعرف كيف أعلي. الهدوء الشهوي الذي لا يحرق، فكثيراً ما حصنت قلبي الهش ضد كل دخول فيروسي يمكن أن يعذبه، أسبوع فقط من الحديث وبضع صور للحيتك، ماذا لو كنت معي، كنت لأقتلك.

اللبوة هي مثالي في العشق، سألتك يوماً هل تحب الفتاة اللبوة في فكرها، فأرسلت لي صورة ممثلة أفلام جنسية ترتدي ملابس وحشية وقلت نعم. يومها أحسست بأني لا شيء في ذهنك غير جسد ونهد وجنس، كنت تعتمد على ذكائك وفطنتك في تقدير الأمور، ولم تلفظ كلمة حب، كنت تعرف جيداً أنه ليس حباً، ولكنك تركتني أنجرف، هنا الفرق بيني وبينك، لك الكثيرات، على الأقل كتجارب لأنني استخلفتك إن كنت تحدث فتاة أخرى في وقت تعارفنا وقلت أن لا. أي بؤس ذلك الذي دخلته معك. كيف جردتني من إحساسي بالكبرياء، أو حتى بالشفقة على نفسي. وكنت جميلاً في لغتك، كنت تدور في حقول لم أسمعها من رجل قبلك، هذا أنت وأنت خائن ومستعد للتخلي فكيف تكون وأنت وفي لي. عقدت تلك المقارنات الكبيرة، وأنا أقول: ستكون لي يوماً. ولم تكن لي أبداً، أنت صلب وصعب المراس، شخصيتك صلبة كالفولاذ، مصدر صلابتك أنك لا تكذب، ولست مستعداً أن تضحي بحقيقتك من أجلي، كنت أحياناً أود لو تقول لي أحبك ولو نفاقاً ولكنك تصر على أن أستهيك صدقاً. جردتني من كبريائي ومن ملابسي بكلماتك وبصوتك عبر الهاتف، وكنت تثور حين أتحمس جسدي بدلاً عنك. تشتعل وتتطفئ، وتقول إنك ستعاشر بنت لي بسببي، ولكني كنت متأكدة أنك كنت تنوب بسببي فقط، لكن ما معنى الكبرياء؟

من معاني الكبرياء: أن تهتم بي كما أهتم بك. أن تلين مع رياح صمتي وأنين وجعي كما ألين مع رياح حزنك، أن أبتعد حين أحس بك متبرماً مني، بعد جهد ومحاولة فهمك. أن أكون مغروراً معتدلاً بنفسني حين تغتر أنت بذاتك. والله يحدث بعد هذا أمراً، ولكن هذا لا يحدث أبداً لأن الخلل عميق في علاقتي بك.

لن أستجديك لمشاطرتي حديثاً تنتقي حروفه ومعانيه بتأن، قلت لي إن علاقتك باللغة معقدة جداً. الأمر واضح جداً، معك كل حرف عقدة وكل كلمة مسار وكل جملة بركان. لست من النوع الهادئ الذي يمكنك العيش معه وفق دالة رتيبة ولست من النوع الذي يمكنك تفاديه بسهولة، إنها ورطة حقيقية أن تعلقت برجل يهوى خلق الدلالة من ماء متدفق عبر صنوبر اليومي والمبندل.

وهنا أعود لأول جملة قلتها لك: أسفة على طفلي، أعتذر على طفلي، أنا نسمة صيف لا يمكن حتى أن أجعل من حولي يشعرون بالبرد.

كانت كلمات هشة كبدائية، بعدها تشومسكي ولحيتك وجمالك الجنسية، هذه هي الحقيقة. حقيقة حياتي الافتراضية معك.

ماذا أعرف عن هدى؟

كانت تتواصل معي من قرية أطلسية شمال المغرب، لحديثها دوماً حيوية الحملان وثغاء النعاج ورائحة حليب المعزاة، هكذا تصورتها ترتدي ملحفة مخططة بالأحمر والأبيض، مندفعة في الحديث بشكل جنوني، منذ البداية أربكت حساباتي فلم أستطع تحديد سننها الحقيقي، وهي ترفض الاعتراف به. «لو كنت بقربي لمنحتك عذريتي، ما أجمل أن أمنح أعلى ما لدي لرجل سيخلدني في بعض قصائده»، أيتها المجنونة لست بشاعر ولا روائي، وبكرتك لا تهمني، ولست مريضاً بالدم. يمكنك

إزالتها عند الجراح إن كَانَتْ تزعجك، ربما كان ردي أكثر جرأة، الشيء الذي جعلها تعود للوراء ربما لتبحث أكثر عن منفذ لي من خلال منشوراتي.

حَصَلَتْ عَلَيَّ هَاتِفٍ ذَكِيٍّ مِنْ خَطِيْبِهَا كَمَا تَقُولُ قَبْلَ أَنْ تَتْرَكَهُ، أَوْ يَتْرَكُهَا بَعْدَ أَنْ اِكْتَشَفَ جَنُونَهَا، أَنْهَتْ دِرَاسَتَهَا الإِعْدَادِيَّةَ وَلَمْ يَسْمَحُوا لَهَا بِالذَّهَابِ لِلْمَدِينَةِ لِإِتْمَامِ حَلْمِهَا بِالتَّعْلِيمِ، وَلَكِنَّهَا تَابَعَتْ الْقِرَاءَةَ وَالمطالعة وانفتحت عَلَيَّ النّت، وَعَلَى الشبكات الاجتماعية «ستري كيف سأحقق ذاتي، أتحدأك وأتحدى الجميع، فأنا حرة وَلَا أَدُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحَاصِرَ أَفْكَارِي، سَأَحْضِقُ مَا أُرِيدُ، سَأَكُونُ يَوْمًا مَا أُرِيدُ، أَنَا جَمِيلَةٌ جَدًّا لَوْ تَدْرِي، قَدْ تَمَوْتُ شَغْفًا لَوْ رَأَيْتِي كَمَا وَلَدْتِي أُمِّي، أَمَا لَوْ لَمَسْتِ جَسَدِي فَأَنْتِ فِي عِدَادِ المَفْقُودِينَ، أَحْذِرْكَ أَنَا سَلِيلَةُ الإِيبِيرِيِّينَ، البِرْتِغَالِ خُصُوصًا، لَا أَقْصِدُ أَنِّي مُورِيسْكِيَّةٌ، لَا تَخْلُطُ بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ، وَرَثْتُ عَنْ جَدَّتِي شَعْرَهَا الأَشْقَرِ وَعَيْنِهَا الزَّرْقَاوِينَ، وَأَنَا سَلِيلَةُ الشَّمْسِ أَيْضًا، كُلُّ مَنْ يَقْرِبُنِي يَحْتَرِقُ، وَقَدْ احْتَرَقَ خَطِيبِي الأَحْمَقُ الَّذِي اشْتَرَى لِي هَذَا الهَاتِفِ، احْتَرَقَ مِنْ شِدَّةِ وَلَهه بِي، وَحِينَ رَأَيْتُ اسْتَحَمَ فِي النَهْرِ وَكَانَ مَارًّا مَعَ أَصْحَابِهِ كَادَ يُجِنُّ، وَرَمَى خَاتَمَ الخُطُوبَةِ فِي النَهْرِ، مُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ وَأَنَا خَطِيبَةُ النَهْرِ، وَيَطْلُبُنِي كَمَا اشْتَدَ الحَرُّ».

- أَنْتِ تَذَكِّرِينَنِي بِنَصِّ كِتَابَتِهِ قَبْلَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ: حَبِيبَتِي الشَّمْسُ، لِمَاذَا يَعْزُ لِقَاؤُنَا، كَمَا اقْتَرَبْتَ مِنْكَ احْتَرَقْتُ، وَكَمَا ابْتَعَدْتُ احْتَرَقْتُ، وَكَمَا مَضَى يَوْمٌ دُونَكَ اِكْتَوَيْتِ، سَيِّدَتِي، دَهْشَتِي الأُولَى، أَنَا طِفْلٌ وَوَلَدٌ فِي العَمَى وَأَبْصَرَ نورك فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالنَّظَرِ، يَحْدِثُ حِينَ تَغْيِيبِنِ أَنْ تَمُورُ دَوَاحِلِي كَالْمَوْجِ وَسُطِّ العَاصِفَةِ، أَشْتَهِي نَغْمَةً مِنْ صَوْتِكَ تَخْرُجُنِي مِنْ بَيْنِ كُلِّ هَذَا الحَطَامِ.

- أَرَأَيْتِ، أُرِيدُ أَنْ أَلْهَمَكَ وَأَصْبِحَ جَمَلَةً فِي قَصِيدَةٍ مِنْ قِصَائِدِكَ، أَنْتِ شَاعِرِي وَإِنْ كُنْتِ لَا تَكْتُبِ الشَّعْرَ، أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ نَجْمَةً، نَخْلَةً، أَوْ وَرْدَةً فِي نَصِّ مَا. اِكْتَبِينِي يَا رَجُلِي، حَرْفًا حَرْفًا لِأَصْبِحَ أُسْطُورَةً يَدْرُسُهَا أَبْنَاءُ الإِكْالُورِيَا المَسَاكِينِ فِي مَقَرِّرَاتِهِمُ البَائِسَةِ. أُرِيدُ أَنْ أَتَحَوَّلَ إِلَى حُرُوفِ، الحُرُوفِ شَبِيقَةٍ تَتَّخِذُ كُلَّ الوَضْعِيَّاتِ، نَعْسَانَةٍ كَالنَّاءِ، مَمْدَدَةٍ كَالْبَاءِ، مَلْتَوِيَّةٍ تَتَأَوَّهُ كَالهَاءِ، وَاقْفَةٍ كَالصُنُوبِ، جَائِمَةٍ عَلَيَّ رَكِيبَتِهَا كَالْبَاءِ المَقْصُورَةِ، مَثْقُوبَةٍ كَالوَاوِ، مَنقُطَةٌ بِالقَبْلِ الثَّلَاثِ المَعْجَمَةِ، اِكْتَبِينِي بِكُلِّ اللُّغَاتِ. بِكُلِّ اللُّهْجَاتِ، وَقُلْ لِي شَيْئًا جَمِيلًا فِي أذُنِي، قُلْ لِي إِنَّكَ شَاعِرِي، وَأَنِّي مَلْهَمَتُكَ.

- لَسْتُ شَاعِرًا وَأَنْتِ لَدَيَّ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ أَفْعَلُهَا بِكَ كَأَنَّ أَضْمَكَ فِي سَرِيرِ لَا يَسْعُ غَيْرُنَا.

- فِي سَرِيرِ، كَمْ تَتَقَنَّ العِزْفَ عَلَيَّ حُرُوفِ الجِرِّ، فِي تَعْنِي دَاخِلَ، وَهِيَ أَعْمَقُ مِنْ عَلَيَّ السَّرِيرِ، عَلَيْنَا أَنْ نَحْشُرَ فِيهِ لَا أَنْ نَبْقَى عَلَيْهِ. كَمَا تَحْشُرُ الجِمَاجِمَ فِي الوَسَائِدِ. احْشُرْنِي دَاخِلَ السَّرِيرِ.

أَنَا دَائِمًا أَهْرَبُ لِلجَسَدِ حِينَ يَنْحُو الحِوَارِ مَنْحَى الحِزْنِ، كَأَنَّهُ بَوْرَةٌ تَتَجَمَّعُ فِيهَا الرِّغْبَاتُ الَّتِي تَتَجَاوِزُ الوَاقِعَ، حَقِيقَةُ إِنْنَا نَهْرَبُ إِلَى الجِنْسِ مِنْ ضَغْطِ اليَوْمِ، هَدَى شَكْلَتْ لِعِزًّا كَبِيرًا لِمَدَّةٍ لَيْسَتْ بِالقَصِيرَةِ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ التَّعْرِفَ عَلَيَّ حَقِيقَتِهَا وَلَا دُخُولَ عَالَمِهَا الَّذِي يَبْدُو فَنَازِيًّا، لَقَدْ خَطَبْتُ النَهْرَ لِنَفْسِهِ؛ لِذَلِكَ تَذَهَبُ لِلإِسْتِحْمَامِ فِيهِ كَمَا عَطَشَ الجَسَدُ أَوْ اشْتَدَّتْ حَرَارَتُهُ، وَهِيَ تَتَحَكَّمُ فِي صَوْرَتِهَا الَّتِي صَنَعْتَهَا عَلَيَّ الإِفْتِرَاضِي بِشَكْلِ دَقِيقٍ وَمَحْكَمٍ. إِنَّهَا فَتَاةٌ حَزِينَةٌ كَكُلِّ فَنِيَّاتِي الحَزِينَاتِ، جَرِيئَةٌ حُدِّ الوَقَاحَةِ أحيانًا، تَقُولُ: «هل تريد بكرتي؟». «هل تستطيع أن تقتحميني؟» «لا تكن مثل هؤلاء القوم، إنهم

يخافون جداً مما بيّن فخذي، خصوصاً أبي، إنّه يرتعب بشكل هيسثيري من أنوثتي، ولكني لا أهتم، أنا أرى معزاتي كل يوم وأحلبها مساءً حين يمتلئ ضرعها بالحليب، وأحتفل بجسدي مع النهر الذي اختصني له مُذ رمى فيه خطيبي خاتم الخطوبة، أعوم أنا وبعض صديقاتي ونحن نعرف أن هناك من يتجسس علينا، نعمن في تحريك صدرياتنا ونزعها إن اشتد الحر. أخبرني فقط هل تريد بكرتي، إنّه ملكي ويمكن أن أتصدق عليك بها، أنت تبدو كئيباً جداً وتحتاج بطولة ما لتحيا عليها، كأنك لا تستطيع فغر بكرة حقيقية، أنت اعتدت الحديث الساخن وإثارة أعضائك باللغة. لدي وظيفة شاغرة لك بيّن فخذي، تقدّم بملفك الجسدي».

تستمر في الضحك الأبله كأنها قالت نكتة، لا يمكنني أن أتقادي مثل هذه المزلق الساخرة، بدل أن أفرملها بجرأتي أدهشتني بجرأة أكبر والكثير من الحمق، جرة مغلقة بصور جنسية كاريكاتورية، إنّه تشتت تفكيرتي وكثيراً ما انزعجت وأغلقت المحادثة لأبحث عن فتاة لا يرتدي حزنها لباس البهلوانات، تتحرك بين العجرفة والاستهتار والحزن الطاعي، إنّه تمرد على كل شيء، وطيش لا تفسير له عندي حتى الآن. عصفورة مرتعشة تضرب بجناحيها داخل قفص من حديد، تريد أن تهرب، ولكنّها حزينة، لا يمكن أن تُخطئ بصيرتي جسّد الحزنيات وكلامهن، أغلب الظن أنّها مرافقة؛ لذلك عليّ أن أنسحب من هذه العلاقة الافتراضية التي لا معنى لها، أريد امرأة مشبعة بالنضج وحزينة بالقدر الكافي الذي يجعلها ممثلة بالحياة والرغبة واللغة. لا أريد مرافقة فارغة تتأوب عليها أقنعة طفولة غريبة وشباب مضطرب. تعيش فوضى ذهنية ولا تعرف ما يمكنها أن تفعله ببكرتها، وتركها لأيام كثيرة.

وذات ليلة خرقت توقعاتي، نزعت قناع الخرقاء وبدأت تسرد لي بهلوسة لم أشأ أن أكبحها أو أقاطعها وبقيت أنصت لتوتراتها وأراقب جملها المرتبكة حد الهديان.

- «أعرف أنّي لست من النوع الذي يفتقده أحد إذا غاب، إلا النهر لأنه مرتبط بي شرعياً، إنّها قصة طويلة جداً، تشبهه علاقتي باللغة، علمني صادق الرافي وجبران خليل جبران، ومعلمي بالمدرسة الذي يزودني بالكتب، وعلمني حبيبي النهر، النهر رجل فحل لذلك كل ما دخلت الماء أحس بالانتشاء، الشيء الذي لم يستسغه خطيبي المهبول، عمري تسعة عشر سنة كاملة، أتجاوز أقراني بالكثير من الجمل والروايات وحمق عظيم، ولكني حزينة حزينة جداً يا سولال، لا أستطيع أن أخبر أحداً عمّا حدث لي، حين منعني والدي من إتمام دراستي أصبت باكتئاب خطير، وكنت أذهب للعلوم بالوادي وحدي وأنا أرى معزاتي، ذات يوم تناولت نبتة مخدرة وشعرت باننشاء غريب وقررت أن أدخل الماء عارية في أعلى الجبل حيث منبع النهر، أصبت بدوار شديد وأنا في الماء وحين وجدت نفسي على ضفة النهر بعيداً عن المنبع وجروح كثيرة تنزف مني، وكان بينها جرح بيّن فخذي، فقدت براءتي، لقد اغتصبي النهر وأنا أسبح فيه. تزوجني بعد ذلك. زوجي هو النهر ولا أحد يستطيع أن يمتلكني غيره. عدت للمنوع حيث شلال صغير وارتديت ملابسني وأنا أبكي، لكني شعرت برغبة كبيرة في العودة إلى السباحة كل يوم في نفس الوقت، وحينها فقط تيفنت أن النهر يحبني، نمارس الخطيئة معاً ونغتسل في نفس الوقت، إنّه طاهر في الأصل وأنا بحاجة للتطهر من حزني المؤبد، وكان يغار عليّ من الذكور من بني آدم، خصوصاً خطيبي الذي لا يستطيع السباحة

فيه؛ لأنه يختنق كلما اقترب الماء من عنقه، وَقَدْ حذرته أن يبتعد عنه؛ لِذَلِكَ شعرت بفرح غامر حين رماه بالخاتم. شعرت بأني في عهدة النهر رسمياً، تبددت أحزاني بعد ذَلِكَ وتمددت الأيام التي عشتها وأنا أسبح وأقرأ جبران خليل جبران، وحلمت يوماً بأن النهر جاني في المنام وهددني إن خنته أن يغرقني في قاعه.

ليس لدي بكرة إذن، ولن أكون لك عروساً يوماً ما، فلا يمكنني أن أخون الماء المتدفق من جوف الجبل، والذي استطاع أن يجعلني أنتشي صيفاً وشتاءً، وفكرت أن أحبل منه وألد نهراً صغيراً يرضع من ثديي. الأمر غير معقول لَكِنَّهُ وارد الحدوث. لا يمكن لكل هذه المضاجعة إلا أن تُوجد طفلاً جميلاً نصفه من لحم ودم ونصفه ماء عذب. سألد أسطورة».

فماذا أعرف عن رولا؟

«روح منهكة من جنوب العراق، ألفت رواية حزينة وبعثت لي بها، ارتياكها في التواصل معي جعلني اخترق بسرعة دواخلها، كَأَنَّت تريد شخصاً يجمع بين الصديق والعشيق والطبيب النفسي، لكنني كنت براغماتياً في حضوري الافتراضي، فكنت عشيقاً جيداً وصديقاً محترماً، مرت أيام كثيرة وأنا أستمع لها كطبيب نفسي. فشلت إذن. كَأَنَّت كتلة من الحزن يصعب أن تمتلكها بين يديك كجسد، إنها تتحدث دوماً كروح شرّدت عن القبيلة وتاهت في الصحراء. راسلتي يوماً قائلة: أرجوك لا تكتب بوجع، أنت تضاعف ألمي، حين أنظر إليك أجد عينين عميقتين جداً، نظرتك الحزينة تخترقني وتخرق كياني، يمكنك أن تكتب بفرح ولا مبالاة، كن ساخراً فقط، اسخر من كل شيء يمر بك مهما كان مؤلماً، حتّى الموت اجعل منه مادة للحياة، ببساطة لا تكن مثلي، لقد فقدت أبي وإخوتي في حرب رخيصة جداً، وبقيت وحدي رفقة ذكرياتهم، يحاول عمي التحكم بي وأراد أن يزوجني بابنه ليحصل على ثروة أبي، فرفضت، حاصرني هو وقبيله، تمكنوا من جسدي ولم يتمكنوا من روحي، أنا روح مسربلة لا أحد يستطيع حشرها في زاوية مغلقة، وأذوني في جسدي لو تتصور، شكراً لأنك احتويتني في هذا الفضاء الرحب الذي لا سجن فيه، شكراً لجعلي ذاتاً حرة».

حواراتنا كَأَنَّت بطعم حزين جداً وَلَكِنَّهَا دافئة، كم تمنيت أن أحضنها، وأقبلها حتّى تُشفى من حزنها، كَأَنَّت تبكي وأنا أكره دموع النساء، وأحست بي وأنا أحيطها بدفءٍ خاصٍّ، ولكن توترها يجعلها مرتبكة جداً في اختياراتها، وكثيراً ما نزلت بنا اللعنة إلى مهاوي الجسد كما تصعد بنا إلى مراقي التأمل والفراغ. عيناها تقولان كل شيء، تضع كحلاً عربياً ثقيلًا، اتساعهما يجعله مرتباً كقصيدة للخنساء، لا أدري لم أحس درابك الخيل وأنا أحدثها، ربما لأنها تقول الكثير من الكلام عن تقاليد وعادات قبيلتها، وتستشهد بالكثير من الشعر الموزون والمقفى، وتستشهد أكثر ببدر شاكر السياب، وتتشد لي حين يشتد الشجن نشيد المطر.

- سأجيبك يوماً على ظهر الخيل فأنا أكره الهودج.

- سأحملك أمامي على فرسي كأميرة.

- هل تستطيع أن تعيش معي في الصحراء.

- حقيقة لا أدري فأنا ابن الجبال ولي نسب مع الأنهار، ولكني أستطيع أن أستظل بصدرك في الصحراء.

- صدري نار حارقة لا أنصحك. تسكنني أحقاد كثيرة على هؤلاء. أريد أن أهرب، لو يسمح لي هذا الهاتف بذلك.

- إنه يفعل، أنت تهربين الآن، أنت معي.

- الحرب جعلتني أتعس مخلوقة على وجه العراق، أبي كان يدللني ويراني ملكة، جعلني ملكة حقيقية، لا أحد مثل أبي، ما عاش اللي يذلك يا حبيبي، يقول لي، وعلمني الشعر العربي والكثير من المعاني، أولها العزة، كان ينحت العزة بالسيف والبندقية، كم رجوته ألا يذهب للحرب، الحرب كانت خاسرة منذ البداية، لا عدو حقيقي غير الفرقة العصبية والهمجية. لو كان أبي حيًا ما تجرأوا على تهديدي وما رفعوا عقيرتهم نحوي، أولاد كلب، بقيت أنا وأمي العجوز التي لا تعرف غير التمتمة بسبحتها، لولاها لهربت منذ زمن، وسمحت لهم في ثروتني، ولكنها سيدة عاشت عزيزة طوال حياتها ولن أذلها اليوم بجبني، سأقاوم سولال، سأقاوم حتى أنهار حتى يدفنوني أو يأخذني نهر الفرات. لو ترى النخل على جنباته، أي نهر هذا الذي يتواطؤ دومًا مع حزني، ويدعوني مثلك للحضور بين يديه. يريد أن يأخذني من هذا العنف الذي يتمدد ليطالني، ولا أسمح لهم بطمس صورة أبي، مثال العزة. أريد أبي.

- روحه تسكنك، وهو الذي يدفعك للحياة ويعطيك الأمل، إنه حاضر حتى في غيابه.

- رأيت صورته غلافك ... كنت مبتسمًا ... صار عندي انطباع أنك أفضل بكثير من البارحة.

- صوري كلها بطعم الفرح لكنها لا تعكس الدواخل دائمًا.

- حين لا نجد رسم ملامح الفرح على وجوهنا ... ولا نتصنع الابتسامة لتصير وجوهنا أجمل بالحنن ... لا لشيء، فقط لأنها وجوه حقيقية تعبر عما فيها دون مواربة أو أقنعة.

- أعلم ... أحيانًا أجد فهمك جدًا ربما نتشابه روحياً.

- الأمر كذلك، ما هو الحب في نظرك؟

- الحب، خروج عن النص، هروب من الرتابة والروتين، لحظة مجنونة تشبه اختراق الرصاص للجسد. ارتعاشة بريئة طفولية تتناوب حينما يمر بك طيف شخص هو كل الكون ... الحب ... عبادة

صلاة من نوع آخر ... أعمق وأظهر من كل العبادات ... تعري الروح أمام الروح ... هُوَ اتصالٌ روحي ... تزوج بيّن الحروف وإنجاب للكلمات والقصائد. هُوَ موت ... لَكِنَّهُ لذيذٌ جدًّا.

- وَمَا الحزن؟

- الحزن أن تُكون عبارة عن قبيلة من الجراح، جسد يئن ووجه باسم. المؤلم أن الحزن مدية مسمومة لا تقتلك مباشرة بل تجعلك تنزف وتتألم بالوقت ذاته إلى أن تصل لمرحلة أن تتوسل الموت أن يأتي ولا يأتي. الحزن وطن ... تتأكل فيه وأنت تتصور أنك تدفع ضرائب انتمائك إليه.

- دومًا هُنَاكَ علاقة بيّن الحزن والوطن والحصار.

- أنت تجيد تصوير اللحظة ... لك عين المخرج السينمائي ... حينما تكتب لا أقرأ لك بل أشاهد اللحظة التي تكتب عنها.

- لأنها حقيقية ربما.

- بالتأكيد ... أذكر تعريفك للحب ... وتلك اللحظات التي يومًا وصفتها ... أتذكر أنك قلت أحبها حينما تستيقظ منفوشة الشعر وبلا مساحيق تجميل ... وكيف كنت تصفها وهي تستعد ليومها، أنتم لديكم ثقافة ناعمة أكثر منا ... نحن ثقافتنا خشنة لا نجيد ترتيب اللحظات.

- نحن أمازيغ، حضارتنا أميسية.

- حقًا أول مرة أعلم ذلك قرأت شيئًا عنها ... إذن أنتم كالأكراد عندنا نتشابه بعبادات وتقاليد كثيرة لكن هم لهم لغتهم كما أنتم ... أنتم تعشقون الصحراء.

- لا، عن نفسي أعشق الجبال أكثر.

- من الجبال أخذت سموك، أنت قمة كذلك، أندري سولال، أنا نازحة من ديارى إلى إقليم كردستان والذي هُوَ عبارة عن ثلاث محافظات من وطني العراق لا توجد بيننا أية فواصل طبيعية ... واسمى فيه لاجئة ولايجوز لي السكن فيه دون إقامة، ولايحق لي دخول مدارس أو مزاولة مهنتي المحاماة فيه؛ لأنني لاجئة هذا ما جعلني أسألك عن انتمائك للقومية أو الوطن ... صعب أن تقف بنقطة التفتيش ليتششمك؛ ليحق لك دخول ديارهم وكأنك ببلد يمقت العراق.

- صعب جدًّا أنا لا أتخيل ذلك.

- بل هي الحقيقة ... عرفت الآن كم نحن موجدون؟

أعرف ذلك.

فماذا أعرف عن أسماء؟

«تنتهي المكالمات وأنسى كُلَّ شَيْءٍ بعدها، أحس بتعب في فكي، أقوم لتناول وجبة خفيفة فلا أجد في المطبخ رغم امتلائه شيئاً يروقني إلا الموز الإكواتوري الموضوع في طبق عَلَيَّ مائدة المطبخ، أتناول مِنْهُ حبتين مَعَ كوب من الحليب البارد وأعود للسريير. هَذَا السريير مملكتي التي يحاول الأرق سرقتها مني واستعمارها، ولكنني أعرف جيداً أقاليمه وعقدت معه بيعة عدم التحرش بي وبأحلامي، الوسادات الأربع تتناوب عَلَيَّ حمل جمجمتي المثقلة بالقصص وبالليوم وبالأحاديث وبالنساء. بعد حديثي الهاتفي الطويل، أحسست ببعض الفرح يتسلل عبر أذني، يقطن عيوني المتعبة، تماماً كالحزن والحب والحنين والغربة، ها أنا أقاوم، أواجه الحياة استعداداً لموتٍ جميل حين أستنفذ قلبه كُلَّ الحياة بتفاصيلها، برائحة النعناع الأخضر وعطر الكاردينيا وزهر الليمون، وملمس شقائق النعمان، أنا مليء بالحياة وبالروتين، رغم كُلِّ العبث المحيط بي وبحياتي.

يراسلني أخي الأصغر عبر تطبيق هاتفي بعد منتصف الليل ويرميني بطلب مادي، يحتاج مائتي درهم، سيمر ليأخذها صباحاً، ولأني لا أرد له طلباً، وعدته بأزيد من ذَلِكَ المبلغ. فَقَالَ والفرح يغمره:

- العز بيك خويا الكبير، مواح عليك.

- لكن أخبرني لماذا تريد المبلغ؟

- لا تضحك لكني أريد فقط أن أشتري الزعفران، أريد أن أقرن رائحة الزعفران حسب قدمه. أريد مثلاً زعفران هذه السنة، والسنة الماضية، ومَا قبلها. أريد أن أقرن بَيْنَ اليايس والطري، بَيْنَ الأصفر والأحمر، سأسافر من أجله إلى منطقة تالوين لأحضره بثمن أرخص من السوق. أرجوك لا تضحك.

- لا بالعكس أنا فخور باهتماماتك الجديدة. لقد كبرت حقاً ولكن شغبك لم يكبر.

العز بيك أخي الأصغر الجميل، المراهق المليء بالحياة، أخي الَّذِي لم يتقهم في البداية قرار رحيلي عن البيت، أصبح أشد ارتباطاً بي، فكان أحياناً لا يغادر شقتي إلا طرداً، لَكِنَّهُ يغرقك في العناقات والقبل والمجاملات، إِنَّهُ خبير باستمالة القلب خصوصاً إن كان الهدف جيبيّاً، إعجابه الكبير بي يجعله دوماً فخوراً بماً أفعله، لا يترك لَكَ فرصة لترفض طلباته، فيظل يقبل رأسك ويعانقك حتَّى ترضخ لسُلطان الحنان في داخلك، أخي الأصغر وعيناه الجميلتان، أعشقه حد الفرح.

كان أخا لي خارج قانون الطبيعة والجينات.

يملاً نور الدين الكثير من أوقاتي ويزعج ترتيب ملابسي، رغم أننا بعيدان في مقاساتنا إلا أَنَّهُ يرتدي لسوء الحظ كُلَّ المقاسات؛ لِذَلِكَ استباح دولابي وكل ما أملكه من ملابس. كَمَا استباح محافظة نقودي

الجلدية ودفتر شيكاتي أحياناً.

تسريحة شعره كعرف الديك ونظاراته السميقة تزيد وسامة، إنه أسمر بجسم رياضي ونفس طيبة، طفل لن يكبر أبداً، هكذا أراه دوماً، لكنّه كبير حقاً. كان يبكي حين غادرت البيت وتركته وحيداً في غرفتنا المشتركة، قلت له إن مزاجي لا يسمح لي بالعيش المشترك مع أي إنسان كيفما كان. خصوصاً مع عشرات القناني الزجاجية الملونة، الخضراء القاتمة على الخصوص التي تحافظ على الزيوت الطبيعية من الأشعة. قال بأنه سيكسر كل القناني لأبقى معه. لكني كنت قد اتخذت قراراً بسيطاً.

اعتقد حينها أنني أخونه وأتركه وحده، حين كبر قليلاً فهم قصدي، عرف أنني لا أستطيع العيش مع الآخرين طوال اليوم، كنت أحتاج دوماً حصة انعزال، ورجبتي في أن أبقى وحدي تزداد يوماً بعد يوم، أريد أن أستمع لداخلي لأطول مدة ممكنة.

أرقي الجميل كم أحبك، جعلتني شخصاً استثنائياً كاليوم في نخلتنا فوق الدار القديمة في درب الصوف، الدرب الضيق الذي يحتوي دوراً ورياضاً شاسعة، خلف الأبواب القصيرة والأسوار توجد دور طينية واسعة بحدائق وسط الفناء.

أرقي الجميل جعلت لي لي طويلاً أتأمل فيه الخلق وأفكر في الحياة.

الحياة لا تُعاش نهاراً، إنها تُعاش ليلاً، ساعة ساعة، حيثُ الزمن الهادئ والبطيء.

الحياة هي ما نستعيده ليلاً من ثنايا الذاكرة، حين يخف الضجيج في الخارج، وتكف المدينة عن الحركة، وينام أغلب البشر، يسرح ذهنك في استعادة ما حدث طوال اليوم، إن ما يعلق في الذاكرة هو الحياة، فالحدث النهاري تعيشه دون إحساس، ولكن استعادته ليلاً تجعله يحبل بالمعنى والنوستالجيا، الحدث النهاري تعيشه بسرعة ولا مبالاة، ولكن الليل، الليل للحياة الماشية مشي السلحفاة، في كل خطوة آلاف اللحظات الممتلئة.

أرقي الجميل كم أحبك.

يسرح ذهني كما أحب في المحادثات الفيسبوكية، رسائل سمير والمحركة، أخي الأصغر الذي لا يشبهني، بياض بشرتي مختلف عن سمرة الخفيفة، كان الأشبه بأمي أو أمي الحاجة، أو ماما فقط، الكل يناديها ماما، كل شباب الحومة وشاباتنا، ونساء الحي أيضاً، ماما لكل وحضن يغيث الكل، وها أنا أرتب يومي من الصباح إلى المساء، وأصل بي إلى سريري الفارغ إلا مني محتقلاً بوحدتي المختارة عن سبق إصرار وترصد، وأنا أحمل بين يدي رواية ضخمة بعنوان: العصافير تخبئ لك موت.*****

مثلي ربما تبحث عن الموت الجميل بعد الوحدة اللذيذة، أيها السر الكامن وراء أرقى تجل كي تموت
كتلك العصافير ...

أيها الصمت الثاوي وراء قلبي تعرّ ...

أيها الدلو تدلّ، تدلّ واجلب لي ماء الطهارة الكبرى كي أغسل عن جسدي درن التعب المزمّن
المتربص بعيونني، تدل أيها الدلو ودع يوسف يتشبث بك فيحكم مصر سبعاً في سبع في سبع، تدل
أيها الدلو في حلمي، كي أقص عليك حكاية وجودي وأتلو عليك آية الفزع.

نمت وسط مجموعة من الكوايبس الجميلة، كانت حرارتي مرتفعة وجبال تتهدم أمامي وأنا أحاول
ترميمها حجراً حجراً ... كان الأمر متعباً وشاقاً. أجدني أحياناً أكثر هشاشة من حلوى المادلين
المنتھية الصلاحية، حين تصطف أمامي الخيبات وأسراب من طيور العتمة، وأجدني ضعيفاً كسنبلة
منخورة في حقل القمح، تلك السنبلة المنسية تحت سدرة لا تصلها جزارة الحصيد. ولكن بعد مدة من
انكسار خاطر هُناك رحي تدور في داخلي تطحن الحزن البريء المصاب بغدر طفيف وجرح
القلب الغائر وتصنع منه مربى النسيان. تلك الرحي التي تدور وأحسها في قلبي أو معدتي تنهكني
لأنها تستهلك دماً روحياً شفافاً ولكنّها سرعان ما تهدأ وتهمس لي: تعلم الصمت الأنيق شقيق
الكبرياء. ولا تندم على نيتك الصافية كالبور حين تعانقه أشعة الشمس وكقطر الندى على تويج زهر
الرمان. تلك الصور الحارقة التي ترسم بالدم هي عالمي. أنا هُناك إذن حيث مساطر قطع الأرحام،
وحيث الخيانات الكبرى للوجود، ولا فخر أنا سيد الحزن الجميل وجسدي مسرح عمليات الانتهاك،
دمي من فصيلة الموتى المحنطين قرب الذكريات.

كانت تصنع الخبز حين باغتها من الورا وأمسكها بين ذراعيه، قبلها تحت حلمتي أذنيها قائلاً:
«أحبك» خلصت يديها من العجين وأزالت ما علق بين أصابعها واستدارت نحوه لتطوق عنقه، في
الوقت الذي سمعا فيه خشخشة في الجوار، أحدثتها عن قصد أمه التي لمحتهما متعانقين يقبلان
بعضهما البعض، وغيرت الممشى نحو باب خلفي يؤدي إلى الزريبة.

في المساء بكت بحرقة لأنّ حماتها وبختها قائلة إنه بيت عائلي وليس غرفة نوم وأن المرأة التي
تحترم نفسها لا تقوم بمثل هذه التصرفات الطائشة. تمننت سلباً حينها لو كان لها بيت خاص، بيت
مستقل تفعل فيه ما تشاء، تمام متى أرادت وتستيقظ حين تكتفي من النوم، ترتدي الروب المنزلي
والبيجامة القصيرة وتسرح شعرها وتطلقه على كتفيها كسيده بيت، لكن عليها الآن أن تتصرف وفق
شروط؛ لأنها تخدم في بيت عائلة زوجها وأن تغطي شعرها عن حماها وإخوة سمير.

لديها مجموعة من الأعمال المنزلية اليومية، الشقاء الأبدي للمرأة القروية، استيقاظ مبكر،
حطب، إشعال النار لإعداد الخبز في الخباز، كنس فناء الدار والممرات، غسيل الملابس، دق حبوب
الأرغان في العصر، إعداد الموقد لظهو العشاء، ثم النوم المبكر من أجل أشغال الغد، من أجل
الاستيقاظ للشقاء اليومي السيزيفي.

هَذَا الشَّقَاءُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْفَتَاةَ الْقُرُوبِيَّةَ تَكْبُرُ بِسُرْعَةٍ، تَصْبِحُ سَيِّدَةً فِي السَّابِعَةِ عَشَرَ مِنَ الْعَمْرِ، فِي حِينٍ تَصْبِحُ عَقْلِيَّتُهَا مُطَابِقَةً لِعَقْلِيَّةِ حَمَاتِهَا وَأُمِّهَا قَبْلَ ذَلِكَ.

لَكِنْ سَمِيرٌ يَعْرِفُ كَيْفَ يَحَادِثُ سَيْلِيَا، يَشْرِكُهَا فِي أَفْكَارِهِ وَأَحْلَامِهِ وَيُبْعِدُهَا مَا أَمْكَنَ عَنِ الْجَوِّ الْعَامِّ لِلْحَيَاةِ فِي الْبَادِيَةِ، لَكِنَّهَا كَانَتْ تَصْرُحُ عَلَيَّ أَنْ تَقُومَ بِدَوْرِهَا كَامِلًا حَتَّى لَا يَقُولَ قَائِلٌ إِنَّهُ تَزُوجُ طِفْلَةً لَا تَصْلُحُ حَتَّى لِأَشْغَالِ الْبَيْتِ، تَحَاوَلُ بِذَلِكَ جَعْلَهُ يَفْتَخِرُ بِهَا وَتَمْنَعُ عَنْهُ انْتِقَادَاتِ الْآخَرِينَ فِي اخْتِيَارِهِ لَهَا وَإِصْرَارِهِ عَلَيَّ الزَّوْجِ بِهَا فِي سَنٍ مُبَكَّرَةٍ، وَكَانَ يَشْتَرِي لَهَا الْكَثِيرَ مِنْ عُلْبِ الشُّوْكَوْلَاتَا وَالْيُوغُورْتِ وَيَضَعُهَا فِي دَوْلَابِ غُرْفَةِ نَوْمِهَا، يَسْعِدُهَا ذَلِكَ كَثِيرًا، وَيَمْحُو كُلَّ تَعْبِهَا الْيَوْمِي، وَيَهْدِيهَا دَبِيَّةَ قَطْنِيَّةٍ تَخْفِيهَا عَنِ الْجَمِيعِ، كَمَا تَخْفِي عُلْبَةَ مَآكِيَاجِهَا وَعَطُورَهَا الَّتِي يَهْدِيهَا بِإِيَّاهَا.

تَرْتَسِمُ عَلَيَّ شَفْتَيْهَا ابْتِسَامَةً عَمِيقَةً وَهِيَ تَجْلِسُ عَلَيَّ طَرَفِ سَرِيرِهَا تَدَاعِبُ ضَفِيرَتَهَا وَتَلْعَبُ بِدَبِيبَتِهَا الْقَطْنِيَّةِ الْمَلُونَةَ، وَمَقَابِضِ الشَّعْرِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَضَعُهَا فِي عُلْبَةِ هَدَايَا. حِينٍ تَغْلُقُ عَلَيْهَا غُرْفَتَهَا فَإِنَّهَا تَسْتَمْتَعُ بِعَالَمِهَا الصَّغِيرِ، تَسْعُدُ بِمَا تَمْلِكُهُ مِنْ حَيْزٍ شَاغِرٍ لِيَكُونَ لَهَا وَحْدَهَا، وَقَلْبِ سَمِيرِ الَّذِي تَعَشِّقُهُ حَدَّ الْجَنُونِ وَتَفَكَّرُ فِيهِ حَتَّى وَهِيَ صَاعِدَةٌ لِأَعْلَى الْجَبَلِ لِتَحْضُرَ الْحَطْبَ رَفْقَةَ نِسَاءِ الْقَرْيَةِ.

إِنَّهَا تَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِ سَمِيرِ، سَمِيرِ الَّذِي يَسْكُنُهَا وَتَسْكُنُهُ، وَعَالَمِهَا الصَّغِيرِ هُوَ غُرْفَةُ نَوْمِهَا، حَتَّى حِينٍ تَزُوجُهَا أَخْتَهَا الْكَبِيرَى كَانَتْ تَخْتَلِي بِهَا فِي غُرْفَةِ النَّوْمِ لَا فِي صَالَةِ الضُّيُوفِ؛ لِأَنَّهُ عَالَمُهَا الْحَمِيمِي الْوَحِيدَ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْآخَرُونَ وَلُوجُهُ وَلَا الْإِشْتِرَاكُ فِيهِ مَعَهَا.

فِي الْقَرْيَةِ، فِي بَيْتِ الْعَائِلَةِ الْكَبِيرِ، كُلُّ شَيْءٍ مَشْتَرِكٌ وَعَمُومِي، مَعْرُضٌ لِلنَّظَرِ، لِكُلِّ الْحَقِّ فِي إِدَاءِ رَأْيِهِ حَتَّى فِي الْمَسَائِلِ الْبَسِيطَةِ وَالتَّفَاصِيلِ الدَّقِيقَةِ وَلَيْسَ لَكَ الْحَقُّ فِي الْإِعْتِرَاضِ عَلَيَّ الْقَرَارَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ. تَنْتَشِبُ أَوْقَاتُ الْخُلُودِ لِلنَّوْمِ وَالِاسْتِيقَاطِ مِنْهُ وَكَذَلِكَ أَوْقَاتُ الْوَجَبَاتِ.

يَصْنَعُ سَمِيرٌ وَسَيْلِيَا عَالَمَهُمَا الْخَاصَّ الْبَعِيدَ عَنِ مَهْرَجَانِ الْعَائِلَةِ. يَقْرَأُ لَهَا الشَّعْرَ وَيَسْمَعُهَا الْأَحْيَانَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي ابْتَكَّرَهَا، يَسْمَعُهَا الْمَوْسِيقَى مِنَ الْأَوْرَغِ وَيَضْحَكُنَ مِنْ أَحْدَاثِ الْيَوْمِ وَأَخْبَارِ الْعَائِلَةِ. مَعَانَاةُ الْجَدَاتِ حَارِسَاتِ الشَّرْفِ مَعَ بِنَاتِهِنَّ، أَخْبَارُ الدَّمِ وَالْبِكَارَةِ، الصَّرَاحُ حَوْلَ حُدُودِ الْحَقُولِ وَمَلِكِيَّةُ الْأَشْجَارِ، نُوبَةُ الْفَقِيهِ وَأَحْكَامُ الْجَمَاعَةِ، يَضْحَكُنَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَيُوشِشُ لَهَا فِي أذْنِهَا أَنَّهَا يَجِبُهَا فَتَخْجَلُ مِنْ جَدِيدٍ، دَائِمًا تَخْجَلُ مِنْ كَلِمَةِ الْحُبِّ وَتَطْفِئُ الْأَنْوَارَ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا غُرْفَةُ النَّوْمِ، لَكِنَّهُ عِلْمُهَا كَيْفَ تَسْتَمْتَعُ بِجَسَدِهَا وَتَنْسَى وَصَايَا الْجَدَاتِ، وَتَنْصَرِفُ كَعَاهِرَةٍ صَغِيرَةٍ فَوْقَ سَرِيرِهَا وَعِلْمُهَا أَلَّا تَخْفِي شَهْوَتَهَا بَيْنَ أَحْضَانِهِ، وَأَنْ تَتَحَدَّثَ وَهِيَ تَمَارِسُ طَقْسَ الذُّوبَانِ، وَأَنْ تَعْبِرَ عَنِ نَشْوَتِهَا بِالصَّوْتِ، وَأَنْ تَصْرُخَ وَتَتَأَوَّهُ، عِلْمُهَا أَنَّ كُلَّ مَنْطِقَةٍ مِنْ جَسَدِهَا وَاحِدَةٌ مِنَ الشَّهْوَةِ وَنَخِيلٍ مِنَ الْآهَاتِ اللَّذِيذَةِ، بَرَكَانَ مِنَ الدَّفْعِ، عِلْمُهَا أَنَّ تَفْتَخِرُ بِنَهْدِيهَا الصَّغِيرِينَ، وَعَنْقَهَا الْأَبْيَضَ الصَّافِي كَالرَّخَامِ، عِلْمُهَا أَلَّا تَسْتَسَلِمَ لِلْحَطْبِ وَأَفْكَارِ حَمَالَاتِ الْحَطْبِ.

تَسْتَمِرُّ الْحَيَاةُ ...

كُلَّ يوم يشبه الآخر، نفس الطقوس تتكرر وتحولها شيئاً فشيئاً إلى حمالة حطب، مجرد حمالة حطب، هِيَ الَّتِي كَانَتْ تحلم بأن تكون أميرة في بيت سمير.

ازدادت التشققات على ظهر يديها وراحتها، وازداد احمرار وجنتيها بسبب البرد القارس، كان سمير ينظر إلى وردته تذبل شيئاً فشيئاً، وتتحول إلى كائن جبلي متعب لا يرغب إلا بالنوم باكراً ليستيقظ باكراً ويبدأ سلسلة الشقاء العذاب الأزلي، ماء، حطب، كنس، حطب، عجين، غسيل، تنعب آلة الزمن وعلى المرأة القروية ألا تنعب.

لَيْسَتْ هُنَاكَ فرصة لتعي شقاءها، سيليا انخرطت في الشقاء اليومي وسمير يراقبها من بعيد وهي تتفقت من بين يديه، وتذبل. تموت أمام ناظريه، يعود من العمل ليصعد إلى غرفة فوق السطح يجرب جملاً موسيقية أمازيغية على الأورغ أو على القيثارة ويكتب للنار المحرقة.

مع مرور السنوات، حدث شرخ كبير بيننا، توقف عن الاتصال بي وعن استقبال مكالماتي، وكان له عالمٌ خاصٌ جداً، عالم من النار والدخان، كان قد ترك النار تحرقه، وترك الأمواج تغرقه، سرطان الأيام العادية استشرى في جسد الحياة التي كانت تجمعنا، كنت دائم التعلق به، وكلما اقتربت منه ازداد بعداً، كان يعيش يوماً بعد يوم من أجل نفسه فقط، والفلسفة التي كنا نقتنيها من نيتشه أصبحت متجسدة في واقعنا، وحين نلتقي بعد جهدٍ كبيرٍ من التنسيق وضبط المواعيد يجعل حديثه عميقاً لدرجة مخيفة جداً، كان دائماً يقول:

«أريد أن أكون أنانياً، أحب الأنانية، الأنانية لَيْسَتْ هِيَ أن تكره الآخرين، الأنانية هِيَ أن تحب نفسك بما تستحقه من حب، إننا نهمل ذواتنا حين نحب الآخرين ونهتم بهم أكثر من أنفسنا سأضع نفسي في المرتبة الأولى، وبعدي الآخرون مهما كانوا».

وحين يقول هذا الكلام ينفخ صدره منتصباً كأنه يفتخر بكيانه، يقصد بكلامه أنه سيكون أكثر اهتماماً بنفسه من الآن، يؤلمني أنه يضع صداقتنا جانباً في نقاشاته، إما أنه يرفعها فوق مستوى النقاش أو أنه يهملها، أو أنه يحدثني كأنه الأخرى.

«الأنانية هِيَ حب الذات، حبها بشكل يرضي الذات عن نفسها، والأنانية لَيْسَتْ هِيَ كره الآخرين أو التخلي عنهم».

هكذا يتحدث وهو يرفع لوح كتفه إلى الورا.

الأيام التي خلت نقاشاتنا قرب الساقية أثبتت أنه كان أنانياً حقاً، ليس كما نظر لأنانيته ولكن كما هي في حقيقتها السلبية المريضة، مجاملة الذات ترفع المعنويات ولكن تضخم الأنا يقتل الإحساس بالآخر، هذا الآخر لم يكن سيليا، سيليا كانت هناك في البيت، أخذت مكانها المناسب في دورة أشغال البيت اليومية رقيقة باقي نساء العائلة، بدأت تسمن لتبدو امرأة ناضجة وتتنظر الحمل الأول. الآخر كان أنا في هذا المشهد البئيس، ولكني لا أعلق أبداً، أراها نقاشات وتأملات بعيدة عن علاقتنا ومحيطنا كما أن دعوة أحدهم للاهتمام بالذات لَيْسَتْ شيئاً سيئاً إلى هذه الدرجة، ولن أكون جسداً للأنانية في جميع الأحوال.

هكذا وفرتُ عَلَى نفسي مشاق العتاب الحزين، واستهلاك كلمات جديدة من قاموس الصداقة؛ لِذَلِكَ كان عليّ أن أنزلق دومًا نحو الأمام وأحدثه عن مشاريعه الموسيقية، فهو يجهل دائمًا تأثير تنظيراته البائسة عليّ، أنا المستعبد دومًا من الكلمات، وأدقق إلى حدٍّ كبيرٍ في أشياء يقولها الآخر مهما كان، فالكلمات لها وقعٌ كبيرٌ عَلَى جسدي النحيف، إنها تتخرنني من الداخل، وَكَأَنَّ لديّ خطط كثيرة لتفادي الإحراج، إحراج نفسي أمام الآخرين، ألوذ بالصمت الحزين أحيانًا، فالضعف أمام الكلمات ضعف أمام الإنسان، وأنا أكره الشفقة، أفعال الأشياء الصحيحة دائمًا تفاديًا للشفقة وطلب المغفرة، والطريقة المثلى للدفاع عن النفس ضد شر الكلام هي الصمت. الصمت المقدس الذي يبرز عَلَى جبينه سطر من الشعر الفروسي القديم، الصمت القوي الذي يمنع عنك التوسل، توسل التوضيحات وتوسل الاعتذارات، الأدهى توسل العواطف والحب.

في حرب الغموض عليك أن تصمت في انتظار بهجة الوضوح.

ربما يحقق الصمت ما لم يحققه الضجيج؛ لِذَلِكَ قررت أن أدخل فوهة السكوت وأن أدفع ثمن تذكرة الدخول من تاريخي.

ويستمر في الكلام وأستمر في الاستماع:

«إن ما أحاول قوله هو أن عَلَى الإنسان ألا يحتاج إنسانًا آخر، هذه هي الأناية أي التفكير المتمركز حول الذات، لإبعادها عن الاحتياج المهيمن للآخر، مهما كان هذا الآخر؛ لِذَلِكَ أدرب نفسي عَلَى الاكتفاء الذاتي العاطفي، نعم هذا هو المصطلح الذي يمكن نحتة الآن من خلال هذه الأفكار، الاكتفاء الذاتي من المشاعر والأحاسيس، وردود الأفعال والأفعال المضادة، والتصرفات والمبادرات وأخذ القرارات، سواء العادية اليومية أو المصيرية التي تحددنا منعطفات الحياة الكثيرة، أعتقد أن عَلَى كل إنسان أن يكتفي بما يدور في داخله وأن يعدل مزاجه دون حاجة للآخر، وأن يكون ممسكًا بدفة سفينته، الأمر أفضل هكذا فالبحث عن التوازن خارج الذات أمر لا طائل من ورائه ويورث التواكل عَلَى الغير، فليس دائمًا هناك آخر في انتظارك مهما كان مقربًا منك، ليس لأن الآخر جحيم، لا، فقط سيكون من الأجل أن تكتفي بذاتك وألا تحتاج إنسانًا آخر إلى جانبك في كل لحظات حياتك، إنه نوع من الاعتماد عَلَى الذات».

حين كان يقول ذلك، بدأت ملامح جديدة تتطبع عَلَى ملامحه، نوع من القوة والجبروت الأناي، فرح بنجاح استدلال يبدو له منطقيًا، أفكار بدأت تنشط أمامي وتسبب لي حساسية مفرطة، فكثيرًا ما اشتركنا عبر الرسائل الهاتفية كلمة: «أحتاجك». التي كانت إنذارًا حقيقيًا لهزة عنف عنيفة تقتضي لقاء عاجلاً لصديقين، ها هو الآن يستعملها كعلاقة غياب وضعف، بدت لغته قاسية التركيب وصعبة الفهم، لا واقعية باهتة، شعرت بالتوتر، ولكني شغلت الآلة الدفاعية التي خزنتها لحين انحراف الكلام، الصمت، الصمت المطبق.

لمآذا الصمت؟

لأنني حين أكون في موقع المتهم يُسجّل كل شيء ضدي ولا يحق لي اتخاذ حمام. حتى الخير ينقلب شرًا. وكل ما أقوله ينسكب دماء على صورتي، حتى الكلام يصبح سيفًا حادًا في يد من يحادثك، ويقطعك من الداخل أيضًا. أصمت لأنني لا أجد الكرسي الوثير في القلب الذي كان يسمح لي بالتحدث بصفاء وعفوية. أصمت لأنني لا أحادث شخصًا واحدًا بل عالمًا مركبًا من أفكار متناثرة وشخصيات متعددة؛ لأن أعصابي تخونني وأنا أتكلم فتصبح كرامتي رهينة بصبري وكثيرًا ما أفقد صبري.

وفي غمرة انشغاله ببناء استدلاله اللغوي ونحت مفهوم الأنانية، كان أنانيًا بحق فهو ملأ أذني باحتمالات ألا أحتاجه ويحتاجني يومًا، كأنه يعلمني منطق التخلي عن الأحياء، كما قالت الشاعرة الفرنسية أندريه شديد. جسد تحليله بدأ يذبل ويمرض كوردة متروكة خلف زجاج شرفة في مزهريّة ندف ماؤها، فجأة انتبه سمير إلى شرودي الذي سببه انشغالي في البحث عن المحرك الدفاعي الصامت.

قال:

«حين أكون قويًا أستطيع أن أعطي، وأن أسمح بأن يستند الآخرون إلى كتفي، وهناك دومًا استثناءات فأنت مثلًا ستكون دومًا هنا، لا فرصة لأحتاجك أو تحتاجني، فأنت دومًا وأبدا بقربي».

هذا الاستدراك الرومانسي الخارج عن المنطق الأول جعلني أحس بالتوتر أكثر، و ببعض الغباء الجميل الذي عبرت عنه ابتسامة منفلتة مني. نصف ابتسامة لم تجد من يرسم حواشيها على وجهي الذي اكتسى مسحة بلاستيكية، وكنت أعرف أن انجرافه في التحليل سيؤدي به إلى إيذائي بشكل أو بآخر، إيذائي بدون قصد؛ لأن بعض الكلمات تؤثر عميقًا في القلب رغم أنها لا تؤثر فيه فورًا، إنها تبقى هناك ضمن مكون سلبي لا تفرج ولا تمحي، مغالاته في تذكيري باستثنائيتي بعد حملة اللااحتياج التي شنّها في خطابه لم تزدني إلا توترًا، توتر كضمته وسحقته بالضغط على أسناني، المصطكة أصلاً بسبب البرد في هذه الجبال العالية، بلعته بحرقه كي لا يلاحظ تأثري بما يقول، أو لا كي لا أبدو ضعيفًا بشكل لا يليق كإنسان. وثانيًا لأن الأمر قد لا يستحق كل تلك الجلبة التي تحدث داخلي. وثالثًا، قد يكون سوء ظن خطير مني تجاه صديق يتحدث بطلاقة وعفوية قد نقل كلما رميته بملاحظة من هذا النوع، فإن يبدأ الأصدقاء في اتخاذ احتياطات في الكلام، في التوقف قليلاً قبل إلقاء فكرة، في التردد واستقراء الآخر وردود فعله مسبقًا أمر يدعو للفشل. كما يقطع الطريق أمام الاستمرار العفوي؛ لذلك أحتاط كثيرًا في التعبير عن انزعاجي من كلامه رغم أنانيته المفرطة.

كنت أعتمد على الصبر أكثر مما أعتمد على التلقائية، كنت متوترًا إذن هذا كل ما في الأمر، أصبحت نقاشاته توترني، وأن يظهر توترني أم لا هو أمر ثانوي، لا ينفي أنه موجود وأنه مؤلم بطريقة بشعة، توتر سينتهي بعد قليل، بعد أن تشتغل المحركات بقوة أكبر.

إنهاء نقاش معه لا يفيد في شيء وتركه يتحدث حول مشاريعه الخاصة أمر محير، فهو كثير التنظير وقليل التنفيذ، ولا يحب المشاريع المشتركة، يحب العمل وحده على قطعة موسيقية من كتابة الكلمات

وتلحينها، حتّى عزفها وتسجيل العزف على الحاسوب، آلة الأورغ الخاصة به ترتوي من أصابعه وحده، لا تعرف غيره، لها غرفة خاصة تسكنها وحدها يشتغل بعيداً عن الناس وعن الفنانين الآخرين.

ربما كان يهرب من الأنانية ويحاول أن يصوغها بشكل جميل يرضى عنه، الاهتمام بالذات لا يتناقض مع الاهتمام بالآخر، هذه هي المعادلة التي حاول أن يحلها دون أن يغرق في ذاته، ودون أن ينتظر وجود الآخر، لكنه تمادى حقاً في إحاطة نفسه بالعناية المركزة.

من مظاهر ذلك أيضاً اعتناؤه المفرط بكتابة اسمه بأشكال جرافيكية متعددة، على الدفاتر والأوراق الطائرة، وتخطيط هوامش مذكرته بالحروف الأولى من اسمه، بالأحرف العربية واللاتينية وكذلك بحرف تيفيناغ الأمازيغي. بألوان مختلفة، على غلاف مذكرة حمراء، ألصق صورة بوب مارلي وساحر إفريقي أسود يرتدي عشرات التمايم الملونة، منها الكثير من أصداف البحر، قطع صخرية مصقولة والكثير من العقيق، بوب مارلي يضحك ملء شذقيه والساحر ينظر نحو السماء كأنه يستجدي قوة عظمى، وكتب تحتها بخط كبير:

يا ابن الصلصال؟

أندع النار تحرقك؟

أندع البحر يغرقك؟

سواد اللوحة ومضمونها، بوب مارلي والنار أشياء أشعرتني بالترزز والخوف، تساءلت حينها متى كتب هذه الأشياء وفي أية حال كتبها، لا بد أنه طقس أسود لنفسية سوداء مر بها.

قال متحدثاً إليّ مرة أخرى:

«لا تخف، كل شيء هنا سيؤول إلى المحرقة، أتعرف المحرقة؟ هل تتذكرها؟ إنها هي نفسها منذ أيام مركز التكوين. محرقة الحروف السوداء، هذه المذكرة أيضاً ستنتهي في المحرقة، سأخلص منها ومن المشاعر المبتوتة فيها.

أتمتع برويتها تتحول إلى دخان، لكن هذا لا يتم إلا بعد منتصف الليل، حيثُ الظلام والصمت، أغلق باب غرفتي العلوية، وأطفئ النور، أشعل محرقة في المجرم المعدني الصغير.»

يا له من طقسٍ بانسٍ وحزينٍ، أن يكتب ثم يحرق كل ما كتبه بعد منتصف الليل.

قال:

«ليس طقسًا بانسًا، إنَّه لعب فقط، لعب ناري محرق، لَكِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ أُتَسَوَّلَ شَخْصًا آخَرَ لِيَنْصِتَ لِهَمُومِي الصَّغِيرَةِ الَّتِي قَدْ تَبَدُّو لَهُ بَانْسَةٌ وَحَزِينَةٌ كَمَا قَدْ تَبَدُّو مِنْ بَعِيدٍ، الْبُؤْسُ وَالْإِهَانَةُ هِيَ أَنْ نَحْتَاجَ شَخْصًا يَفْهَمُنَا أَوْ يَدْعِي فَهْمَنَا، ثُمَّ يَتْرَكُنَا بَعْدَ ذَلِكَ عَرْضَةً لِلزَّمَنِ نَتَّصِدُ فُرْصَةَ الْلِقَاءِ وَالْحَدِيثِ».

هَا هُوَ قَدْ عَادَ مَرَّةً أُخْرَى لِلْحَدِيثِ عَنْ رَغْبَتِهِ فِي الْوَحْدَةِ وَالتَّوْحُدِ بِذَاتِهِ، وَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيَّ وَلَا إِلَى وَضْعِي قَرِيبَهُ كَشَخْصٍ بَانْسٍ. لِي أَيْضًا مَنْطِقٌ وَحْدَةٍ فِي صَمِيمِي وَلَكِنِّي لَا أَصْرِفُهُ تَجَاهَهُ، أَنَا الَّذِي تَرَكْتُ بَيْتَ الْعَائِلَةِ لِأَبْقَى وَحْدِي، فَعَلَّتْهَا دُونَ تَنْظِيرِ مَسْبُوقٍ وَدُونَ مَحَاضِرَاتٍ فِي الْإِنَانِيَّةِ، وَلَمْ أُوذِي أَحَدًا بِقَرَارِي، وَسَمِيرٌ لَمْ يَتَّخِذْ بَعْدَ قَرَارًا وَهَا هُوَ يَشْطِطُ فِي اسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ الْوَحْدَةِ وَيُرْمِي بِهَا فِي وَجْهِ.

شَيْئًا فَشَيْئًا بَدَأَتْ مَعَالِمُ مَدْرَسَتِهِ الْفَلْسَفِيَّةِ تَتَّحَدُّ، هُوَ لَا يَرِيدُ أَنْ يَحْتَاجَ عَاطِفِيًّا لِشَخْصٍ مَهْمَا كَانَ مَقْرَبًا إِلَيْهِ؛ لِذَلِكَ يَجْرِبُ التَّخْلُصَ مِنْ كُلِّ مَنْ يَرْتَبِطُ بِهِ عَاطِفِيًّا، وَكُلِّ مَنْ يَحْسُ تَجَاهَهُ بِرِبَاطٍ عَاطِفِيٍّ مِنْ جِهَتِهِ، حَتَّى وَالِدِيهِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَضَعَ مَسَافَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، يَرِيدُ أَنْ يَجْرِبَ الْحَدَّ الْأَقْصَى فِي كُلِّ تَجْرِبَةٍ، وَمِنْهَا هَذَا الْاسْتِقْلَالَ الْفُطَيْعَ عَنِ الْآخَرِ مَهْمَا كَانَ هَذَا الْآخَرَ، وَقَدْ سَاعَدَتْهُ الْمَحْرَقَةُ عَلَى التَّخْلُصِ مِنَ الرِّغْبَةِ فِي الْبُوحِ، حَتَّى أَمَامِي، الْمَحْرَقَةُ وَالْقَلَمُ وَالْوَرَقَةُ، وَحَتَّى هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْجَامِدَةُ الَّتِي لَا تَحْسُ وَلَنْ تَرْتَبِطُ بِهِ عَاطِفِيًّا لِأَنَّهَا جَامِدَةٌ، اعْتَقَدْتُ أَنَّهَا قَدْ تَسْتَعْبِدُهُ، فَكَانَ يَتَخْلَصُ مِنْهَا حِينًا، وَيَكْتَفِي بِالْعَزْفِ عَلَى آلَةِ الْأُورْغِ حَتَّى تَمُرَ تِلْكَ الْعَوَاصِفُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي يَحْتَاجُ فِيهَا الْإِنْسَانَ إِلَى إِنْسَانٍ آخَرَ، إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، إِلَى ذِكْرِي، إِلَى لَمْسَةٍ، إِلَى اتِّصَالٍ، تَخْلُصُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْعَوَالِقِ النَّفْسِيَّةِ الْخَارِجِيَّةِ لِيَكُونَ مَكْتَفِيًّا بِذَاتِهِ، وَتَحَوَّلَتْ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى مُؤَنَسٍ يُوَثِّقُ الْمَشْهَدَ الْاجْتِمَاعِيَّ فَقَطْ فِي نَظَرِ الْآخَرِينَ، اسْتَمَرَّتْ تَنْظِيرَاتِهِ حَتَّى بَلَغَتْ حَدًّا مِنَ النُّضْجِ الدَّاخِلِيِّ، يَقُولُ لِي أحيانًا كَأَنَّهُ يَحْدِثُ نَفْسَهُ:

«لَنْ يَسْتَطِيعَ أَيُّ شَخْصٍ أَنْ يَسْتَعْبِدَنِي سِوَاءَ بِالْخَيْرِ أَوْ بِالشَّرِّ، حِينَ تُكُونُ مَكْتَمَلًا وَتَحْتَوِي عَوَاصِفَ قَلْبِكَ، وَتَصَارِعُ الْأَمْوَاجَ وَحَدِّكَ، تَتَنَصَّرُ وَتُكُونُ سَيِّدَ نَفْسِكَ، مَلَكًا عَلَى الْأَرْضِ الشَّاسِعَةِ فِي دَاخِلِكَ، أَمَا حِينَ تَحْتَاجُ صَدِيقًا أَوْ شَخْصًا أَوْ طَقْسًا لِتَجْتَازَ مَمَرَاتِ التَّقْلِبَاتِ الْمَزَاجِيَّةِ فَأَنْتَ عَبْدٌ لِلظُّرُوفِ وَعَبْدٌ لِالْآخَرِ، كَنْ قَوِيًّا بِذَاتِكَ فَقَطْ، وَمَكْتَفِيًّا بِرَدُودِ أَعْمَالِكَ».

حَدَّثْتَهُ بِبَسَاطَةٍ عَنِ اسْتِحَالَةِ الْأَمْرِ وَأَنَا خَلَقْنَا لِيَسْنَدَ بَعْضُنَا بَعْضًا، وَكُنْتُ قَدْ تَعَلَّمْتُ أَلَّا أُجَادِلَ شَخْصًا بَلَغَ بِهِ الْحَمَاسَ مَبْلَغَ التَّهْوَرِ، وَبَلَغَ مِنَ التَّنْظِيرِ مَبْلَغَ الْمَبْشَرِينَ بِالْإِنَانَاتِ الْجَدِيدَةِ. الْأَمْرُ أَشْبَهَ بِمُوَاجَهَةِ الْأَمْوَاجِ بِسَطْلِ مَاءٍ عَذْبٍ، رَدُودِي تَعْنِي فَقَطْ أَنِّي هُنَا وَأَنِّي اسْتَمَعْتُ لَكَ فَوَاصِلَ كَلَامِكَ.

وَكَانَ يَحْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَقَةً صَغِيرَةً صَفْرَاءَ، وَيَقُولُ لِي:

«هَلْ تَرِيدُ أَنْ أَقْرَأَ لَكَ مَا أَكْتُبُهُ عَلَى هَذِهِ الْأُورَاقِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي سَتَهَاجِرُ بَعْدَ قَلِيلٍ وَتَصْبِحُ دَخَانًا رَمَادِيًّا، هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي سَتَمُوتُ حَرْفًا حَرْفًا، وَتَنْتَهِي وَتَصْبِحُ عَدَمًا، هَذِهِ الْإِعْتِرَافَاتُ الَّتِي لَنْ أَقُولَهَا يَوْمًا أَمَامَ إِنْسَانٍ سَيِّرَانِي ضَعِيفًا، أَكْرَهُ أَنْ أَبْدُو ضَعِيفًا، أَنْ أَكُونَ عَبْدًا لِلضَّعْفِ، انظُرْ كَيْفَ سَأَحْرَقُهَا بِتِلْذِذٍ شَهِيٍّ».

طقس المحرقة طقس دخاني ليلي، ليس فيه سوى مرحلتان مهمتان، مرحلة الكتابة والبوح للورقة ومرحلة إشعال المحرقة ورمي الورقة لتتحول إلى دخان ورماد وقطع سوداء متطايرة في الغرفة. إنهُ طقس مريض لا يعني شيئاً بالنسبة لي مثلاً، عدا عينيه البراقنتين اللتين تتوهجان أثناء اشتعال النار وحركاته الغريبة التي ترافق دفع الورقة نحو المحرقة، فلا شيء غير عادي في نظري غير التخلص المرضي من أوراق بها جمل من لغة الروح.

قدم لي ورقة لأرى ما كتبه فيها قبل حرقها لأنه لا يريد أن تكون للورقة أهمية قصوى تحد من حريته، فكان سماحه لي برؤية ما فيها تحدياً لسلطة السر نفسه، وقد كتب عليها أشياء مبهمة وواضحة في نفس الوقت.

«إلى المحرقة ...»

لقد قررت أن أكون غامضاً بالنسبة للآخرين، أن أبدو غريب الأطوار، سأفعل فقط ما يمليه عليّ عقلي، ما أريده، ولن أكرث لعاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم، إنهم أغبياء ولا يستحقون أن أوليهم اهتماماً، سأفعل ما أريده فقط.»

«إلى المحرقة ...»

أعرف أنني سأموت لكني لا أعرف أجلي، وهذا أمر محير، لكنهُ سيكون أشد حيرة حين أعرف أجلي، الأفكار المريضة التي تمنعني من السير في حياتي يجب أن أسجنها داخلي أو أكتبها هنا لتحترق وتبتعد عني، أحياناً يُخيل إلي أنها أفكار شيطانية صرفة فأشعر بالخوف، ليس من الشيطان بل من نفسي، من اعتقاداتي التي تبدو لا منطقية ولا إيمانية؛ لذلك أكتبها لتحترق.

فشكراً لك أيتها المحرقة، أيتها النار المحرقة، شكراً بقدر النار في داخلك وداخلي.»

«إلى المحرقة ...»

إنها المحطة الأخيرة لصياغة شخصيتي بعيداً عن الجميع، لن يرضوا عنك مهما فعلت لأجلهم؛ لذلك عد إلى ذاتك وارض عنها وراضها فهي وحدها ستبقى لصيقة بك، لن يرضى عنك هؤلاء القوم فكثيراً ما اتبعت ملتهم ولم يرضوا عنك. ما يجب أن تفعله هو أن تلتفت حول ذاتك وأن تعيش حياتك دون أن تلتفت إليهم؛ ليقولوا ما أرادوا وليفعلوا ما أرادوا وافعل ما تأمرك به نفسك فقط.

فشكراً لك أيتها المحرقة، أيتها النار المُحرقة، شكراً بقدر النار في داخلك وداخلي.»

«إلى المحرقة ...»

الأصوات المحزونة التي تسكنني وتبتغي الرحيل بعيداً عن صدري لا تجد الشجاعة الكافية للسفر فتبقى داخلي تواسي بعضها بعضاً، الدفء الذي يسري بينها يجعلها مترددة في البعاد فترقد في سلام كقصائد قديمة منسية على جدران كنيسة في الريف النيجيري حيث القس الأسود البشرة ما زال متشبهاً بتعاليم روما، وحوله رعية من القرى المجاورة مؤمنون بلا حدود، يقطنني شعب من المحزونين أربلت على حزنهم كل مساء بعد صلاة الوتر.

فشكراً لك أيتها المحرقة، أيتها النار المحرقة، شكراً بقدر النار في داخلك وداخلي.»

كُلُّ هَذِهِ الأوراق؛ الرسائل تنتظر الجحيم الحارق، تتوالى حسب الدور، هُنَاكَ رسائل مستعجلة تُرمى على الفور، وهناك رسائل بالبريد العادي مصاعة بالمجاز المرسل على نار هادئة، وهناك رسائل إلكترونية من كلمتين: «أكره النفاق» أو «أكرهك» أو «سأنتقم» هذه مثلاً تلقى على وجه السرعة كي تخدم على الفور، وهناك رسائل طويلة من فقرتين أو أكثر استطعت تهريبها والتقاط صورة لها قبل حرقها، هو طلب مني ذلك؛ لأنها لم تكن ترتبط بواقعة محددة أو حدث محدد بل مجرد خواطر متفرقة.»

«إلى المحرقة ...

دومي متقدة عزيزتي ...

ذات ليلٍ حالِكِ الفرح، همهمات منغمة كأنها موسيقى تتبعث من روح نعسانة، خشخشات أوراق التين اليابسة ترقص في الظلام ملء ما تبقى لها من حياة. وأنا، أنا أيضاً هُنَاكَ أجمع في كفي ما تبقى من حبات الأرق وأزرعها في بستان جدي المُسيِّج بالزمن، أنا أيضاً هُنَاكَ أحاول اصطياد نغمة شاردة من سيمفونية الوجد كي أصير راقصاً بالبالغ الانسجام مع جسده. أقف مزهواً في حزن عميق كبير وحيدة في الواحة، بئر وكح***** ماؤها وما تبقى منها إلا جذع منخور وحبال راشية، ودلو مقبوب من شدة الحر تفتت. شموشي إذن لن أبنيه من تاريخي بل من حاضري ومستقبلي.

فشكراً لك أيتها المحرقة، أيتها النار المحرقة، شكراً بقدر النار في داخلك وداخلي.»

وشرعت بضيقٍ غريبٍ ينتابني وأنا أستمع إليه وأقرأ هذه المحروقات من المشاعر، حصار ذهني ألم بي. رافقته إحساسات متناقضة، وضعي الاعتباري أمام النار المتقدة التي تأتي على أوراقه التي يبثها حزنه وفرحه وقراراته. شعرت برغبة في الانسحاب من هذا المجال الذي أصبح يضيق بي يوماً بعد يومٍ.

قلت زيارتي للقرية التي يقطن فيها ويعمل بها مدرسًا مثلي، شيئًا فشيئًا، فتحولنا من صديقين حقيقيين إلى صديقين يقتاتان على التاريخ الشخصي الذي جمعهما. يقول لك صديق إنهُ اكتفى منك وعوضك بالنار المتقدة، ولم يكلف نفسه عناء إرسال إشعارٍ بسيط بتغيير رقمه الهاتفي، وأشياء أخرى تحدث أو لا تحدث، ما لا يحدث أشد إيلامًا، لكن الشق الذي ظهر في قطعة الفخار يتسع. كان لا بد من مجمّد على الأقل؛ ليجمد الصداقة في قمة ازدهارها ويتركها في وضعية انتظار دون مس بالجوهر، وكنت حزيبًا من أجل ذلك. احتجت أن نكون معًا بالرغم من المسارات المتباينة التي اتخذتها حياتي وحياته.

وآخرُ انطباعاتي عنه كانت صورة الحزن التي حملتها في عيني بعد أن طالعتُ ورقة أخرى من الأوراق المحكوم عليها بالموت حرقًا حية مع ذرّ الرماد عبر الشباك الحديدي للنافذة المطلّة على جبال الأطلس الشاهقة. صورة قلب منفطر العروق ويابس البطين، قلب لا أدري كيف احتضن جملة الألم واكتسى بالعنف العاطفي وانفطر أسي. وأنا أقرأ ارتسمت في ذهني شخصيته الجديدة التي تحترق كل ليلة أو ليلتين. كأني اكتشفت شخصًا آخر موازيًا للذي كنت أعرفه قبلاً. ما أن يضع أصابعه على الأورغ حتى يستحيل كتلة نغمات عنيفة، مرتبة وعميقة. تطاوع الأزرار أصابع حزنه وترقص على خرابه.

«إلى المحرقة ...»

مللت مني ومن الحزن المتربص بي في طرقات المدينة وشعاب القرية، والأرصفة التي تختزن ما لا نهاية له من الخطوات، في ظلال أشجار الإيزار الكاذب وزوايا الأسوار المريضة بسرطان الذاكرة. صخور الجبل التي تسقط على جنبات الطريق وتسبب الانقلابات العاطفية، كل أضواء السيارات التي تنبهني إلى أنني ساموت اختناقًا بأحمال الصمت وأثقال الرؤى ومزيج غير متجانس من الصمت والصمت المضاد.

ما بي غيرُ وردة نبتت بين أشواك الأيام، تنتقي تويجاتها بين دم وسراب، غريب أنا عن نفسي ونفسي ترتوي من فيض الألم المقدس الراقد في ثناياي وطيات روعي التي تجلجل كقفير نحل قتلت ملكته غدراً من إحدى العاملات واستعمرته الديدان.

ما بي غيرُ ضعف ألم بي بين فرط في جلد ذاتي وتقريط في دفع الآخر المعتدي على كينونتي. بدءًا من اليوم لن أدع نفسي تفرط في الاعتداد بالآخر المنسي. الآن وأنا أكابد مرارة تعديل مزاجي وحصر الجنون داخل جمجمتي.»

«أيتها المحرقة ...»

احرقي أفكارى السوداء، سأجنُّ يومًا وأنا أحمل هذا البركان من الأفكار المسمومة والثقيلة؟ جمجمتي خزان تعب حديدي ولكنهُ قابل للصدأ، قابل للانصهار من حمى التفكير.

أنا قطعة رمي معلقة للجدار، كل من يريد أن يلعب ويقيس درجة تمكنه من التسديد يصوب السهام نحوي. قد يصيبني في مقتل وقد يخدش كتفي، وقد لا يصيبني لكني أظل معلقاً لجزار بانس.

سقفنا تنز، إننا نعتمد دوماً على القش لبناء مساحاتنا الداخلية؛ لذلك نقطر عند أول يوم مطير وتظهر مخاوفنا. كلما احتقن الجسد، ظهرت بثور حمراء فوق الجلد، كذلك نحن حين نتأزم تظهر عقدا وتطفو كلها دون استثناء. علينا أن نسقف أملنا بالإسمنت المسلح أو نتركه عارياً للسماء حتى نغسل بالماء والبرد. رغبة متصاعدة من الكيان الآخر لنا. قبيلة أخرى من مضادات الفرح.

سأهوي داخلي بسبب قطرة الفزع التي تعصف بأسفقي، سأسقط ووقفاً، سأسقط ...

إن مواصلة الانحدار نحو الأسفل تورث الفزع، الأمر ليس سهلاً، التراجع مرفوض في قانون الحزن الجميل، ما كانت الأمور لتكون أفضل مما هي عليه الآن، الأمر محض قرار بسيط جداً، لكنه مكلف ولا قرار له، وأنت تغرق لا تمد يدك لحواف البئر التعيسة، لا تتمسك بالحواف العشبية. كن قوياً حتى في سقوطك، حينها فقط تترج أعماق الأرض فترفعك نحو السماء ببركان من الحمم الحمراء الدافئة وستكون سعيداً ملء حزنك.

أريد أن أسقط.

فشكراً لك أيتها المحرقة، أيتها النار المحرقة، شكراً بقدر النار في داخلك وداخلي».

كانت الورقة طويلة منزوعة من دفتر قديم، لم ألمسها بيدي فقد أرسلها كصور مرفقة برسالة فارغة على البريد الإلكتروني، وكان السؤال المعلق هو: لماذا أرسلها لي؟ هل اعتقد أنني نارٌ محرقة أخرى؟ هل يراني جماداً لا ينفعل وعليه فقط استقبال شاحنات الإفراغ دون كلام، دون انفعال، دون سؤال؟ كنت أقرأ وأقرأ ولا أفهم سر حزنه العميق هذا، ولا بؤرة توتره ولا أين تتكون جملته.

ومشيت، مشيت فقط على رصيف مبثّل بمطر فبراير في مدينة مسكونة بالآهات والرسائل الإلكترونية الحزينة.

لم أحبه على رسالته الفارغة وفضلت أن أصمت كعادتي حين تختلط لدي الأوراق، انكملت وتركت الأمور تسير كما أرادها هو، كما رتبها هو بقراراته البسيطة جداً.

مساري متبل بالواقعية ومساره مغموس في التجريد، يصنع كل حياته فقط في ذهنه ويعزف على الأورغ واقعه الحلمي، يتعاقب على المحرقة والأورغ ليتخلص مما حوله، كان مغروراً ولديه فائض كبيراء.

علمتني الحياة أن الفائض في كل شيء يؤدي، ولأنّ التعاسة كانت تحبو قربنا بسبب قراراته غير المحتملة كان لي قراري البسيط أيضاً، أن أبتعد وأجرب المسافة، وأترك له فائضاً من الوقت ليفكر

ويجرب على نفسه نظريات المخرقة. وكان يحرق بين الحين والآخر علبة رسائل الإلكترونيّة بصورة لرسالة مقبلة على الاحتراق، كأنه يشركني في طقسه دون إذني، وأنا أكره طقوس النار الزرقاء، صداقتي صخرية وواقعي مائي. قررت ألا أهتم.

مقطوعاته الموسيقية التي تمزج بين العصري والشعبي تزداد حزنًا يومًا بعد يوم، تابعت كل إنتاجاته عبر محطة الراديو الخاصة به على الشبكة العنكبوتية وعلى موقع اليوتوب، كنت أسجل إعجابي باسم مستعار. لم تحولنا إلى كائنات مستعارة؟ لم أصبحنا نخفي وراء أكثر من اسم في عالم تتعدد فيه هويات الشخص الواحد؟ كأن تعاسة شخصية واحدة لا تكفيها. ها نحن نعدد وجوهنا هروبًا منّا فأذا بنا نتعدد في فتوحاتنا الأليمة ونستثمر في براكين حزننا الأبدي.

سنتقي ذات جرح حين يصبح كل شيء في درجة الرنين، حين نهتر في دواخلنا ولا يسعفنا إلا الماضي والكثير من الحنين.

ولأنني اخترت ممر الراحلين وتوجهت عنوة إلى أقصى جزء من الذاكرة تكومت على نفسي وصنعت لي فسحة فرح صغيرة، أنتعش فيها بين حزن وحزن. لن أموت كمدًا لن أموت بعدًا، لي حق على نفسي ولنفسي علي حق.

رحلت فقط.

يحدث للصدقة أن تعني كل شيء في لحظة ما، لحظة لا يكون فيها الصديق بصدد بناء نظرية اكتفاء ذاتي غريبة.

رسالة جديدة من سمير ...

«من يغرق في السمفونية الستين من بحيرة الفزع لن تبليه ألوان قوس قزح، سيبقى ملوثًا بالرمادي المنتمي للطريق السيار، حذاء أسود لامع كالفرافراق، ملمع كالنفق، سموكي محسوبة المقاس لا تتعدى ابتسامتين صفراوين، كل شيء جاهز لرقصة الوداع».

ما كان علي أن أفتح علبة الرسائل، التكنولوجيا تصنع تعاستنا باستسهال التواصل، هكذا تنتشر الحرائق بين القلوب في مدة وجيزة، سمير يشعر بالحزن، سمير مكابر، مقاوم لا يحب أن يظهر انكساره أمام أي كان، سمير يودعنا ليعيش في إقليم المودعين المفقودين، وأنا تعبت من محاولة فهمه، إنه يصر على إرباكي وإدخالي في دوامة الغموض والفزع المميت، إنه يعلم أنني أفقد قدرتي على التعاطي مع النيران الصديقة، وأني أعيش وحدي وأواجه الأرق كل ليلة، الخدوش الكثيرة على سطح القلب قد تتعمق لتغدو جروحًا غائرة، فالخدش على الخدش يحفر أخاديد في القلب.

يتحدث سمير إلى النار كأن الشمس لن تشرق غدًا، كان يتسلق نوتات توصله إلى أقاصيه النفسية وكأنه يتسلق حفرة لزجة الحواف، إنه يعبت بممراته السرية الداخلية ويجرب حروبًا بطابع لغوي

وطقوس نارية، سمير يسيئ إلينا جميعاً. يعبر بنا مجاهل البشرية ويختبئ وراء اللعة ويرمينا إلى النار المحرقة. وبعد ذلك، وأثناء وقبل ذلك، لفائف كثيرة من الحشيش، كان يحترق، وكنت أبتعد شيئاً فشيئاً عن مجال نيرانه، خصوصاً أنه بدأ يفصل قناعاته الجديدة وفق منطق أناني وحيد الرأي.

في هدأة الليل حيث الإنسان يتغىي السكون والسكينة يبعث سمير سلسلة رسائل حامية، يلومني ولا يلوم نفسه. نرجسية مطلقة تحيط به، وكنت قد فقدت الرغبة في الرد على رسائله التي تتضمن في طياتها ردودي التي يعلمها مسبقاً، تتضمن اقتناعه الأولى بأن هذه الرسائل لا تحتاج رداً. ولم تكتب ليحجب عنها أحد، وكأني هنا مجرد حاجب للنار المحرقة أو سفير الفقرات المنكوبة أو مستشار لجنة إعدام الكلمات. كلماته مثقلة بالغموض وأنا هارب من غموض الحياة، كلماته المشحونة بالحزن وأنا الفار من لهيب الأحزان. كلماته المغمورة في بودة عدم الاكتراث، أنا المحتاج إلى قليل من الاهتمام.

صديقي، إنها عتمة الدواخل ومناهات دهاليز الذات. يا ليتنا نعيش خارجنا كي نرتاح من وجع العمق فينا، أريد أن أرقص فرحاً بي وأنسى. أن تتخلخل صناديق الصحبة القديمة وتتهد عليك، وأن تتلفع مدارات الحب وتلتوى حول عنقك، وأن تتساقط قناعات جديدة كالتراب على قبر روحك، فتلك أشياء لا تنتهي ولا تمل من الحفر في جدار قلبك الهش أصلاً لأسباب تاريخية، لا أحد يرحمك في مواجهة المآسي الكبيرة، الكل يهرب لذاته ولا أحد يهرب معك. هكذا تسير الأمور سيدي، تلك الأشياء التي يجب أن تقنع محرقتك بها، ولكنها تأتي إلا أن تقول الحقيقة. حقيقة أنك مهوس فقط ببيع قلبك بالتقسيت الجريح.

تمتلك سيليا الكثير من الحب والصبر، مرت سنوات وهي إلى جانب سمير، ليس إلى جانبه تماماً فقد استطاعت الأيام أن تفرق بينهما، التعب اليومي يجعلها تنام باكراً، وطفلتها تحتاج أكثر من يد للمساعدة. العائلة والأشغال اليومية لا ترحم المرأة القروية، في اليوم السابع للولادة عليها أن تقوم لتتخرط في الروتين العادي. تقمط ابنتها وترضعها وتضعها في المهد الوردي وتذهب للمطبخ أو أنوال حيث الخبز الطيني لإعداد الطعام على الأقل ما دامت معفية بسبب الولادة من الأشغال الخارجية.

- سمير يمكنك الاعتناء بالطفلة في أوقات فراغك من العمل بالمدرسة.

- طبعاً عزيزتي.

ولكنه يترك الطفلة نائمة في مهدها ويذهب لغرفة الاستوديو ويضرب على أزرار الأورغ، أو يحملها معه في حمالة الأطفال ويضعها قربته وهو يعزف، تأتي سيليا بين الفينة والأخرى، تخرج ثديها المنتفخ بالحليب وترضع طفلتها في أي مكان كانت.

في عرف الأمازيغ ثدي المرأة ليس عورة، يمكنها أن ترضع وتعري صدرها في أي وقت وأي مكان، احتفاءً طبيعياً بالحياة، احتراماً واجباً لأس الحياة وأمومة المرأة. حيث الثدي منبع الحليب لا بؤرة الشهوة.

رغم اكتناز سيليا في أيام الحمل فإن الهزال والاصفرار بدأ يظهر عليها بسبب الأعمال المنزلية والشقاء الأبدي والرضاعة الطبيعية.

- سمير أنا متعبة، تعبت من كل شيء، يجب أن ننقل من هذه القرية، أريد أن أعيش بالمدينة لأرتاح قليلاً.

بدا طلبها مستحيلاً لسمير الذي كان يعيش روتيناً مريحاً بين المدرسة والبيت، بين الدرس والموسيقى، وعالم الدخان. زمجر في وجهها وقتل الكلام في فمها فتراجعت عن تعبها وأغرقت نفسها في الشقاء والإهمال، تبكي من شدة التعب وحدها في غرفتها وهي تغني بالأمازيغية الحزينة لابنتها، وهو في الأعلى في غرفة الأستوديو يجرب ألحاناً جديدة. صمم تصميمًا قاطعًا ورفض بشكلٍ حاسمٍ كما يتخذ جميع قراراته البسيطة.

الدخان يتصاعد ليل نهار من البيوتات الملتصقة بسفوح الجبال التي ترتدي أياماً باردة، تكتسي بالبياض. القرويون يغيرون من عاداتهم ويحرقون ما جمعوه من حطب أيام الصيف ويسبتون في بيوتهم معظم الوقت بسبب البرد القارس والثلج، حتى مواعيد المدرسة تتغير ويصبح النهار أقصر. وطأة الشتاء والبرد القارس تظهر على الجميع، وجناتهم وجباههم حمراء، يرتدون الجلابيب الصوفية الثقيلة والأحذية البلاستيكية العالية les bottes.

أمام عناد سمير لم تملك سيليا إلا الصمت، تعرفه جيداً حين يتحدث بكلام قليل وصارم كأنه يذبح الكلمات على صدره قبل خروجها، لاحظت أن مزاجه بدأ يزداد حدة يوماً بعد يوم، وقد استسلمت لعناده لأنها متعبة ولا وقت ولا جهد لديها للمزيد من التعب.

تضع المراهم لابنتها كي تحميها من حساسية البرد، تلبسها كنزات صوفية صغيرة وتلاعبها. كلما غيرت لها حفاضاتها تراها تمطط وتسرح رجليها الصغيرتين كأنها تحاول أن تكبر بسرعة، ما أن تجد فرصة التخفف من السراويل الثقيلة حتى تضرب بأطرافها وتمرح في عرائها وهي تضحك ضحكاً تنتشق له الجبال فرحاً. كركراتها تنتهي إلى الوادي وتذيب الثلج الذي يكسو شجر الجوز الكبير بأوراقه التي تخضر شتاء. حين تدغدغها أمها تنفجر ضحكاً ملائكياً خصوصاً حين تقبلها تحت قدميها الصغيرتين، وقد وضعت لها القليل من الحناء على عادة أهل البادية.

تكبر الطفلة يوماً بعد يوم.

اهتمام سمير انجرف كله نحو الطفلة، وكذلك فعلت سيليا التي لم تعد تهتم لا بنفسها ولا بسمير وتنام منهكة بعد أن ترضع الطفلة وتقمطها في مهدها.

ولأنها تستيقظ مرات ومرات كل ليلة لترضع من ثدي أمها فقد اضطرت سيليا لتتويميها قربها في السرير، فانسحب سمير إلى غرفة الأستوديو لينام هناك على أريكة إضافية.

يجعل الإهمال والحزن يتسرب إلى البيت رغم الحياة الجديدة التي تضحها الطفلة كل صباح وهي تستيقظ مبهجة بكل يوم جديد. ها هي تبتسم، تضحك، تقلد، تحاول أن تجلس تقف معتمدة على الأثاث، تقذف بألعابها، تكبر شيئاً فشيئاً والعالم من حولها يصغر.

سأخذ قراراً بسيطاً جداً، سأكف عن استقبال رسائل سمير، وأضع الحظر على بريده الإلكتروني وأرتاح من أنانيته المفرطة ولغته الحارقة، فهو لا يرحم نفسه ولا يرحمني من النار، ويبدو بعيداً جداً على أن يلتفت تجاهي وينظر بعين أخرى إليّ، إنه لا يرى إلا نفسه في هذا العالم الفسيح، سأتركه يعود لحجمه الطبيعي.

لم يكن الأمر بهذه الجدية من قبل، كانت مجرد نقاشات مطولة والآن تحولت إلى قناعات راسخة، كنا ندور في فلك الهذيان ومطلق الحريات والشك في اليقينيات إلى درجة العبث، وكنا نغير اهتماماً للتعبير أكثر من المضمون، ونقاوم الصمت بمزيد من الهلاك في بحر التعاريف، كنا نمارس التأمل الضاحج بالشعر والغناء ولا نهتم بالبرهان، كنا نبحث عن الفاعل، والنخلة قرب الدار القديمة في درب الصوف وصاية سيدي وسيدي والمتسولون من العجائز والمشعوذات المحيطات بضريح سيدي وسيدي الذي أثقلوه بالحجب والتمايم والأقفال، وشجرة التوت في قرية سمير كانت تنصت لحكاياتنا. أتصور لو أن الأموات يسمعون كلام الأحياء. لو أن الراقد بالضريح يسمع نداء الفتيات لتزويجهن والشيوخ الذين يستمطرونه، وبصره كان حديداً، سيضحك وينفجر ضحكاً خلف نافذته الحديدية وتربته، نمشي ونمشي وأعمدة الكهرباء بمدينة تارودانت، إنارة الحديقة الخافتة كأفكارنا تنصت لنا، نغني الغيوان وجيل جيلالة ولمشاهب وسعيدة فكري. صاحبة القيثارة وطيور الكون غني وجبال الريف التي رأتها تبكي وغنت لها، وأي جنون يا صديقي أن نسير خمس ساعات ليلاً ونحن نتحدث في كل صغيرة وأصغر منها. بدءاً بالحب عند شوبنهاور ومارغريت دوراس إلى أبناء عمك وزوجها وسلوك بنات الليل وشواذ المدينة الذين يمرون في أوقات محددة كل يوم. كنا نراقب نبض المدينة وخرجات ساستها من الاشتراكيين المحنطين في الكراسي الذين التهموا ربع قرن من السلطة دون أن تستطيع المدينة جمع أربالها ولا ترصيف أزقتها ولا تصريف عوادمها من خراء أبنائها، أي اشتراكية لأي شعب، إنه شعب الحزن الأبدي، والآن تتكرت لكل شيء ومضيت مخلفاً وراءك تاريخاً من الثرثرة وبعض النصوص الممهورة بالشعر والقلق الدفين. نحرق كل شيء ونرحل، كذلك يفعل الموجوعون، يقول سمير يسران إن الرجل قوي بمفرده والضعيف فقط من يحتاج إلى رفقة، ماذا كنت أنتظر من رجل كهذا غير صداقة معقدة واستغناء غير مجد.

أعتقد أحياناً أنه لم يؤمن يوماً بالصدقة، بل آمن بالرفقة فقط.

لم يؤمن بالحب، آمن بالخوف من فقدان السيطرة على الأشياء من حوله؛ لذلك تزوج بطريقة تقليدية، وحاول السيطرة على الوضع ما أمكن. لا يمكن أن يكون قد أحبها فعلاً، ولا يمكن أن نجزم بذلك.

الحب هكذا دومًا. يضعك بينَ الشك واليقين. حتَّى الحَدِيث عنه شَيْءٌ غَيْرٌ منطقي، فالحب لا يناقش، وقضاياها شائكة لا حلَّ لها. الحب يولد في لحظة يستمر لمدةٍ ثم يتلاشى، يندثر، يموت. كورقة تين يابسة أتت عليها ريح.

أنت تشاركني رؤياك وتنتشر عَلى الضوء المنبعث من دروبك، يا سمير الليل، يا سيد الحزن والدخان، دعك من الحفر في دواخلك، كلما تعمقت أكثر تألمت ضعفين، لكل درب في قلبك ضعف من الشقاء، ضعفان، رطلان من كُل زوجين متناقضين. قديسة من حارة المساكين وعربيد من دور الصفيح. سمكة نهر في البحر الميت. عنفوان شاب وعجوز رخوة الوريد، أنت تتعلق بأستار الكلام والكلام أو هام لَيْسَتْ لَهُ أَسْتار. كلما تشبثت بمنزع تهاوت فوقك أسمال السؤال. وأرخی السقف جبسه الندي عَلى أعقاب يقينياتك. أنت يا صديقي تهوى الركام، ركام من كُل شَيْءٍ. من ظلم وسخط وغضب ونسف وجرم وحرب وكلام. الكلام الكلام. أنت تهوى الكلام. مصيبتك أنك تهوى الكلام. تهوى الاستلقاء المديد تحت ظل شجرة الثرثرة، والتمطط ملأً كقطة مدللة، وحين يخترقك سؤال عَلى حين غرة تتقلب عَلى تاريخ هدونك وتشطح كالديك المذبوح عَلى عتبة ضريح التوتر الحاد، وَقَدْ تجرحك العبارة. أنت من نوع الرهبان المتمسكين بأصنام آيات البلاغة. تستقيم رؤياك في الاستعارة وتتوه في الغموض حين تسطع الشَّمس ويضيء النهار ويتجلى البرهان. تضع نظارتك السوداء والحال ظلام، أنت تهوى الكلام. تهوى الكلام. لا شَيْءٌ غَيْرَ قطار محمل باللغة لا يتوقف أبدًا وصفارته التشتكي عسر الطبيق. لا شَيْءٌ غَيْرَ الجبال في ذهنك وخيوط الدخان. ما زلت تدخن الحشيش كأنك بركان. وتنفث الشعر والحقد وأقوالاً من سلالة كبريت الاسم ورخام علامات التعجب وغبار العمل.

جبنك يا صديقي تدلى، اتخذ ركنا من أركان عمرك، مد رجليه عَلى الحصير وَهُوَ يسبح باضطرابك وتدلى، تدلى حتَّى استقر في أعرق نقطة من صحرائك.

عَلى الفيسبوك أجد دعوة من إسبانيا، عَلى صورة البروفيل سيّدة في كامل أناقتها، وشعرها المنسدل عَلى كتفيها يظهر مِنْهُ القليل فقط بسبب القبعة الصوفية التي ترتديها وهي تلعب بكرات الثلج ووراءها رجل تلج بأنف جزرة وكاشكول أَحْمَر. الاسم: راغدة فرحات. إِنَّهَا الحمقاء.

- هاي.

- بويناس دياس سينيور سولال.

- أها. تعلمت الإسبانية!

- هههه، نعم من زمان.

- كيف حالك؟

- أنا بخير. تزوجت، حدثت أشياء مريعة معي لكني بخير.

- وأنت؟

- أنا هنا دومًا، لم يحدث معي شيء. كلُّ شيء أبيض، تسير حياتي في الواقع بهدوء ولكن الحب يعبت بي، أقصد الرغبة، أقصد الجنس. هاتِ قبلة.

- أيها الأحمق. لم تتغير. أسأل عنك سمير دومًا.

- لم يخبرني أبدًا. قلت باستغراب.

- هذا لأنك تعيش داخل توقعتك ولا تحب من يزعج ترتيباتك الدقيقة، وما زلت تحت مفاهيمك القديمة عليها تصلح لهذا الزمن.

- هذه لغة سمير وليست لغتك، قلت محاولاً الزج بها في اعتراف ما.

انقطعت المحادثة. استغربت لها كثيرًا، واتخذت قرارًا بأن أنساها، رغم ما يثيره اسمها من ذبذبات في جسدي. أحيانًا أقول في نفسي لو لم أستعمل معها تلك السخرية الفجة التي لا تسمح بإقامة علاقة حقيقية لاستطعت إقناعها برغبتني الشديدة في ضمها حقيقة وليس مزاحًا. هي الوحيدة التي لا تصدق أنني أعني ما أقول حين أخبرها بعشقي لها. حدث هذا مرة حيث دخلت أحلامي وتركتني في برزخ من الرغبة القاتلة والجسد المحموم. وحلمت بأنها ستكون في حلمي، وكانت في حلمي موضوع رغبة شبقية. أخبرتها بذلك فانفجرت ضاحكة. سلسلة من الضحكات المتفجرة. هي تفقد حيويتها وتشحب حين ترى سمير. تتحول إلى بلهاء بالمعنى الحرفي للكلمة. تفقد حس النكتة وحس السخرية وترتدي قناع الحضور الجدي.

يحتاج مني المشروع الجديد كلَّ الوقت والذكاء. الحروب الصغيرة مع مستشاري البلدية وأصحاب المحلات المجاورة للمكان الذي أريد أن أنشئ فيه مطعمي. دروس الطبخ الليلية. علاقاتي الجديدة مع الطباخين المشهورين الذين يقدمون دروسًا ملغومة كي لا يفقدوا أسرار نكهاتهم. الكتب والبرامج التي تبث على مدار الساعة. الاندفاع الكبير لأخي الذي يحتاج أن أجمه. خصوصًا بعد أن استطاع في مختبره الصغير في غرفته الشبيهة بقبو النبيذ الفاخر أن يستخرج زيتًا استثنائيًا بمزج زيت الأركان المطحون على البارد والزعفران الأصفر وبعض الأعشاب الجبلية. احتفظ بزيتي في قناني خاصة غير نفاذة للضوء ويشمها بين الحين والآخر كأنه سر كوني لا يعلمه أحد.

في خضم هذا الزخم القاتل من الأذواق والنكهات كيف أصنع مطعمًا بلمستي الخاصة؟

أو لنقل بلمسة الشنقيطية الخاصة. يجب أن أحصل على البركة من يديها. أريد طبقًا تقليديًا مع الكثير من البركة. كيف سأفسر تغير المذاق دون تغير التوابل والمكونات؟ بل كيف سأفسر تغير

المذاق بيّنَ يومٍ وآخر. القديد، الخليع، الفتلة، العصيدة، الثريد، وكل الأكلات القديمة والحلويات التي تصنع بخبز الشعير والذرة سأعيد إحياءها في المطاعم الحديثة.

سطر نور الدين خطوط المشروع، مطعم بمدينة أكادير، على شارع كبير في انتظار نقله أو فتح فرع له على الكورنيش. بعد تخرجه قدم له الحاج هبةً كبيرة ليفتح مشروعاً له في نفس تخصصه أو هوسه. الهوس المشترك بيننا. المطعم والديكور والنكهات والاستقبال، ولكنّه لا يريد أن يضع البيض في سلة واحدة فاقترحت عليه أن أشاركه كي أحقق حلمي القديم وأهرب من ميدان التعليم سيئ السمعة.

كأن تعبر بيّنَ الضفة والضفة، ولا تصل إلى حلم أو صخرة، لا المكان تبدى ولا الصوت ولا الوجه ولا الرؤية. تندن بيّنَ خطوة خطوة ألف أغنية لليل والكوابيس والأتربة. تستقبل الأزمنة من بوتقة الفرح ويستقبل الفرح من جماجم الوجود. نأتي نحن – أسياد العزلة – لنمتحن في مدخرات الحزن القديمة. أما زالت تصلح زينة على أكتافنا المتقلبة؟ أما زالت تصلح نياشين على صدورنا المريضة بمشاعر غريبة وكتل غريبة وعناقات الشهوة والشفقة. صدري مسرح حرب أهلية بيّنَ الخلايا، وأنا أتألم. كما لم أتألم من قبل. أحترق وتحترق كل خلايا جسدي. شحمة أذني تطالب بحقها في الألم فتتهيج كأن بها ألف إبرة تتغرز دفعة واحدة. أيها الموت الذي يقترب مني، صبراً أريد أن أكتب المزيد. هذيانِي وذاكرتي المسترسلة في الذوبان، وعقلي المشتت بيّنَ الماضي والحاضر وصمتي المستكين الذي لا يفزعه شيء. لا يخاف النهاية ولكن يخاف النسيان. تتفتح فوهة الغرفة البيضاء وتدخل منها الممرضة الجديدة؛ لتجديني أمسح دموعاً غزيرة لم أنتبه لنزولها القسري من القرن الرابع الميلادي من حياتي السرية. تزيل بدقة وحنان الأنبوب المتصل بعلبة القلب. حيث آلة تسمح بتمرير المحلول الكيماوي إلى دمي. الدم المتخثر حزناً. إنه ليس دمي بل دماء تجمعت في المصحة من جهات كثيرة. من يدري. ربما هو دم سيليا أو سولال أو أخواتي أو أمي أو أبي، أو هي دماء غريبة تدخل بدني بعد أن ينزع منها تاريخها.

أورفيقتي هند التي أتذكرها الآن دون سبب واضح، في خضم هذا الألم الفظيع الذي يعبت بذاكرتي كما يعبت بمعدتي وكل إبر المورفين التي تتغرز دون إذن في لحمي. أي لحم أقصد، لم يبق مني غير أربعين كيلوغراماً من العظام والعروق والجلد المتدلي، رفيقتي التي كانت صامتة تلعن الفلسفة والشعر وتنقش على صدري هيامها. كانت أنفاسها حارة وكنت ألعب على ضلوعها بأصابعي قطعة فيفالدي الفصول الأربعة، فاشتعلت شهوة واشتعلت والتهمتها وهي ناضجة على نار خشب شجرة الزيتون. التي كنا نخنقي وراءها من عيون المراقبين حرس الشرف. عسس الفضيلة. لم يكن الأمر بهذه الموسيقى التي أحكي بها الآن كانت مجرد حركات مبعثرة. لم تكن نحسن الموت حباً ولا نقبل بتلك الصنعة الدقيقة. ولم تكن علاقتنا ترقى إلى سيمفونية فيفالدي صراحة. كانت نوعاً من موسيقى عيساوى وهيجاناً غير محسوب العواقب، ولكنّه يضمن بعض الخلاص الجسدي ويربي العلاقة الأدمية مع الآخر ويحارب أرق الانتصاب اليومي.

قالت: هل أنت الأشقر الوحيد في المدينة؟

قلت: في هذه اللحظة أنا الرجل الوحيد في المجرة.

حماقة الفتيات. يطلبن اعترافاً بالحب في غمرة القضم في خضم حرب الصلبان. الحب حالة كيميائية الآن. قبل قليل كان الحب شعراً وقصائد أمجد ناصر حين يعبر بين تخوم الممرات السرية للكلمة، وهذا التغير المفاجئ في زوايا الرؤية مرده جسدي ودرجة حرارته.

الفصل الرابع

هل أنا من كتب ذات يوم مرثية الصنوبر: تحاول أن تقرأ فتتسرطن الحروف أمامك. ماء البحر المالح ... أيستطيع أن يعالج جروح القلب الغائرة؟ أيستطيع قتل دود الأرض الذي تسلل عبر الكفن المترب، المليء بالطمي والحنوط؟ في العطلة الصيفية، الشمسيات الحزينة، ماء البحر دمع الحوريات الأرامل، الرمال الباكية العطشى للحياة، الأجساد العارية على الشواطئ سيأكلها الدود بعد قليل، بعد كثير... يضعون الزهور على المقابر كي يتصالحوا مع الموت وهم أحياء ... كيف التصالح مع من أخذ منا الحياة ... لا ينبت الزهر في تربة القبور والأضاليا لا تتسلق الشواهد، ونحن حين نبكي لا نبكي الموتى، نبكي أنفسنا.

لم أفقد المعنى يوماً في حياتي. كلما رحلت جملة صنعت أخرى، وحتّى الحروف الملعونة التي تهرب مني. أستعملها لوصف ملعنة المعنى. أنا المعنى وصنوه والحروف لا تتمرد على عرش اللغة، وإن حدث أودبها بعدم الاهتمام.

ولكني متعب، متعب جداً، لا أقوى على تذكر كل تفاصيل الحياة القصيدة التي عشتها. مانح النخاع العظمي لم يظهر بعد، ربما يكون أمريكياً أو يابانياً أو مالياً. بُعثت برقية لكل بنوك الدم والنخاع الشوكي في العالم والمسألة مسألة أيام فقط وأحصل على زرع للنخاع العظمي.

ولكني متعب وأتمنى أن أنهي الكتابة في الأيام القليلة المقبلة. ليس لدي الكثير لأتركه، لا أنا رجل حكمة ولا صندوق تجارب. سأترك أحاسيس مبعثرة على أوراق مبعثرة قد تصل إلى قلب غريب مثلي يحس أن حياته تستحق أن تحكى. فأنا أكتب لمن سيدد نفسه يوماً كائناً غريباً كي أقول له إنك لست كذلك يا صديقي. كانت لي أما حنوناً وأباً بقلب كبير وأخ وأخوات وصديق عمر. هؤلاء هم عشيرتي. ولي الكثير من الأفكار التي تتزاحم للدخول إلى قلبي. أما المرأة الوحيدة التي أحببتي فقد تركتها بسبب مزاج سيئ لا أدري مصدره. أما اللواتي أحببني لأجل عيون الزرقاء الرمادية وشعري الغريب مثلي فقد كن كالوقت نفسه، مررن مرور الكرام على قلبي. أنا أهذي، أعرف ذلك، أهذي لأن الطاقة التي بحوزتي تنفذ.

لم تكن سيليا تدري عن القاعدة المشهورة التي تقول إن الضغط يولد الانفجار. هو لم ينفجر بل اتخذ قراراً في داخله، قراراً حاسماً جداً.

اعتقدت يوماً أنّها ستجد رجلاً محطماً، بقايا رجل لکنها تفاجأت بصوت رائق وحركات هادئة وقرار بسيط المسألة كلها مسألة قرار، قرار بسيط اتخذته في غفلة عن الجميع في الوقت الذي كانت تراهن فيه هي على الضغط المرتفع كان سميحاً يكون دفاعات نفسية جديدة لم تعهدها معه. اللامبالاة بكل شيء. لقد ولج منطقة العبث بحيث لا تحرك فيه التهديدات شيئاً. لا يهتم. فقط لا يهتم.

اتصلت بي عليها تجد عندي جوابًا لحيرتها. لم أستطع فهم شيء مما قالته، بدت لها تصرفاته غريبة وهو منكبٌ على تأليف ألحانه والغناء بصوت مرتفع في غرفة الاستوديو، في لحظة غضب أخبرته أنها تكره أغانيه ولا تلتصت لها أبدًا، هل يعقل أن يفصلا لأنها لا تحب سماع أغانيه الأمازيغية؟ الأمر فيه من المعقول القليل، وفيه من العبت الكثير. قد يفعلها المجنون، إنه مرتبط جدًا بالموسيقى، ويمكن لسخرية بسيطة أن تهز أعماقه. لا يمكن للفراق أن يكون في لحظة، إنه نتاج تراكمات كثيرة ومواقف متعددة، الأمر أشبه بالنبش من الداخل في قاعدة بناء، لا بد أن يسقط يومًا على ساكنيه.

حين جاءت سيليا في ذلك المساء لتشهد الموضوع من البداية كان سمير قد حسم أمره ورفع المحضر إلى مجلس التنفيذ، قال لها: «انتهى كل شيء، أصلًا لم يكن هناك شيء ليستم، كان وهما كبيرًا عشناه معًا وانتهى الحلم، الكابوس، الرؤيا، المنظر، المنام، فليكن ما كان، لكنه انتهى، يمكنك الآن أن تعيش بسلام بعيدًا عني، ويمكنني أن أعيش بسلام بعيدًا عنك».

كان يتصنع الهدوء في البداية، لكنه تلبسه أخيرًا فلا شيء يهزه أو يوتره غير تضيقه للوقت، الآن كان ذهنه مليئًا بأشياء أخرى أكثر أهمية، وعليه أن ينهي الموضوع فورًا، كان مشروع الأرناب ينتظره كي يضع اللمسات الأخيرة ويدفع للمهندس الفلاحي دفعة أولى من الأتعاب لينهي دراسته، في الوقت الذي كانت هي تحاول ترميم ما تبقى من البيت المهدم كان هو ينتظر مكالمة المهندس ليطمئن على مشروع متوسط وينسحب من الوظيفة التي قيدته طوال حياته.

قراره لم يكن الطلاق العادي أبدًا، فقط قرر أن يطلقها عاطفيًا وأن يصبح له وجود مستقل عنها ويصبح لها وجود مستقل عنه كما يحدث في الزيجات الباردة، ليست إعادة تأسيس للزواج في ذهنه بقدر ما هي نتيجة تراكم كل الحالات التي واجهتهما ونتيجة حضور الأخرى.

حين أخبرني عن الأخرى لم أستطع أن أقول شيئًا كانت دهشتي كبيرة، لا أدري كيف حدث له ذلك، طلب مني ألا أنفعل وأن نترك الأمور كما هي، وفعلت ذلك، فعلت ما أراده فقط كأني كنت ضمن قراراته البسيطة والساذجة.

وكان لي صمتٌ طويلٌ مرة أخرى أمامه، لا عتاب لا تحليل لا موقف، لا شيء، كأنه سرب إليّ بعضًا من شخصيته الداخلية.

هناك أخرى فقط، باسم مجهول، ربما فتاة افتراضية من عالم النت، الأخرى بقيت على اتصال به طيلة فترة فتور علاقته بسيليا، رغم أنها تؤكد له عدم رغبتها في تخريب بيته لكن مساندتها له جعلته يحس بأنها المرأة الوحيدة على سطح الكرة الأرضية التي تريد له السعادة رفقة زوجته. وكانت تتصح به بتصحيح مساره معها باعتبارها سيدة بدوية غير متعلمة. ناصحتها كانت مجرد قنابل موقوتة تقفخ علاقته بسيليا دون أن يشعر.

حين بدأت العاصفة كان قد تدثر بالعبث تجاه كل شيء، كان يعتقد أن الوقت ما زال مبكرًا على اتخاذ مجرى واحد في الحياة، وهي كانت كأي امرأة تقاوم رياح التغيير حفاظًا على ما تبقى من

ببيتها، الخطأ الوحيد الذي ارتكبته أنّها لم تتوقع حضور أخرى، على المرأة دومًا وضع احتياط ضد كل النساء وحين يتدثر الزوج بالعبث ينتهي الأمر نسبيًا بمعركة خاسرة مسبقًا، فهو مستعد ليفقد كل شيء مقابل أن يربح نفسه، وربما أن يربح بعض الماضي كأنه يعود للوراء ليصح مسارًا أخطأ فيه قبلاً، إنّه مستعد للبدء من جديد مع أنثى أخرى، إن ما يحدث أمر غريب أظل أحلل على طريقتي لكن الواضح من الأمور أنّه أمر غريب، هي من طلبت الطلاق أخيرًا، بعد أن تعبت من إحياء أرض موات وجسد باردٍ وبيتٍ آيلٍ للسقوط.

المرأة تفعل أي شيء من أجل بيتها، تسحق الحب في قلبها وتتكسر نفسها حين يتصدع البيت، وهو كان محايدًا فقط، لا ينفعل وحين يغضب يصنع لفيفة جديدة ويدخن بشراهة، وجرب ألحانًا جديدة في غرفته بسطح المنزل.

صوته منكسر كداخله، عبثًا يحاول تسجيل نوتات الفرحة داخل موسيقاه لكنّها تظل حزينة، حتى زغرودات النساء التي يمزجها ببعض الجمل، الأهازيج الشعبية التي يضعها في المقدمة كلها تستحيل إلى نوتات حزينة وفرح مقنع، كان يدعي الفرحة، يدعي أنّه إنسان هادئ لكنّه يتصنع الهدوء، هل كان يصنع أحاسيسه على آلة الأورغ، هل كان يتقن حساب حركاته اليومية كي لا تقضه.

الأمر غريب جدًا، ما يحدث أمر غريب.

حين ذهبت إلى بيت والدها وطلبت الطلاق راسلها قائلاً: «ستحصلين على ما تريدين، على أن يكون ذهابنا لقضاء الأسرة أمرًا سرّيًا بيننا وبين والدك، وابنتي سأراها مرة في الأسبوع، وسأضع لها حسابًا بنكيًا غير النفقة الشرعية الواجبة».

فكرت يومها أنّه يعاني خطبًا ما، وحتّى والدها استسلم للهدوء، وقبل كلّ تسوية اقترحها عليه دون حتّى أن يبحث الأمر مع أخيه وأن يعالج المشكلة على المستوى العائلي أو القبلي كما هي العادة، كان ينظر إليه باستسلام كأنه أمام رجل مريض.

سألته بطريقة مباشرة لكنّه قاطعني بجواب حادّ كالسكين.

«أرجوك لا تسألني لم حدث ذلك ولا كيف حدث ذلك، ولا أريد نصيحة ولا وعظًا ولا سخرًا منك، ما حدث حدث وانتهى الأمر، أنا قررت ذلك، وهذا سبب ونتيجة في نفس الوقت، هناك أشياء تنتهي فقط، دون سبب، علاقة زوجية يربطها عقد ورقي ويفكها عقد ورقي آخر ومعاملات مالية، هذا كل شيء، والباقي مجرد أدب، كلام يرصع الواقع ويصفه دون فائدة، وإن سألتني عن الحب أقول لك أحب الأخرى، منذ ذلك اليوم، أحببت الأخرى وهذا أمر واقعي، ستراه أنت لا أخلاقياً كعادتك لكنّه أمر واقعي، تقول إنك تفهمني وتفهم حزني وهذا ليس صحيحًا أنت لا تفهم ما يحدث داخلي ولا تهتمك سعادتي، أنت تهتم بمعاييرك وتقيس وفقها حياتي، ودون أن تحس أنّها حياتي أنا وحدي ولا تهتم غيري».

اعتبرتها فترة عصيبة من حياته رغم أنه يبدو هادئاً، ولم أكرث لأقواله وَلَكِنَّهُ كَانَ دَائِماً بخلفيات تأملية قَالَ وَهُوَ يَدْخُن لفيفته السابعة من الحشيش:

«لنقل إنني أعيد اكتشاف قلبي مرة أخرى (كأنه أحس بانخداعه في المرة الأولى) الآن أملك خبرة أوسع في الحياة، لأتخذ قراراً جديداً أكثر حكمة».

سألته إن كان يقصد قرار الطلاق أم قرار الحب فَقَالَ:

«الحب ليس قراراً، إِنَّهُ الْمَجَالُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ اتَّخِذَ فِيهِ قَرَارًا، وَلَكِنِ الْوَحْدَةَ قَرَارٌ شَخْصِي، أُرِيدُ أَنْ أَبْقَى وَحِيدًا، وَحِيدًا جَدًّا، أَنْ أُغْرَقَ فِي وَحْدَتِي حَتَّى الْأَنْبِيَاءِ إِنَّهُ السَّقُوطُ الْحَرُّ، لَا يُمْكِنُكَ مَنَعُ رَجُلٍ مِنَ السَّقُوطِ الْحَرِّ دَاخِلَ ذَاتِهِ».

لا يمكنني منع رجل من السقوط داخل ذاته، الأمر صحيح جدًّا، كنت خائفًا من أن يقطن إقليمًا نائيًا داخله وَلَا نَسْتَطِيعُ الدَّخُولَ إِلَيْهِ وَلَنْ نَسْتَطِيعَ هُوَ الْخُرُوجَ مِنْهُ، لفيفة تلو أخرى كفيلاً بخلق عالم داخل مجرى الذات لفيفة تلو أخرى تجعل المحيط حبة قمع صغيرة، وتجعل كل شيء سهلًا حَتَّى الْحَيَاةُ تجعلها سهلة، تجعل كل شيء ينتظر، اللفيفة توقف الأرض عن الدوران وتجعل الرأس يدور ويدور. الحشيش يجعلك تسكن طرفًا في الغابة وحدك جنة الله في الأرض، هَذَا هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَسْقُطَ فِيهِ سَمِيرٌ، وَقَدْ سَقَطَ فَعَلًّا، لَا يُمْكِنُكَ التَّدْخُلُ فِي حَيَاةِ رَجُلٍ يَهْوَى السَّقُوطَ الْحَرَّ.

قلت لَهُ إِنَّهُ جَعَلَهَا تَطَلُّبَ الطَّلَاقِ، لَكِنَّهُ فَاجَأَنِي بِجَوَابٍ لَمْ أَتَوَقَّعُهُ، قَالَ إِنَّهُ هُوَ مَنْ قَرَّرَ الطَّلَاقَ دَائِمًا أُرَدِّدُ فِي ذَهْنِي قَوْلَتَهُ الشَّهِيرَةَ: «الْأُنَانِيَّةُ أَنْ تُحِبَّ نَفْسَكَ كَمَا تُسْتَحَقُّ». رَجُلٌ يَضَعُ الْمَبَادِئَ الْعَامَّةَ لِحَيَاتِهِ وَيَصُوغُ الْإِجْرَاءَاتِ الْوَاقِعِيَّةَ، يَفْرَشُ لِأَفْعَالِهِ عَشْبًا مِنَ الْفَلَسَفَةِ الذَّاتِيَّةِ، وَيَنَامُ عَلَى حَصِيرٍ قَنَاعَاتٍ غَرِيبَةٍ، لَا يُمْكِنُكَ مَنَعُ رَجُلٍ يَبْنِي أُسُورًا مِنَ الدَّخَانِ حَوْلَ قَلْبِهِ، وَيَحِيطُ نَفْسَهُ بِهَالَةٍ مِنَ الْقَنَاعَاتِ وَالرُّؤْيَى، فَحَدِّ الْعَتَابِ وَالنَّقَاشِ أَنْ يَقُولَ لَكَ إِنْسَانٌ إِنَّهَا قَنَاعَتُهُ الْقَصُوفِيَّةُ، وَيَدْخُلُ حِينَهَا مَحْمِيَّةٌ تَسْمَى الْحَرِيَّةَ الشَّخْصِيَّةَ، كَأَنَّهَا الْحَيَاةَ الْحَمِيمِيَّةَ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِلشَّخْصِ وَصْفَهَا بِمَوْضُوعِيَّةٍ أَوْ تَعْمِيمِهَا كَفِكْرَةٍ حَسَنَةٍ.

حين ذهبت بالسيارة لأقله من أمام محكمة قضاء الأسرة، طلب مني أن أخذه إلى مكان هادئ ليدخن فيه، فكانت جنبات وادي سوس الأعلى الاختيار الذي بدا لي مناسبًا أكثر. مساحات كبيرة من شجر الزيتون وضيعات على جنبات الوادي الكبير، وَقَدْ سَرَّتْ بِالسيارة حَتَّى الْحُدُودِ الصَّخْرِيَّةِ لِلوَادِي وَرَكَنتُهَا هُنَاكَ، صَنَعْتُ دَاخِلَ السَّيَّارَةِ لَفِيْفَةً، أَحْرَقْتُ قِطْعَةً صَغِيرَةً جَدًّا مِنَ الْحَشِيشِ وَفَرَكَهَا بَيْنَ أَصَابِعِهِ وَخَلَطَهَا مَعَ مَكُونَاتِ مَالْبُورُو، وَلَفَهَا فِي نِيْبُرُو بَاِحْتِرَافِيَّةٍ دَخْنَهَا كَأَنَّهُ يَمْتَصُّ الْغَضَبَ مِنْهَا، لَمْ يَكْلَمْنِي أَبَدًا، نَظَرْتُ إِلَيْهِ بَحْنَانٌ زَائِدٌ لَمْ أَشْعُرْ فِي حَيَاتِي بِرَغْبَةٍ فِي دُخُولِ عَمَقِهِ مِثْلَمَا شَعَرْتُ حِينَهَا، نَظَرْتُ فِي عَيْنَيْهِ جِيْدًا وَكَأَنَّهَا مَحْمَرَتَيْنِ دُونَ دَمُوعٍ، إِنَّهُ غَارِقٌ فِي عَالَمٍ آخَرَ مِنَ الدَّخَانِ. لفيفة أخرى وأخرى ... أثار الأمر غضبي، فحين تركته لأعطيه فرصة له مَعَ نَفْسِهِ وَجَدْتَهُ قَدْ دَخَنَ أَزِيدَ مِنْ عَشْرِ لَفِيْفَاتٍ، وَكَانَ فِي حَالَةٍ مِنْ فِقْدَانِ الْوَعْيِ وَالرَّغْبَةِ الْعَمِيقَةِ فِي النَّوْمِ، أَجْبَرْتَهُ عَلَى الدَّخُولِ لِلسيارة وَالعُودَةِ لِلْبَيْتِ، بَيْتِي.

استيقظ متأخراً في الحادية عشر صباحاً، نهض من رماذه وبحث في جيبه عن ولاعة ليشعل سيجارته، لم يجد سيجارة ولم يجد ورق نيبرو ولا قطعة حشيش، فبدأ الغضب يتسلل إلى قسامات وجهه، أحضرت له قهوة سريعة التحضير لكنّها قوية ومركزة، والحقيقة أنّها لم تكن سريعة التحضير فقد أعدتها في عصارة كهربائية ولكني أضفت لها ملعقة صغيرة من نيسكافيه، وهي خلطة سرية غالباً ما لا يكتشفها ضيوفني، الفنجان كان من الزجاج الصافي غير القابل للكسر بنتوءات في قاعه وفي حواشيه من الجهة الداخلية وهذا ما يجعل القهوة تترقرق كأنها نهر صغير قبل أن تصل للفم، والزجاج شفاف يمنحك فرصة تأمل القهوة وهي تسير كأنها ليل طويل قبل أن تتهرق في حلقك، القهوة مسار حياة، فلسفة موت جميل، قربها على مهل وهو ينظر إليّ في غموض مربك، اعتقدت أنه اكتشف سر خلطتي، لكنّها نظرات شكر لم أعهدا منه، فحتى حين تقدم له خدمة عادية لا يشكرك، لكن نظراته هذه فيها من الاعتراف ما فيها، فقال:

«أنت صديقي، أليس كذلك، تعرفني أكثر من أي شخص آخر، أنا لا أندم على قرارات أتخذها، ولكني متعب جداً، متعب من الحياة ومن بؤس الأمكنة، أريد أن أسافر بعيداً، ولا أستطيع ذلك، أنا مثبت إلى هذه الأرض بمسامير هندية من الفولاذ المنصهر، لا أحسن المواجهة ولكني أتقن الصمود، لا بدّ أنني أفلقتك البارحة، لا تغضب مني، الرجل الحقيقي يقف عند حافة البكاء ولا يبكي، البارحة كنت بحاجة للبكاء، ولكن كبريائي منعني، هناك أساطير حول العين، بين الرموش وتحت الحواجب تقول إن بكاء الرجل مذلة لذلك لا أبكي أبداً، ودموعي تتحول إلى دخان كثيف يثنيه في الهواء، ينعدم في نقط معينة من الفضاء، هناك ترحل دموعي وتذوب».

أخبرته أنه دخن بهيستيريا أرعبتني وأنه كان صامتاً رغم تأثير الحشيش عليه، كان ساكناً كصنم، لم يستطع الحشيش ترطيب لسانه ولا حل عقدة الفضفضة في داخله، تمنيت أن يتحدث، أن يصرخ، أن يضحك، أن يبكي، لكنّه لم يفعل شيئاً.

اللوم لا يكون في لحظات الصدمة، بل يكون ذكرى قاسية بعدها، وربما بعدها بكثير من الوقت، يخيفني صمت الرجال، وتلك الرهبة والرعب في عيني سمير، لماذا إذن اتخذ ذلك القرار الذي يراه بسيطاً ما دام غير مستعد لهذا الفراغ المهول الذي ارتدى فيه. خليج مقفر في منطقة معزولة عن العالم.

«أنا مستعد لكل شيء صديقي، أنا لست نادماً كما قلت لك، أنا متعب فقط، والوضعيات التي تتخيلها لئست كالتى نعيشها، أنا استعددت لحالة لا أعرفها، وها أنا أختبرها الآن، كنا شخصين متقاربين بعقد ورقي فقط، وها أنا وحدي الآن دون أنثى شرعية بقربي كتوأم سيامي ثم فصله، لا أنكر أن بعض الفراغ يجتاحني لكني أعرف في عمقي أنه مؤقت فقط، قتلتني فقط نظرتها الأخيرة رغم أنني حاولت جاهداً تقاديبها، لكني وقعت في مرفأ نظرتها المنكسرة، مر شريط حياتي معها كأني مقبل على الانتحار، كانت صغيرة وبريئة حين تزوجنا، تعلقت بها وتعلقت بي، ولكني اتخذت قرارى،

فالعيش على حبّ متهالكٍ قهرته العادات والتكرار والتحوّلات المريضة لا يستقيم، ولكني لا أجد سببًا، الأمور سارت هكذا، فقط قهرتني نظرتها، كأنّ في قمة الكبرياء وفي سفح التوسل، كأنّ تتوسلني في شموخ».

استفسرته إن كانت أخرى سبب ما حصل وهل هناك أخرى كما أحست سيليا، فقال: «الأمر ليس صحيحًا لئست هناك أخرى، وأنا لم أتعلم الخيانة أبدًا، ولم أخنها، هي ابتعدت كما لم أرغب في ذلك يومًا، وكنت أحاول استرجاعها ولم أتمكن من ذلك، لقد أصبحت في وقت وجيز عنيدة جدًّا، هدمت ما بنيناه معًا في ظرف وجيز، أعطيتها ما لا أستطيع إعطائه لأنثى بعدها، إنّه خمس سنوات كبرنا فيها معًا، اكتشفنا فيها معًا معنى الحب والأبوة والسر والفرح والجسد، لكنّها سمحت بأن يتسرب شيء كالفرغ لعلاقتنا، لا أستطيع العيش مع امرأة لا تحس بي».

نسي أنّه أخبرني عن وجود أخرى، هنا عرفت أنّه بدأ يفقد المنطق في علاقاته وكلامه وإحساسه وأن كل ما يبوّج به مجرد هذيان.

أخبرته أنّها أيضًا تتألم لقرار لم تفهمه، ولكنّها استسلمت للأمر الواقع، كما فقدت قدرتها على التعبير والقول والاحتجاج والرفض، وتركت الأمر بين يدي والدها كأنه حل لشركة أو تفكيك لسيارة أو حتّى توزيع لمحصول زراعي.

سيليا كانت تنصت له وهو يحدث الأخرى ساعات على الهاتف، وقد أخبرتني بذلك، لكنّه كان يتحدث باللغة الفرنسية أو بعربية فصحي لا تفهماها هي. لكن غريزة الأنثى تسمح لها بشم حضور أخرى ولو تحدثت بالصينية. ولكنّها لم تكن تغار. وهو أمر قاتل في العلاقة الزوجية. مساحة الحرية التي كانت متاحة بينهما استغلها سمير في رعي قلبه خارج حقل البيت.

سمير، أيها المعذب في الأرض، لا معنى لكل هذا الكبرياء الفاضح، لهذا التوتر المستكين بين ضلوعك، متى تقوم من أنانيتك، متى تخرج من لفيفتك، وتتخلى عن فلسفة الدخان.

والحزن حين يفيض يفيض على جنبات الروح ورصيف الجسد. ما الذبول إلا احتضار رمزي لجريد النخيل. ويبقى الجذع مكابراً بلونه الداكن محفوراً ومنخوراً من الداخل، ولا يسقط إلا واقفاً من شدة الكبرياء.

صديقي سمير، رغم كل ما قلته لي أعجز كل العجز عن فهم ما يدور بذهنك؛ لأنني أدرك جيداً سوء الفهم بيني وبين ذهني. فكيف أفهمك؟ لذلك أكتفي بالنظر في عينيك بحبّ وأمضي.

الحشيش والمحرق والأورغ وبوب مارلي وناس الغيوان، أي هواء جدير بالأحزان هذا، تناولنا الفطور الذي أعدته بعناية كعادتي، في مطبخي الأشد أناقة، أواني كثيرة وأطعم شاي وقهوة، وصحون تركية وباريسية، أنا صنعت عالمًا من الأواني ومطبخي هو المجرة التي أرتاح فيها. وضعت كل شيء أمامه قطع الجبن والمربى، حبات زيتون، زبدة وقشدة فستق، بودرة الشوكولا

والسكر، وبيض مسلوق مَعَ متبلات في طواجين فخارية صغيرة الحجم من النوع الذي يزين الموائد، اندهش لدقتي في التقديم وابتسم ابتسامة حقيقية، صببت لَهُ الشاي الصيني الأخضر من نوع «باب الصحراء» في كأس ملون بالأخضر بشرريط ذهبي عَلَى حاشيته، شاي مُحلى زيادة يتناوله مَعَ قطعة خبز الذرة المدهون بزيت الزيتون مَعَ جبنة هولندية صفراء، وحين ينهيه سأصب لَهُ الحليب في فنجان متوسط وأضيف عليه بودرة الشكولاتة أَوْ خيوط زعفران قمت بتجفيفها عَلَى ظهر المقلات، ليعطي الزعفران مفعوله عليك أن تعرضه للنار الخفيفة حَتَّى يصبح يابسًا فيسهل طحنه بَيْنَ الأصابع. أما إن وضعت مباشرة داخل كأس الحليب فلن يذوب وسيترسب في قعره خيوطًا حمراء. والحليب بالزعفران مَعَ قطعة كرواسان بالكاكاو أَوْ قطعة كيك بنكهة زهرة الليمون أستعمل زهر الليمون الطبيعي الذي أحضره من الضيعات في وقت تبرعمه وأعرضه للتجفيف في الظل كي لا يفقد نكهته وأدقه وأحتفظ بِهِ، وأضع مِنْهُ ملعقة في عجينة الكيك فيعطي نكهة الليمون أَوْ البرتقال، لم يكن سمير مندهشًا من الفطور فهو يعرف هوسي بالمطبخ والمطعمة، لَكِنَّهُ لاحظ أن هوسي مقنن جدًّا ومتضخم في نفس الوقت.

قَالَ لي وَهُوَ يحملق في وجهي ويراقب تحركاتي في بيتي الصغير :

«كم كبرنا صديقي، كبرنا وتغيرنا، أنت الوحيد الثابت فينا، كنت قويًّا دائمًا حَتَّى في ضعفك ها أنت ما زلت تحضن أحلامك الصغيرة التي كَانَتْ مثار سخريتنا أحيانًا، ها أنت تحقق ما رغبت يومًا في تحقيقه، واتبعت شغفك الجميل بالأشياء الصغيرة الممتعة، صديقي، أستشعر الحياة تدب فيك كأنها نهر صغير دائم الجريان، لذة هي الحياة في تفاصيلها البسيطة، هذه الأمكنة والزوايا التي تضع فيها ديكورات التزيين، الفخار وقطع خشب العرعار، كتاب مفتوح من العرعار يحتوي آية الكرسي بلون أصفر، إناء من العرعار عَلَى شكل زليفة كبيرة بِهِ كرات من العرعار أيضًا بدرجات لونية مختلفة من الأصفر نحو البني الغامق، رقعة الشطرنج بملكها وملكها وبيادقها فوق الطاولة الحديدية ذات القاعدة الزجاجية، أتعلم أن هذه الأشياء الصغيرة هي الحياة، الكتب المرتبة داخل الخزانة الخشبية المحلقة عَلَى الحائط والمضاعة من الزاوية اليمنى، مجسم أنثى الكنغر وابنها في حضنها الذي يتوسط الكتب، عناوين الروايات المختارة، هذه الحياة المرتبة الجميلة لا تُشترى بالمال وَلَا بالذهب، إِنَّمَا تُصَنَع، تصنعها القلوب الطيبة فحتى مهندس الديكور لن يَسْتَطِيع وضع هذه الحميمة مهما بلغت دقته».

سمير أيها النوتة الحزينة الهاربة من الأورغ كم نحن غرباء حين نفقد تفاصيل يومنا، حين ننظر إلى ما يملكه الآخرون من أشياء بسيطة ونغتنب بعالمهم الصغير، أنا يا صديقي أعيش من الليل وقتًا طويلًا وأجد وقتًا كافيًا، لترتيب وإعادة ترتيب بيتي وتثقيب الديكورات والأثاث من مكان إلى آخر حَتَّى يجد حميمته، أشتري الأشياء الجديدة للمطبخ والتجهيزات الإلكترونية أما الأثاث الخشبي والحديدي فأعيد تدويره وتحويله بعد أن أشتريه من سوق الأشياء المستعملة، تَلَك الطاولة كَانَتْ نافذة في بيت قديم بالمدينة، والأباجورة كَانَتْ ثريًّا قلبتها وأعدت تركيب دائرتها الكهربائية واشترت لها مصباحًا خفيف الإضاءة.

أنا لا أستطيع أن أعيش في مكان غريب عني لم أوثقه بيدي، أخبرته أيضًا أنني لا أستطيع أن أكل ما لم تصنعه يداي.

فهم سمير ما أردت قوله، وما لم أرد؛ لذلك أخذ دفعة الكلام وراح يقول: «أنت جميل صديقي، جمالك المطلق تحتضنه هذه البساطة والاهتمام، أبيع حياتي مقابل زاوية من زوايا بيتك، أنظر إلى هذه الستارة العتيقة بألوانها ومشجبتها وخيوطها، إنه الانتماء والحضن والدفء، هذه الزربية الأطلسية الحمراء إنها توشح صدرك بالهوية المفقودة، عالمك الغني أبيع نفسي وأسير إليه حبواً، لست مثلي أنا المتوسد بذراع الموت من في حياتي، أرمي الكتب في علب كرتونية وأعلق الملابس خلف الأبواب، إنني أعيش حياتي كأني سأموت غداً. أقارع الوقت وأستفز الأحذية، شعري، لحيتي تكاد لا تعرفني من شدة الهجر، ألوان ملابسي الرمادية تغلق باب التواصل معي.

انظر إلى ما حولك صديقي، هذه الأشياء والجمال التي تحيط بك، الكئوس والملاعق، الصحون الصغيرة والكبيرة، زليقات الزبدة والسكريات تكاد تحدثك تكاد تتطق السلام نحوك، تكاد تعانقك، إنها متعلقة بك، وأكد أجزم أنها تشاقلك حين تغيب عنها ولو للحظات، ما أن تفتح باب بيتك حتى تهب إلى عناقك، والعرعار يرسل رائحته لتأتي بأخبارك، كل الوسائد والملاءات والستائر والشراشف تود أن تحضنك».

إن اهتمامي بالتفاصيل قديم في شخصيتي، ما زلت أعد لمطعمي الكبير وأشتغل من أجل بنائه وتزيينه، أنعلم الطبخ والتقديم وأدرس المطاعم العالمية وإمكانية تحويلها ومغربتها. حلمي ما زال بعيداً، لكن الدمغة التي سيجدها الناس في مطعمي لم تصنع بعد، سيجدونني أنا بكل حميميتي، سيكون المطعم جزءاً مني، وسأجعله البيت الثاني، سأسميه «دارنا دو» بمعنى دارنا الثانية، أو بيتنا الثاني، وأعرف أن رهاني هو أن أجعله بيتهم الأول. وحين يكون لديك حلم كهذا في مدينة كبيرة كأكادير، عليك أن تعمل بجد، لن تتسرب فلسفتك الداخلية إلى المطعم والمقهى ليس باعتماد الموتيفات التزيينية فقط، بل بخلق الجو داخله، ومفهوم الجو هو ما أبحث عنه منذ مدة، وهو ما التقطه سمير وهو يدخل بيتي الذي لم يزره قبل سنوات. أحس بألفة وهو ينظر إلى الأشياء التي كانت تتطق بكلمات. غرفة نومي بيضاء باستثناء الوسائد الأربعة المحشوة بحشوات خاصة، الأولى: الزرقاء السماوية محشوة بالريش الأبيض، ريش البط أو الأوز، والثانية خضراء فستقية محشوة بصوف الغنم الذي تفوح منه رائحة غريبة جداً؛ لذلك لا أستعمل هذه الوسادة كثيراً، أستعملها فقط حين أشغل المكيف لأنها تعطي حرارة مضادة لحرارة الغرفة، والثالثة بنية فاتحة محشوة بالقطن الأبيض الناعم المستورد من بساتين على الصعيد المصري، والرابعة رمادية محشوة باللواط La ouate وهي مادة تشبه القطن لكنها أكثر منه تماسكاً بسبب تركيبها الصناعية من البولستر، ولدي وسادات أخرى بحشوات خاصة، ألياف جوز الهند أو وبر الخيل أو شعر الماعز الأبيض. أغطية الوسادات ضرورية جداً وغالباً ما تكون صوفية في فصل الصيف وقطنية خفيفة في فصل الشتاء، عكس ما هو رائج فأنا أبحث عن برودة الوسائد شتاء وسخونتها صيفاً.

الأرق هو الذي صنع لي هذه الأوهام الصغيرة، غير الوسائد فكل شيء أبيض والغرفة لها سرير فقط وبينه وبين الدولاب حائط يمنع رؤية الأشياء الأخرى، سرير خشبي ووسادات وأغطية فقط، كي لا أسرح بخيالي في الأشياء الكثيرة التي قد تمنع عني النوم، فالكشاكش والحبال التي تزين الستائر أسندة الرأس والمخدرات كلها أشياء زائدة في غرفة النوم؛ لذلك أتركها للصالون والأركان الأخرى من البيت، فأنا أملك مخيلة سائلة لا تتوقف عن صنع العوالم من لا شيء، فقد أتبع رسومات الغطاء أو اللوحات على الجدار وأسرح إلى ما لا نهاية، كل شيء أبيض كالنوم، كالموت، كي أمنع عن ذاكرتي تلك الهجرة السرية العابثة عبر الألوان أحيطها بالبييض كي لا تحيطني بالأسئلة، كأن البييض منظم الذاكرة، كم أتمنى ذاكرة من بياضٍ يمسح عنها الأحمر الدموي القديم. يا ذاكرة الأحمر هجرانك، هجرانك.

الأرق طبع الكثير من جوانب حياتي أعطها تميزاً ولكنّه أعطها تعباً أيضاً، الليل للحالمين والعاشقين ويلي للسهر والنظر، حين ينام الناس يبرز شيء جديد في العالم لا يراه إلا اللياليون والبوح، شيء من جيرة الحلم والسكينة. أمور لا يعرفها الجميع، امتداد لحياة النهار، تجعلك تعيش حياة أطول من الآخرين الذين يقضون ثلث يومهم في النوم الثقيل.

تململ سمير من غفوة قصيرة وعدت أنا من شرادي البطيء، أحس بانزعاج مفاجئ وتغير مزاجي طارئ (لأنه احتاج أن يدخن) استقام حاجباه وتفتنت رموشه واحمرت عيناه الصغيرتان، رغم محاولاته إخفاء ارتبائه أمامي، إلا أن عصبية طفحت فاستأذن في الخروج وحمل مفاتيح سيارتي دون استشارتي، نظر إلى حاملة المفاتيح الفضية على شكل حرف أزا الأمازيغي برئوس عاجية قال وهو يحمل بعضه إلى الخارج:

- «ساعة ثم أعود، وأشار إلى مفاتيح السيارة في يديه».

غاب ساعات إلى غروب الشمس وعاد بمزاج معتدل، المزاج القاتل الذي يجعله غير مهتم بأي شيء حوله أمطرنى بجيش من الجمل والابتسامات، أحاديث كثيرة وغير مفهومة، وحين لمح القيثارة المعلقة على جدار الصالة التي نجلس فيها، اندهش وفغر فاه كأنه رأى العجب، التقطها بخفة وبقي مدة يعدل أوتارها على الإيقاع الغربي.

قلت له إنني لا أعزف عليها، وإنما يعجبني كثيراً أن ألاعب أوتارها في بعض الليالي الحزينة، صوت القيثارة يثير داخلي شجناً وحنيناً لا أعلم مصدره، فذاكرتي السمعية ضعيفة لا تخزن الموسيقى ولكن حين أمس تلك الأوتار بعشوائية يحدث داخلي تكهرب يستفز حنيني، الحنين إلى ماذا؟ لا أدري بالضبط، حنين إلى شيء ما، إلى نقطة في عمقي تثيرها نوتة القيثارة وتدغدغها كأنها تتأغي جملة من زمن الطفولة، الحنين دائماً يكون إلى الطفولة ...

عدّل سمير أوتار القيثارة وراح يجرب عليها لحنًا، قال في هدوء ملائكي:

- «سأعزف لك» (الأب والابن) لكات ستيفنس، وأعتذر مسبقاً فصوتي لا يصل إلى هذه المستويات والطبقات، ومزاجي لا يسمح بالانفعال مع الأغنية، سأعني لك صديقي، في خاطرك يا سيدي ...

It's not time To make change

Just relax Take it easy ...»

كان لحناً خفيفاً بدايةً، هادئاً، لكنّه يرتفع شيئاً فشيئاً كأنها معركة، كانت أصابعه تذبج على الأوتار، وجسده يهتز مع كل ارتفاع في الطبقة، ويكابر بإخفاء دمع مشاغب متهور يتدافع ليخرج، كانت آهاته كجيش مائي يمتطي نهر النيل في أيام فيضانه الفرعوني، فكانت بعض الجمل متحشرة كالخريز، وكان سمير ينزف ألماً موسيقياً وشعره المجدد الطويل يلحن سيرة الحياة والأيام.

عندما اقترب من نهاية الأغنية كانت أصابعه تنزف دمًا، وابتلت الأوتار وتبقع خشب القيثارة، وامتد الاحمرار إلى المكان كله، هكذا بدت الصورة.

وضع سمير القيثارة جانباً وحمل كأسه الثاني بالزعر البلدي، الزعر البلدي يعطي نكهة قاسية للشاي؛ لذلك عليك أن تغسله بالماء الساخن وتنقعه قبل استعماله، وتنتبه لبعض الأعشاب التي تختلط به وتعطي طعاماً غير مستساغ للشاي، مرارة خفيفة، تناول كأساً وبعض الكعك المملح وخليطاً من الحمص وال فول السوداني والجوز واللوز. يبدو أنه لم يتناول غذاءه في أي مكان؛ لذلك حملت له طبقاً من الفواكه، طبقاً زجاجياً من طابقين، الأصغر العلوي به حبات الكريز والتوت الأسود، والأكبر في الأسفل وبه موزتان وتفاحة وحبتي كيوي.

نظر ملياً إلى السكين ذي المقبض الزجاجي وابتسم ابتسامة جميلة فقال «ما زلت تغرقني بالكثير من التفاصيل. تدريب يومي شاق يا صديقي، ما هذه المتعة التي تنسكب من كل ما يحيطك، من أين لك كل هذا الوقت لتهم بالمواعمة بين طبق الفواكه والسكين الزجاجي».

ما زلنا نحوم في ملاحظاته وتفصيلي، حتى بدأت أشك في هوسي بالتنظيم والترتيب والمواعمة بين الألوان والأشكال والامتلاءات والفراغات، والحضور والغياب، أعطابي النفسية لا تتساقط على منظوري التشكيلي وجلبة الفوضى داخلي لا يصل صراخها لما حولي، الأجل لو انعكست هذه الترتيبات على داخلي الخرب.

الأجل لو كان كرسي الحب في داخلي وثيراً، لو كانت ذكرياتي متلائمة مع الستائر المخططة، كنت حينها أستطيع إسدال الستار على كل ذكرى موجهة وكل ماضٍ مشبع بالألم.

حد السكر سأتهادى بالفرح لو كانت نوبات القلق والأرق قبل النوم معلقة في دولاب الأقمصة البيضاء -لأن اللون الأبيض له دولاب خاص صغير داخل الدولاب الخشبي في غرفة النوم- أستطيع خلعها وكيها وإعادتها للعلاقات (القابلة للتطوير والتقصير) وقتماً أردت، فأنام قرير العين والروح.

لم أخبر سمير بكل هذا الزخم العاطفي السلبي، ولكنني لم أنتبه لفترة شرادي التي طالت، نظرت إليه من جديد وكان يلاعب أوتار القيثارة، ربما اعتبر هذا الفراغ سقوطاً لجملة من السنوات فقط واستمر دون انتباه. طوال اليوم لم يذكر سيليا ولا قضية طلاقه، يحاول قدر الإمكان الانشغال عن الموضوع، وأنا أيضاً تجنبت كل ما قد يثير حزنه أو غضبه، الأمر معقد جداً، رغم أنه مقتنع بما حدث إلا أن حبل الزواج كان ميثاقاً غليظاً حقاً، إنها نهاية عهد من الألفة، من الالتصاق اليومي بين شخصين.

لم أتخلص بسرعة من مشهد أصابعه التي تتقطع على أوتار القيثارة والدماء تتزف منها، كانت الأوتار سكاكين حادة وكانت الألحان أنهاراً من الدم والألم. لماذا تهرب بي مخيلتي دائماً نحو الدم، العزف والغناء المنفرد لسمير استمر داخلي على شكل مشاهد مرعبة، وكنت بيني وبين نفسي أعلم أن جسدي ممسرح، وأن أحاسيس غريبة تعبرني، أقنعة وأقنعة، الغرابة تستوطن أضلعي أزياء تتناوب على وجهي، كابتسامة مرسومة، ملونة على وجه بهلوان حزين يريد إضحاك جمهور عزاء، ولكنني لم أخبر سمير بما يروج في داخلي، هناك أشياء تقع في المسافة الفاصلة بيننا وبين أنفسنا لا تستطيع ترجمتها بالكلمات العادية. هناك مجالات في عمق الإنسان لا تدركها حواسه ولا تدركها اللغة القاصرة ولا يدركها المجاز مهما كان بعيد التأويل.

تأملاتي وشرادي المقدس وحديثي مع سمير بالتوازي مع حديثي إلى الكائن داخلي ومع حملي الأطباق وقشور الفواكه إلى المطبخ، الطبق الزجاجي شفاف يظهر كل شيء، عكسي تماماً، والسكين باليد الزجاجية حادة، عكسي تماماً، فأنا لئن كسنبلة خضراء، يبدو أنني أرثدي ضد مقاساتي ألبس الحزن ففضاضاً كسروال أندلسي، وقبعة خفيفة الظل ككئوس الكريستال التي تعكس ألوان قوس قزح، وحقاً خالياً من الحقائق العاطفية كعلاقاتي الإلكترونية المزيفة، أنا متمرد الأحاسيس كأواني البلاستيك التي أتخلص منها في أقرب فرصة، فأرمني في اليوم الموالي من استعمالها، ليس لي مكان أنزوي فيه لأغير الفوضى داخلي غير ترتيب كل هذه الأشياء حولي.

علق سمير القيثارة في مكانها على الحائط الأبيض وقمت فعدلتها ببضع ملليمترات كي تستقر في مكانها الأولي، نظر إلي باستغراب وارتمي على الصوفة البنية يحتسي كوباً جديداً من الشاي بالزعر البلدي، ورمى رأسه إلى الوراء حتى ظهرت تفاحة آدم التي بدأ شعر لحيته يغطيها وراح يحادث نفسه بصوت مرتفع يصلني كأنه في هوة سحيقة.

«سولال، أنت تعرف أنني لا أستطيع التراجع عن قراراتي ليس عن كبرياء بل عن واقعية، حدثت أشياء كثيرة في الواقع وفي داخلي، عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء لكنها تتحرك وتتهشم وتسقط، تتدلى كما في لوحة سالفادور دايلي، سناء، كانت سيدتي ومولاة قلبي، لكن قلبي تكوّر وانكمش في لحظة زمن طالت كل شيء، انكسر الحب في داخلي، وسيليا التي كانت معي تخلت عني وعن نفسها وقد حاولنا مراراً ترميم التصدعات بيننا دون جدوى، كان لها عالمها وكان لي عالمي، كقارة البانجيا الأصلية، ابتعدنا بفعل التنافر وحركة الزمن حتى صارت غريبة عني، لا يمكنني مقاسمة السرير، والغرفة والبيت والحقل مع امرأة غريبة عني، أكون بذلك أقضي عمري في محاولات

متكررة لرتق علاقة تمزق ثوبها واندثر ما كانت تقوم عليه من حبّ وحنانٍ وتاريخٍ وموسيقى، أي نغمة هاربة كنا نحاول اصطيادها، كالبحث عن زرزور صامت في لجة الظلام، كنت أعزف نوتات المحاولة وكانت سيليا ترقص خارج الإيقاع، واحتترقت الأنغام بيننا، وكان الدخان، دخان كثيف قتل ما تبقى من مودة، وخنق الحب، وأنا لا أعيش دون حبّ، لا أعزف دون حبّ، ومواويلي الأمازيغية لا تستقيم دون حبّ».

أفهم ذلك صديقي، عليك أن ترتاح فقط سنتحدث في ذلك لاحقاً، قلت له ذلك بصوت خافت كي لا يسمعني ويبدو أنه لم يسمعني، فقد استمر في الحديث بغموض أكبر، يبحث عن استعارات أعمق تترجم قراره البسيط، وكنت أومن أن وراء القرارات البسيطة وديان من الأفكار العميقة، تركته يتقك أمامي كقطع غيار سيارة عند مصحح السيارات، تركته يتقنت كقطع خبز يابس يلعب به منقار طائر بانس:

«المودة، الإرث الاجتماعي، الأعراف والتقاليد، أسرتي التي ستبذني بعد أيام، تفكك القبيلة، تصدع الجبال، غثيان الوادي، نظرات شجرات الجوز، وانفعالات شجر الأركان، غرفة نومي الفارغة من الأثاث، نظرات أمي وخالاتي وشوشات عماتي، كل ما سيحدث بعد أن يصلهم خبر طلاقي مجرد حيثيات لا علاقة لها بما يحدث داخلي.

ما يحدث داخلي رغبة كبيرة في إيجاد ذاتي، لا يمكن أن أهدأ وأخمد يوماً بعد يوم، أنا انطفئ كجمرة في رماد قديم، أن أكون بحيرة ساكنة تتحول شيئاً فشيئاً إلى مستنقع من الوحل، تملؤه الحشرات والضفادع، ما فائدة البحر إن لم يكن هائجاً حدّ الزبد، إن لم يرغي ويزيد وينطلق ويهيج كي يملأ هديره الكون، ما فائدة موسيقي إن كنت صامتاً كالصخرة في وحشة القبور، أخبرني سولال، أخبرني، الأورغ يحزن الموسيقى لكن ليس ليقتلها داخله، بل ليصيح بها أمام النجوم والكواكب، لقد وجدتني أسكن رابية في إقليم مكسيكي يابس، كأرنب الجحور الصخرية، مساءاتي بطينة الحركة لا تنتج لحناً، وصباحاتي بيضاء لا تشرق أبداً، شمسي تطلع من الغرب وأصبحت أصلي وفق شعائر أحزاني في الصفوف الأولى للمتعبين من الحياة، أريكة حزني مشنتة وأرانب التعاسة تتقاذف في بيتي وغرفة نومي أشبه بصحاري الجزيرة العربية بعد أن كانت معشوشبة كحدائق الشام. أي عطش يسحق ساعاتي وأيامي، وأي نار تركت المحرقة واستتبت في ملابسني تحت جلدي وأعصابي، صدقني سولال، استحالت عليّ دخلاتي إلى البيت لولا نورستي الصغيرة التي سأعشقها يوماً».

وصل بوحه حدّاً مكهرباً، مناطق متأزمة وكنت أنظر إلى حشرة تغلو تفاحة آدم المعلقة في الفراغ، تصعد وتنزل في حلقة، كالزئبق في المحرار، كلما تشنّج، ابتلع ريقه، صعدت تفاحته، وكان يبكي ودمعتان تسيلان إلى الوراء لأنه رمى بكل رأسه وراء مسند الصوفة كي لا أرى دمه، دمع بلل حواجبه، أكره دمع سمير، كرهته يوماً لأنه قليلاً ما يبكي وحين يبكي تنوب ثلوج جبال الهمالايا وتنشق صفائح الطين بعد أن ينسحب منها الماء حداداً على حزن سمير، قلت له بصوت خافت كي لا يسمعني وكي لا يشعر أنني لمحت دمه الشفاف: إن الصدق مع الذات هو الحياة، ولا يمكن إجبار شخص على العيش عكس ما يرغب. أخبرته أيضاً أن هذه المرحلة الانتقالية ستمضي بسرعة

وسنصبح أمام واقع جديدٍ بشروطٍ جديدةٍ، وَلَكِنَّهُ قاطعٌ كلامي أوَّ أَنَّهُ لم يكن يستمع إليَّ أصلاً استمر يبحث في داخله عن أشياء مفقودة، يرميها تجاهي كأني أعوض المِحْرَقَةَ، سأصمت إذن، وسأكون ناراً صامتة، كنار مِحْرَقَتِهِ التي عودته على الالتهام والصمت، سأصمت وأفتح قلبي لضحايا اصطدامات الأفكار في مجتمه كأني مستشفى الأمراض الفتاكة باللغة، أو ضحايا النزاعات الداخلية.

«كنت أمشي ليلاً في السر، أسري بروحي بحثاً عن التبر في علاقتنا، فأصطدم بتراب وبقايا الجير والصلصال أبحث عن الذهب وأتعثر بالنحاس والحديد والكرانيت والكلس هل تصدقني سولال، حاولت أن أبعث في ليلي جنون السنوات الأولى حين كنت أزيح بفرح ونزق ملابسنا الداخلية عن الأرض وعن الأورغ وأسعد بالفوضى في غرفتي الدافئة، الساخنة، وتخلط كتبي بحمالات الصدر الملونة، وقطع الدنتيلا البيضاء، وأسعد بشعري بملامستنا الساخنة على آلة الأورغ وعلى الأباجورة الحمراء على مقبض الباب، وأبواب الدولاب.

انسحبت الأطقم الليلية نحو الجوارير وتخففت سيليا من جنوننا المشترك وانخرطنا في عمليات سريعة روتينية كأني أذف بقمامة تزعج جسدي في جسدها وأحنني خجلاً كأني مارست طقس التعري أمام جمع من الرجال لا أمام زوجة.

انسحبت مني رغباتي السريرية الممتعة معها، واستقر الواجب الزوجي كحركات ميكانيكية ضريرة لتفادي الإحراج، وكانت تستسلم في صمت وتكتم تأوهاتنا كأنها تمارس رذيلة سرية أو طقساً تعبدياً محرماً.

أصبح كل شيء مرتباً داخل الجوارير السوداء المظلمة والملابس الداخلية لم تعد بمقاسها بعد أن استسلمت لحكي الجدات اللائي أنقن دورهن في جعلها تعتقد أن الرجل منا يهوى السمنة والأرداف الممتلئة والكرش المترهلة والصدر الأمومي الكبير، حتى أنهن جعلنها تتناول حبوب تسمين العجول، كنت سأنفجر حين وجدتها تخفيه فوق الدولاب، خفت على صحتها، إلى هذا الحد سولال. بقيت أنا، أنا رغم كل شيء متمسكاً بها حتى آخر زمن ولكني بدأت أفقد نفسي وتسربت خيوط الصبر مني، أثرت أن أكون أنا فقط. كان الدخان يتصاعد من احتراق علاقتنا لم يكن الأمر سراً، فالسماة فوق بيتنا تعرق، جدران غرفتنا وقوائم السرير، مقبض الباب، رائحة الدخان ورمادي ورمادها والصمت والغضب المشتعل كان فاضحاً، كل شيء كان يندز بالرحيل، فرحلت، نأيت بنفسي داخل الموسيقى، أكتب، ألحن، أغني، وحدي في الغرفة العلوية الأستوديو، أغني لنفسي فقط وللجبال والجدران، وأغطس كالديك المذبوح ففي الماء الساخن والموسيقى، وتمر الأيام والسنوات وأفقد نفسي شيئاً فشيئاً...».

الجسد مجمع الرغبات ومقل اللذات، سمير كان يتحدث كأنه يغني موالاً أمازيغياً حزيناً، لم يكن يحادثني بقدر ما كان ينفث اللافا من داخله ليحرق الغاية المتشابكة الأحزان، وأنصت بكل جوارحي، أزعجتني صورة الغرفة الفوضوية والملابس المبعثرة، وفكرت أنه من المستحيل أن

أعيش أو أنام في غرفة بها أبجورة مغطاة بالكالسون أو السترينغ أو فساتين الليل الشفافة، لكني كتمت غيظي لسببين؛ الأول كي لا أخرج سمير وحياته الحميمية غير المرتبة. والثاني كي لا أفصح هوسي الجميل بالترتيب.

لذلك ربما لم أتقبل بعد فكرة الزواج، كيف أشارك حياتي المرتبة مع امرأة قد أحتاج معها عمراً من التدريب كي تميز بين الأخضر الرمادي والرمادي الأخضر.

وجه سمير بدأ يرتخي كأنه يفقد قوائمه العضلية، وبدأ يستسلم للتعب، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، وهي ساعة عادية غير متأخرة للنوم عند أمثالي بل هي ذروة نشاطي الذهني، سمير أنهكه الانفعال والحكي واستسلم للنوم على الصوفة في الصالون، أحضرت ملاءة ثقيلة وقمت بتغطيته، ونظرت إليه طويلاً وهو نائم، ملامح سنوات العشرين رحلت، وجه منهك كأنه عاد من الحرب، أسنان متآكلة وبشرة مبقعة بالسواد، النقط السوداء كثيرة جداً على وجنتيه كأنه لا ينظر في المرأة. يحتاج إلى كوماج مطول. ولكنه مستسلم لنوم عميق كأنه ما نام نصف قرن أو يزيد، كأنه كان محارباً في صفوف الهنود الحمر منذ التصفية العرقية، أو جندياً في الجيش الياباني ينتحر على الكنبة وينام في هدوء.

حين وضعت عليه البطانية الثقيلة، تحرك من مكانه فجأة واعتدل في جلسته، ثم اتكأ على حاشية الصوفة. وبدأ يتحدث من جديد، ها هو الحكي المتعب مرادف لعملية جراحية، تمنيت عليه أن ينام ويرتاح ولكنه فضل النفخ في كيس التعب تحت عينيه، وراح يهذي أو يسرد فلاشات من ذاكرته المتعبة.

«كان وراء بيتنا نبتة لبلاب كبيرة مستقلة، من جذر واحد فقط، لكنّها تفرعت وغطت الجدار الخلفي للبيت وكانت جدتي توجهها نحو السطح بخيوط وأسلاك، أزهارها بنفسجية تشبه الطربوش، فهناك من يسميها طربوش الغراب، وفي بعض المناطق يسمونها حبل المساكين، لا أدري سر هذه التسمية، فهي متسلقة ربما كالمساكين يتسلقون سلم الطبقات أو لأنها راشية كحبل مسكين. وصلت هذه النبتة إلى نافذتي، وكنت أقطف منها كل مرة طربوشاً بنفسجياً وأضعه بين خصلات شعر سيليا حين تطلق شعرها الطويل في المساء، فوق أذنيها مباشرة، أقطفها قبل أن تغرب الشمس وتتغلق الوردة، وأرشها بالماء قليلاً وأقول لها بالأمازيغية: Ar kmttirigh بـمعنى أحبك وحين يشد بي العطش إليها أقول: Righkm بـمعنى أريدك، فتهرب مني وتختبئ وراء باب الدولاب، فأنزع ملابسها وأبحث عنها في ظلام الغرفة، أتتبع رائحة زهرة اللبلاب التي كانت تسكنني حتى أجدها أو هكذا كنت أتخيل الأمر وكنت أجدها مختبئة مذعورة وألثمها، وتلتصق بي كالرتلاء، فإزداد شهوة وأرمي بقطرات الماء في بركانها فلا تتطفئ، فإزداد اشتهاً فأصعد بركان التحدي مرة وثانية وثالثة... وماذا بعد كل هذا الجنون: برود صقيعي نظرات مسلحة بالجحود مني ونظرات مسلحة بالعتاب منها أمام باب محكمة قضاء الأسرة. انتهى الجنون وانسحبت الدالية وأزهار اللبلاب البنفسجية واستحلنا صنمين بشريين».

في سلم الهديان كان المنطق ينتصب للمزيد من الحكي، وكنت متوترًا بدله. أردته أن ينهي هذه المتتالية من الآهات والذكريات. طلبت منه أن يستريح ويستسلم للنوم، ولكنَّهُ لم يجنبي وبقي مدة طويلة بينَ إغفاءة ويقظة. ينتحب كلامًا كالجمر الملتهب قبل أن يبدأ في لعن الحياة العاهرة، لعن الحب والقلب. طلب مني تشغيل موسيقى راي الشاب حسني، فعلت ذلك وتركت الصوت خافتًا ورحلت إلى غرفتي لأحاول النوم، لا أقول أبدًا أنام بل لأحاول فقط.

أحس بأني أطفو على سريري والسقف يشربني وأتحد مع سماء غرفتي وأصبح أبيض الوجود وكلي ألحان شفافة.

ربما أنا نائم، الوعي بالنوم عمل مسرحي للجسد يستعرض فيه تلك الدقائق بينَ النوم الخفيف والعميق، أنا نائم إذن. سأرتاح قبل أن تظهر خيوط الصباح. للصباح خيوط يمدّها لينتشلنا من حياة الأحلام ويضرب بنا عرض الواقع.

قبل أن يغتالني النوم انسحبت من فراشي لأرى ما فعله سمير بنومه فأذا بي أجد غاصًا في موت ثقيل منحسرًا داخل الصوفة كأنه قط برجوازي في سلة محشوة بالقطن. الصوفة مستوردة من ألمانيا والقطن معالج بمضادات البكتيريا، كي لا يسبب لي حساسية ما، الصوفة مدعمة بنوابض لولبية غير قابلة للصدأ لتعيدها إلى حجمها الطبيعي بعد الاستعمال. الأبيض ليس لونها الأصلي فقد وضعت عليها غطاء مفصلًا على شكلها لحمايتها من أوساخ أقدام ضيف قد يعتدي على جمالها، كسمير أو أي فتاة تدخل بيتي وتمد ساقها على الصوفة لإثارتي. دزن أن تعلم أن تفكيرني يتجه نحو الصوفة ولون لباسها الذي قد لا يتلاءم مع الأبيض الحليبي للغطاء. بسبب هذا الهوس المريض انتظرت شهرًا لأصطحب إحداهن لبيتي رغم إصرارها في انتظار أن ترتدي البني الفاتح الذي عشقت أن أراه على جسدها فوق الصوفة البيضاء الحليبية. والحقيقة الكاملة أنني انتظرت هبوب رياح الخريف لتتلاءم مع البني الفاتح، وكنت قد أدخلت خطوطًا من اللون الأصفر الغامق على الفضاء عن طريق تعليق ثريًا صينية عملاقة من الورق المقوى في وسط غرفة المعيشة. الألوان تتحكم في سعادتني الجنسية، تلك التفاصيل التي لا تنتهي.

وعُدت إلى فراشي لأرتاح من وجع النهار والحكي اللامنتهي. ما دمت أتمكن من رصد حياتي كل ليلة وتسجيل ذبذبات وجودي، سيغتالني النوم بعد قليل، حرارة رأسي مرتفعة. أخذت وسادة لياتيس الصينية LYATIS التي لا تسخن حتى صيفًا وضعت عليها رأسي في انتظار صعود الإنزيمات إلى دماغي لتخديره وتوقيفه عن الدوران.

واستيقظت فجأة كالمذعور. ارتديت ملابسني وخرجت للصالة للاطمئنان على سمير. وجدت أنه غادر البيت باكراً تاركًا وراءه رسالة مكتوبة بخط روجه.

لم أفتحها مباشرة، فلست من النوع الذي يستعجل مشاهدة الدراما، ذهبت للمطبخ لأعد شايًا بالنعناع وأضع الكرواسان في المايكرويف الذي سأخلص منه قريبًا، فأنا لا أستعمله إلا نادرًا، خمنت أنها رسالة عادية ولم أكن متلهفًا لقراءتها، فالشكر بينَ الأصدقاء نوع من العبث ومضيعة للغة، فالصداقة

تنسج علاقات أسرية خارج روابط الدم والقرباة وتلغي حواجز وبروتوكولات اجتماعية تقليدية، فالشكر إذن في هذا المقام ليس إلا ترفاً زائداً عن الحاجة. لو إعتذر مثلاً عن وطء الزربية بحذائه المتسخ لكان أفضل. لو كتب كلمة أسف عن أعقاب السجائر التي تركها فوق المائدة الزجاجية وَقَدْ تَرَكْتُ خَطَاً أَسْوَدَ قَرَبِ طَبَقِ الْفَوَاكِهِ الَّتِي تَأَكَسَدَتْ لَكَانَ أَجْمَلَ.

قَالَ فِي رِسَالَتِهِ:

«إليك صديقي الأجل عبر كُلِّ الأزمنة ...

لَعَلَّ الْمَوْسِيقَى أَفْقَدْتَنِي لُغْتِي الْقَدِيمَةَ، وَلَكِنِّي أَحْتَقِظُ لَكَ دَوْمًا بِمَعْجَمٍ خَاصٍّ يَنْفَتِحُ تَلْقَائِيًّا وَأَنَا أَكْتُبُ إِلَيْكَ، لَنْ أَشْكُرَكَ عَلَيَّ وَقَوْفَكَ مَعِي فَالشُّكْرُ بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ نَوْعٌ مِنَ الْعَيْثِ وَمُضِيعَةٌ لِللُّغَةِ، أَنْتَ سَنِبْلَةٌ مَثْقَلَةٌ بِالْفَرَحِ يَهْدِيهَا نَسِيمٌ مَسَائِيٌّ، بِهَمْسٍ لَطِيفٍ، وَحَدِّكَ مِنْ بَيْنِ سَنَابِلِ الْعَالَمِ تَحْتَقِظُ فِي قَلْبِكَ بِحَبِيبَاتِ صِدَاقَتِي، تَمِيلُ بِوَجُودِكَ وَحَزْنِكَ حَيْثُ أَكُونُ أَنَا وَحَزْنِي وَوَجُودِي. هَكَذَا أَحْسُكَ تَتَمَدَّدُ مَعِي عَلَيَّ حَصِيرِ الْفَوَاجِعِ وَالْمَشَاكِلِ الْأَسْرِيَةِ. تَحَلَّلْ مَعِي بِصَمْتِكَ بِاسْتِمَاعِكَ لِمَا يَجُولُ فِي دَوَاخِلِي الْمَتَهَالِكَةِ، أَرْجُوكَ اعْذِرْنِي، سَأَعُودُ حِينَ أَكُونُ أَكْثَرَ قُوَّةً.

صديقي أنت سيد المسافات الطويلة في الصبر على جنوني. أحبك صديقي».

رحل سمير، حاملاً معه همماً ثقيلاً، وكبيراً أثقل. ترك فراغاً في البيت وحاجيات مبعثرة وأعقاب ورماد سجائر. هَذَا مَا تَبَقِيَ مِنْهُ، وَأَنَا لَنْ أَتَمَدَّدُ عَلَيَّ الْحَصِيرِ عَلَيَّ كُلِّ حَالٍ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقْتُ الْكَثِيرَ عَلَيَّ الْأَثَاثِ الْمَسْتَوْرَدِ. تَمَدَّدْ وَحَدِّكَ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَرْفَعَ رِجْلَيْكَ فَوْقَ الصَّالُونِ الْمَغْرِبِيِّ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْرِفَ إِنْ كَانَ غُرْفَةً جُلُوسٍ أَمْ غُرْفَةً نَوْمٍ لِعَشْرَةِ أَشْخَاصٍ، الصَّالُونِ الْمَغْرِبِيِّ الَّذِي يَمَلَأُ الْغُرْفَةَ مِنَ الْأَقْصَى إِلَى الْأَقْصَى وَيَحْتَاجُ سَتِينَ مَتْرًا مِنَ الثَّوْبِ السَّمِيكِ لِتَعْطِيطِهِ. أَيُّ عَذَابٍ مَغْرِبِي تَعَانِيهِ الْأُمَهَاتُ لِتَنْظِيفِهِ، وَمَطَارِدَةُ الْحَشْرَاتِ وَالْفُئْرَانِ الَّتِي قَدْ تَسْكُنُ فِيهِ شَهْرًا دُونَ عِلْمِ أَحَدٍ. وَقَدْ تَلَدَ فِيهِ الْفَأْرَةَ دُونَ أَنْ يَوْعِجَهَا مَخْلُوقٌ، الصَّالُونِ الْمَغْرِبِيِّ نَكْتَةً سَمِجَةً.

لقد رحل ببساطة ومضت سنوات قبل أن أراه مرة أخرى.

لقد قرر أن يرحل وأنا قررت أن أعيد ترتيب الصالون وتعليق مكتبات جديدة. أحضرت الكثير من الروايات الفرنسية والأمريكية المترجمة إلى الفرنسية ورتبتها حسب سنة إصدارها، cocagne لـ Han SUYIN، Les puissances des لـ André Barret، Les quatre visages لـ Anthony Burgess وغيرها. شكلت وجبة مختلفة من الروايات الضخمة التي تزيد عن ألف صفحة في مجموع أجزائها، لدي الوقت الكافي لأقرأ.

عندما هممت بأخذ الرواية الأولى سقطت منها ورقة مكتوبة بخط يد سمير، مرة أخرى طقس للمحرقة دون محرقة حقيقية، وضعها داخل هذه الرواية كي لا أنتبه لها عاجلاً، ولكن يبدو أن القدر أراد لي أن أفهم سر توتراته كلها.

«إلى المحرقة:

نظرتها كانت حادة جداً، تحملني وزراً، نظرتها كانت حادة جداً، تحملني وزر كل الرجال الخائنين، وكل قصص البهتان التي سببتها شهوات مظلمة ولذيذة، لم أكن خائناً بالمعنى الذي ...، كنت خائناً بالوجود، وفضحتني عيناى، وعيناى مظلمتان كفكرة شيطانية، وهى كانت ملاكاً بقلبي، آه منك يا صوت المتعة المتعالى على فنون الوفاء.

وكنت مستعداً لأي عقاب، وتظهرت بالاعتراف ...

ولكن حكمها كان الرحيل بصمت جنائزي ...

ونظرة حادة ...

جداً.

أسرع محاكمة مررت بها في حياتي. القاضي كان انسداد الرموش على دمعتها الوحيدة التي استكفت عن مسحها وتركتها تسيل على خدها. الدمعة الأعلى التي رأيتها في حياتي. الدمعة الوحيدة التي تمنيت أن أدفع عمري ثمناً لها كي لا تسقط. رفعت أنفها نحو الأعلى كأنها تحاول تغيير مجرى الدمع. كأنها تريد أن تخفي جرحاً بالتعالى عليه، وكنت أدفع ثمن كل ثانية وكل حركة من عينيها، إنه الانسداد الأخير لرمش طالما رفر فرحاً برويتي، طالما بعث الحياة في حياتي، طالما عشت داخله عمراً أكبر من عمري، طالما تلون بألوان الشوق لي ولرويتي، رمش ينسدل اليوم عليّ ويدفني. أقسى عقاب من أنثى مخذولة هو الصمت المغلف بالكبرياء. أقسى عقاب لرجل مثلي هو الاحتراق بدمعة حارقة تكوي قلبي، وكلما مات أحبته ذكرى ليكوى من جديد. الرمش الوحيد الذي رأته وهى تدير وجهها وتتصرف وفي حقيبتها اعتراف بجرم طائش وخيانة عظيمة. سيد الألم هو صدري المتضخم بحرقة رحيلها ونظرتها الأخيرة. رحلت إذن وتركتني أبحث عن ألف لفيفة وولاعة واحدة لأحترق.

ودخنت كما لم أدخن يوماً، واحترقت على أنغام النار وثررة الدخان، وانتهيت إلى ألف قطعة أو يزيد، هنا بين مرافئ الحياة أنتظر الرد القاسي منها. الخيانة بأخرى والبادئ أظلم. خيانة الحياة لا خيانة أنثى. أستسلم إذن للعادي والردىء من الأيام؛ لأنى فضلت لحظة عابرة على أسطورة. كانت لتفديني بدمها وكان لدمها أن يحييني عمريين أو ثلاثاً، ولكنى رجل المساوى البالية.

تلك النظرة كيلا أنسى، كانت نظرة تحد منها لي.»

أعجز كل العجز عن فهم ما يدور بذهنك؛ لأنى أدرك جيداً سوء الفهم بيني وبين ذهني، فكيف أفهمك؟ لذلك أكتفي بالنظر في عينيك بحب وأمضي. مسألة خيانة إذن، وهى من طلبت الطلاق

وتراجعت عنه، سامحتك وأنت لم تكن تريدها أن تسامحك في قرارة نفسك. وحافظت على شرك أمام الجميع، أثبتت أنها أنبل منك بكثير أيها الموسيقي.

ها أنت كجميع المدمنين تهرب لائذًا بدخانك من كل ما يمت للحقيقة بصلة، يا له من خطأ محزن، أن تقعد بوصلة حياتك في لحظات شقاء. أي مذاق للخذلان في حلقك، حتى السكر يستحيل مرًا على لسانك، والشاي الأطلسي الحلو المذاق فقد حلاوته وتسمم في الكأس. الكأس مليئة بتناقضاتك يا سمير، يا سليل الغموض والسيناريوهات السرية. أكره طبيعتك هذه، أنت تؤجل دومًا قول الحقيقة لأنها تخيفك.

وتعترف الآن أمامي بكل وقاحة، بعد أن صدقتك، وصدقت حكاياتك القديمة، لكن الفراق دومًا هكذا لا يعير اهتمامًا للأسباب، يمكنك أن تفترقا وبعد ذلك يجد كل منكما مبررات تقنعه لما تبقى من حياته. وهي لا تدري سبب الفراق حقًا، ربما لأنها قررت في لحظة ما أن تسامحه حين عجل هو بالمضي في إجراءات الطلاق.

وتطلقا إذن ...

كأن عرسًا لم يكن بتلك الفخامة البدوية؛ لذلك أكره الزواج، إنه فقاعة كبيرة تتعدم حين تتفجر. ما ذنب الطفلة التي ستكبر الآن مشتتة الذهن بين والديها وهي تقارن وضعها بوضع قريناتها. من أجلها كرهتهما معًا في تلك اللحظة. ستكبر ولن تعرف من أخطأ في حقها ومنعها من الاستمتاع بحياة طفلة عادية. هذا سيناريو بائس، قد يحدث العكس وتشكر الله على فراق والديها؛ لأنها حصلت على اهتمام مضاعف من الجميع من جدها وجدتها على الخصوص، وربما تقارن حالتها مع حالة صديقة لها تعيش في توتر بين والديها دائمي الشجار وتطلب من الله أن يفترقا يومًا كي تنهأ بحياتها. لا يمكن التكهّن بمسارات الحياة الذئبة التي تخون كل التوقعات. سنطوي هذه الصفحة التعيسة من حياتنا يا سمير.

سليبا انتقلت للعيش مع والدها، وأخذت ابنتها، سمير غادر البيت بعد أن رفض جده هذه الإهانة الكبيرة في حق أخيه، فاضطر سمير لمغادرة القرية رفقة آلاته الموسيقية وأرانبه ولفائفه، وسكن بالقرب من مدينة تارودانت؛ لأنه يكره العيش في المدينة. اكترى منزلاً طينياً مع زريبة كبيرة وحقل واسع وبدأ حياة جديدة. الوحيدة التي كانت تزوره هي أمه، تقطن معه أيامًا وأسابيع وتعود للقرية باكية في كل مرة، فلا هو طلب العفو من والده ولا والده تنازل عن كلمته. والقبيلة كلها معروفة بقساوة قلوبها على الأبناء العاقين. رغم ذلك فسمير يزور والده في كل مناسبة ليقلل رأسه ويده دون أن يرفع بصره إلى وجهه، وكان الأب قد كتب سرًا بعض ممتلكاته لحفيدته تعويضًا لها ربما على خيانة الجميع لها وهي طفلة وحفاظًا على ماء وجهه وهو يغادر هذه الحياة.

واستقرت الأيام على الرتابة من جديد، عمل ونوم وأكل ودروس في الطبخ الإيطالي الكثير الخضر، والطبخ التركي الكثير اللحم، اكتشفت الكذبة الكبرى التي كان يروجها الإعلام عن الطاجن المغربي، فهو ليس مغربيًا، كل دول البحر الأبيض المتوسط لديها طواجنها الخاصة، المغرب بعد الاستقلال بدأ يبحث عن هويته المفقودة بسبب سنوات الاستعمار الهمجية وسنوات الرصاص الأكثر همجية منها، فكانت التلفزة المغربية الحزينة سلاحًا في يد النظام ليصنع بها هوية مغربية من الفلكلور والطاجن والكسكس وغيره، ليغطي على ما كان يطبخه في الخفاء وعن مشاوي الرجال الصالحين الذي حرقهم، لكنّه نجح فقط في خلق شخصية بهلوانية بدون ألوان حقيقية فبدل الاعتراف بالاختلاف الثقافي وحد كل شيء بالسيف والرصاص. فاعتقل الناشطين السياسيين والأمازيغ المطالبين بهويتهم وفكّر التراث الصحراوي من أجل عيون الرباط وفاس. كل هذا لا يهم، المهم هو أن الطاجن يسمح بالتشكيل والحذف والزيادة والنقصان في كل مكوناته.

كان أخي محمد سالم يطور نظريته في الطبخ، سماها المطعم الشنقيطية، وقد بدأ يكتب كل ما يراه أو يجربه في كتاب سيصدره عند افتتاح المطعم. هو الآن يعمل عند الشيف الراضي بمراكش كنوع من التدريب. سيقضي سنة في هذه المدينة التي لا تؤمن سوى بالضحك. حتى أصبحت مسخرة العالم بكل التنوع الهجين الذي انهرق فيها وفي ثقافتها؛ لذلك تأخرنا في بناء المطعم، فكانت حياتي رتيبة جدًا لا تميزها سوى العلاقات الافتراضية على الميسنجر وزياراتي الكثيرة للحاجة.

الشنقيطية ازدادت سعادة في حياتها، هذا ما تقوله، رغم تعب أبي ومزاجيته التي أصبحت تزعجها إلا أنها تعيش سكونية لا يصل إليها غير الذين أمضوا مسارًا حياتيًا كثيفًا من التجارب، فراكموا لحظات الحزن والفرح والقلق والخوف والحرب ليصنعوا منها حكمة آخر العمر. وأنا أجلس قرب سريره؛ لأشرب من معين الحكمة الذي لا ينتهي. حكايات الصحراء على الخصوص والسفر الذي لا ينتهي.

في إحدى الأمسيات حين دخلت البيت وأنا ألاعب الخادمة العجوز، سمعت نقاشًا حادًا بين أمي والحاج الذي خرج متوترًا ومتقلّبًا بتعب السنين، مر بقربي ورماني بنظرة غاضبة وحزينة في نفس الوقت. لن أكون السبب في غضبه عليّ، لم أفكر أبدًا في أن غضبه موجه نحوي لأن كل ما أفعله تجاهه طيلة سنوات هو تقبيل رأسه ويديه في محل الصوف بالسوق ومجالسة أصدقائه الذين تعجبهم نقاشاتي السياسية التي لا أمارسها إلا معهم.

سمعت شيئًا لم أفهمه، عن حقيقة ما يجب أن تظهر. وأن يعلم بها الأولاد والبنات. وشيئًا عن حقي في الإرث الذي يجب أن يسجل ويوثق، لن أقبل إرثًا من والدي وهو على قيد الحياة، ولكن ما سمعته كان شيئًا من قبيل أنني سأكون ووالدي في الجنة إن عاملني كأخي الأصغر، ربما كانت الحاجة تقصد المنحة التي قدمها لأخي محمد سالم بعد تخرجه ولم يقدم لي مثلها، ولكني لم أهتم لذلك فأنا ومالي ملك أبي، وأنا ملك أخي، فهو قطعة مني وأنا قطعة منه. حدة النقاش كانت غريبة جدًا إن كان هذا هو الموضوع. كتلة التوتر لا تسير وحجم المشكل.

لم أستطع الصبر على الأمر فدخلت إلى غرفة الحاجة التي بدت لي أكثر كهولة وتعبًا من ذي قبل، وهذا هو الإحساس الذي أكرهه أشد الكره. أن أرى السنين بادية عليها.

سألته ضاحكًا كي أكسر توتر الجو:

- ما به الحاج؟ أما زال يطالب بحقوقه الزوجية؟

- اخجل يا سولال فقد كبرت على هذا المزاح. الحاج يضع رجلًا في الدنيا ورجلًا في الآخرة، يريد أن يطمئن على الجميع.

لم أقتنع بكلامها فولدي أكثر تشبثًا بالحياة واللهم، ولا يفكر بمنطق الموت. كما أن الحكمة التي تقطر ممن في مثل سنه لم تعمر معه كثيرًا، فما زال يحب المزاح ومعاكسة النساء في رحبة الصوف، وما زال يخفي السبسي كلما مررت بحانوته.

- وما هي الحقيقة التي قال إنها يجب أن تظهر؟

- وهل هناك حقيقة أصفى من عيون حبيبي سولال؟ ربما أنت الحقيقة الوحيدة هنا. عليك فقط أن تعلم أنني أحبك أكثر من الجميع، فأنت نعمة من السماء. إياك أن تختار عروسًا لبيتك الفارغ فتلك مهمتي الأخيرة. وهي عسيرة جدًّا، فأين سأجد شابة شقراء مثلك، وأين أجد مثل هذه العيون الخضراء، إنها مهمة شاقة، لكن الشنقيطية لا تستسلم وستحضرها من إسبانيا لو اقتضى الأمر ذلك

- ألا فاسقني كاساتٍ شايٍ ولا تدر

بساحتها من لا يعين على السم

فوقت شراب الشاي وقت مسرة

يؤول به عن قلب شاربه الكدر

قلت لها هذه الأبيات التي لا أعرف مصدرها، وأضفت قول شاعر شنقيطي، بعد أن نادى على الخادمة لتحضر شايًا نتسامر حوله، عدة الشاي فقط، فالشاي ستحضره الحاجة على المجر الصغير وتقلب رغوته في الكؤوس حتى تعلق وترغي وتزيد عمامة على رأس الأشهداء؛ ليعلموا أن لا أحد يصنع مثل كأس الشنقيطية:

- إن لم تكن شنقيط فيها زمزم ... ففيهم للعلم ركن أقدم.

استمر الحديث عن أخواتي وأزواجهن مرة أخرى إلى أن جاءت الخادمة بالعشاء لتتناوله في غرفة الوالدة، فلم يكن غيرنا بالبيت. رقيقة بالدجاج البلدي والحلبة والفل والعدس. رائحة قوية ومذاق

حار. متبلبة برأس الحانوت.

لعنة هُوَ الشقر في عالم الشنقيطين. دائماً أرددها وأنا أنظر إلى طفرتي الجينية، وأكره لوني الشاحب واسمي الغريب، لكن الشنقيطية كانت منفتحة على العالم كله وهي ترافق جدها الذي عمل مع الشركات الأجنبية طيلة حياته في الصحراء للتقيب على الذهب والفضة. الحاجة تحفظ الكثير من الأنساب والعائلات، سواء كانت عربية أو زنجية، وكثيراً ما استعان بها بعض طلبة التاريخ لتتبر طريقهم في بعض بحوثهم، ويطلب منها الحاج ساخرًا فتح محظرة لتدريس العلوم الشرعية وتكون شيخ محظرة.

سألتني عن سمير فأخبرتها أنه يعيش وحيداً في مزاج غريب بعد طلاقه، فقالت إن الأسرار بين الأزواج لا يمكن فهمها، والنفور الذي يحدث بعد أعوام من الزواج ليس له مبرر، الصبر وحده يزيد من عمر صرح البيوت. بكل هدوء إذن سمته نفوراً غير مبرر. وأنا وسمير احتجنا ليلة من الدخان والألم والقلق لنبحث سبب الطلاق واخترعنا ألف حجة. ها هي الشنقيطية تلخص الأمر في قضية نفور غير مبرر أو في سر زوجي لن يظهر أبداً.

- وأنت؟

- أنا ماذا؟

- متى؟

- متى ماذا؟

- نرقص في عرسك، أم أنك تريد أن يقول الناس إن الشنقيطية ولدت شيخ الشباب؟!

- الشيخ شيخ نعم، لكن أين الشقراء التي وعدتني بها؟

- تراجع عن رأيي، السمرات ملح البيوت، عيونهن أجمل، هن شبوهات سكون الليل، ورفيقات الحياة.

- لا، أريد شقراء تشبهني.

وضحكننا معاً على سرير الحاجة الحديدي، وقمت لأعود إلى بيتي ونظراتها المعاتبة تلاحقني، فقلت مستدرجاً:

- لو لا العمل لبقيت هنا حتى الغد، لكني سأستيقظ باكراً للمدرسة.

وخرجت في منتصف الليل، أسير بين دروب المدينة التي تنتصر ليلاً على أحرانها وتسكن في أقاليم الهدوء والصمت، سرت بمحاذاة السور الترابي الأمامي قاعدته الصخرية وأتأمل تاريخه القديم، ما الذي كان يفكر فيه محمد الشيخ السعدي حين استقر في هذه المدينة بين النهرين؟ وقبل أن أتوصل إلى جواب شافٍ وصلت بيتي الصامت. أخذت القيثارة المعلقة إلى جدار الصالون وبدأت ألاعب أوتارها دون أن أعزف لحناً معيناً. كنت أستمع إلى توتر الأوتار لا إلى صوت القيثارة، وبدأت تتحول شيئاً فشيئاً إلى أنثى بين يدي. أسرح شعرها الكحلي المنسدل على ظهرها الطويل المستقيم. وقفت فجأة وبدأت أراقصها. فتحت عينيها واندشنت لما رأيته فيهما، إنه بحر بزرقتة وأمواجه وهديره. خطوة خطوتان، موجة موجتان، خطوة إلى الوراء، خطوتان إلى الأمام، موجتان، استدارتان وتسكت الموسيقى وأكف عن الدوران. أعلقها على الجدار بعد أن تجمع شعرها وتحوله إلى أوتار وأعود إلى هدوئي. أتجه نحو غرفتي وأنام.

في المدرسة، يصطف المعلمون القدامى، ضحايا النظام التعليمي المغربي الحزين، وأمامهم التلاميذ بلباسهم الموحد الأزرق للذكور والأبيض للإناث، الضحايا الجدد، اللباس لم يكن موحدًا فعلاً، كل واحد يقف ومريسته مرقعة من جانب ومتسخة كأنها خرقة لمسح الأرض، اللباس المغربي الموحد حزين جداً وبائس، أمام العلم الوطني ينشدون التحية. هؤلاء الشيوخ الذين أمضوا حياتهم في مناقشة النظام الوظيفي، ومعالجة الحسابات البنكية الهزيلة، مقاومة نكات المجتمع وقهر الإعلام الرسمي الذي يشن حربه عليهم. أي حياة بائسة عاش هؤلاء المجانين. أي ذنب كبير ارتكبه وهم في بطون أمهاتهم. كل ما فعلوه أنهم حرصوا الشارع على التظاهر ضد النظام في الثمانينيات، فانقلبت عليهم الدولة المخزنية منذ ذلك الوقت، هؤلاء الأوباش الذين يكسبون الجهل من عقول الصغار ويطالبون بحقوقهم في فاتح ماي. ينظرون إليّ بالغرابة نفسها كل يوم. متى سيموتون أو يتقاعدون؟ ها هم يقفون كل صباح قبل الوقت الرسمي ببذلاتهم البيضاء كتجمعات الجع. كأنهم حراس المعبد القديم. يروجون النكات الجديدة، يجربون الوصفات التي تحيي الموات الذي بين أرجلهم. يتبادلون التهم الثقيلة كتضييع الطباشير والتأخر في الدخول وتعنيف التلاميذ.

ألقيت دروسي كما ألقى صنارة، قد يتلقفها أحدهم وقد لا يفعل، الوقت مضاد للتدريس، العبث يحيط بالمدرسة المغربية الحزينة؛ لذلك كنت سباقاً إلى التخلي عن رغبتني في الانخراط الفاعل في الحياة المدرسية واكتفيت بواجباتي في القسم.

المعلمون، هؤلاء البؤساء.

لكن الحياة تستمر. أتمنى فقط أن يعود محمد سالم بسرعة ليتم المشروع وأنسحب تماماً من هذا الوضع... البائس. إنهم يكرهونني، يكرهون تفردي وعدم انخراطي في تقاهاتهم. يكرهون سيارتي وملابسي، إنهم يحسدونك على كل ما تملك وما لا تملك. ما يحتمل أن تملكه يضر بخواطرهم لذلك يتبعونك بعيونهم الحاسدة حتى يطمئنوا إلى أنك لا تملك غير جمجمتك المتفردة عن جماجمهم. حتى حين تمرض يحسدونك فقد تحصل على رخصة مرض وتبقى في بيتك تستمتع بأيام عطلة. كما هو مكتوب في قرار الرخصة، استمتع المعلم برخصة مرض. البلاغة تلعب ضدنا أيضاً؛ وتقذف بنا في

خضم التناقض القاتل والعبث المستشري. استمتع المعلم برخصة طبية طويلة الأمد وهو يعاني لشهور داخل مستشفى، ويكتب المدير في تقريره أن المعلم استمتع بالرخصة الطبية.

عدت مساءً إلى بيتي مباشرة وقررت المكوث فيه دون رغبة في الخروج إلى الشارع أو إلى بيت الشنقيطية. البيت كما تركته مرتباً بدقة متناهية عكس دواخلي المحطمة، وقد عاد إلى ذهني حوار الحاجة والحاج عن الإرث وعن تلك الحقيقة التي بدأت تتشكل في ذهني كفراعة. أي حقيقة يمكن أن تخفي كل هذه السنوات. تاريخ الشنقيطية مليء بالإثارة والأحداث. مذ هاجرت رفقة جدتها من شنقيط المآسي وتشردهم في الصحراء الكبرى. تاريخ مظلم، ولكنه غني.

ولدت جدتي من جهة أمي في بداية الأربعينيات والحرب قد أكلت نصف العالم وما زالت آثارها تأكل المستعمرات. هي لم تر القنابل والطائرات ولم تسمع أخباراً عبر الراديو، كانت تقاوم الجوع فقط. توفيت أمها بمرض نادر كما تقول بعد أن جفت عروقها من الماء بين نواكشوط التي كانت قرية صغيرة بيوتها من الطين والتبن والججارة وشنقيط المعروفة تاريخياً لدورها في تاريخ الإسلام. بعدها رافقت عائلتها التي هاجرت نحو الشمال وكان هدفها وكل قبيلة البدو أن يصلوا إلى بلاد سوس حيث الماء والكأ والمراعي، وحيث العلم الشرعي الذي يعد زاد الشنقيطيين في كل زمان. هذه القبيلة لم تكن تعرف ولاء آخر لغير الدولة المغربية الحزينة، وكان لزاماً عليها في الخمسينيات الوقوف إلى جانب ولد بابانة الذي يتبنى نفس الموقف. تعرف أمي كل هذه الحياتيات، وتخزن في ذاكرتها مناظر صحراوية كثيرة بشخوص من العرب والزنوج والمستعمرين الشقر الذين يبحثون عن الفوسفات والحديد والذهب والفضة. إنها قوة الحكي. من شدة ما كانت جدتي تسرد كانت أمي تسمع وتسجل في صدرها.

تحكي أمي الكثير عن الصحراء حتى تكاد تشعر بالعطش وأنت تنصت إلى حكاياها. النوق والجمر والليل والشاي والشمس الحارقة، وشاحنات الإسبان والفرنسيين.

يجب أن نحاول القطع مع الألم فينا. وأن نسترخي قرب شعور بالرضى قد يغمرنا في لحظة من لحظات حياتنا. نغلب الملل الذي يتعبنا ونحن نتفكر في طاحونة الأيام والآخر الأناني الذي يمعن في غرز فكه القرشي في أوقاتنا. نحن، سكان أقاليمنا الداخلية المنهوبة، المضغوط عليهم، المنبذون من شعائر السكينة، مطاريد مخيمات الفرخ، علينا دوماً أن نكافح أكثر من غيرنا من أجل تعديل ميزان العيش المنكفي دوماً جهة الآخر المتسلط.

ونحن بالحاضرة ما زلنا نحس بتغريبة الضياع. نحن امتداد أبدي للبيداء. تقول أمي الحاجة. الصحراء تحبك ولكنها قد تقتلك حباً وعطشاً وضياعاً، وأمي حين تتحدث عن الصحراء ولو من غرفتها تسرح بعينيها بعيداً كأنه لا يحدها جدار ولا ستائر ولا أبواب. تنتظر عميقاً وأنا أتخيل دوماً أنها ترى فيما ترى ناقثها التي خزنت في ذاكرتها أوجاع الرحيل الكبير. الانتقال الأشد انعاقاً في حياتها. حين تركت شنقيط وهي دور وخيام مبعثرة في شبه بادية، وترى محضرة الشيخ

الشنقيطي وطلبة القرآن وحصير الدوم والألواح والصبغ والصلصال، هيَ تنتظر عميقاً وأنا أنظر وأتملى في عينيها وأتخيل. خطوط الحناء والوشم النيلي على جسد النوق، والجرس الصغير المتدلي من عنقها، وحركاتها البطيئة وهي تمضغ بيباس الخزامى والرقروق والصفار والحلال. أتخيل رجال القافلة ينصبون الشراك لحيوانات البراري، الضباب والأفاعي والطيور المتعبة التي تنزل على شجرة مزيفة تظنها الخلاص من حرارة الشمس فلا تستريح إلا لحمًا مشويًا في أحشاء البدو.

يا إلهي.

لا يمكن أن يكون ما أفكر فيه هو الحقيقة. الفكرة مرعبة جدًا ولكنّها الأقرب إلى الواقع.

لماذا لا أشبه إخوتي؟

تكرر هذا السؤال في ذهني ألف مرة في ليلة واحدة، إنها الرابعة صباحًا وما زال رأسي يدور ويدور، أي فكرة جحيمية هذه التي استعمرت ذهني وكياني، متى ستشرق الشمس كي أقف على رأس الحاجة وأسألها بحزم كي تقول الحقيقة؟ فكرت أن أنتظر ساعة أخرى وأذهب للمسجد حيث يصلي الحاج صلاة الفجر وأستحلفه أن يقول لي الحقيقة، ولكنّه لن يقول شيئًا، سيتحدث مرة أخرى عن حقه على ابن محمّد السالك، وهروبه القسري من نواكشوط حيث كان يقيم. تزوج أمي بعقد شفوي في الصحراء وثقه بعد وصوله إلى سوس كي يستطيع الاستقرار بالمدينة. قافلته التي كانت تعرف الصحراء جيدًا التقت بقافلة شنقيط ولأنهم كانوا على خط واحد ترافقوا في الصحراء واتخذوا طريق الحج المعروفة سبيلًا لهم. لكن بعض المليشيات التي كانت مرابضة في هذا الطريق الصحراوي المعروف جعلتهم يتوغلون أكثر في الصحراء حيث كاد العطش يقتلهم. وصلوا المغرب الذي لم يكن في حالة مستقرة. كان الرصاص يلعلع بالدار البيضاء، وكان الملك يقتل ويسجن كل من يعارضه أو يفكر في معارضته خصوصًا من أفراد الجيش.

كانت أمي حاملًا بالمولود البكر الذي كان توأمًا من فتاتين سمروين. بكرت من يمنها بينتين، صفة سنة 1977 وفاطمة سنة 1979. أي إنها كانت حاملًا وهي في الصحراء وصيرت على العطش والجوع والشمس الحارقة. ولدت بعد فاطمة حسب السجلات الرسمية بسنة، أو لنقل سجلت بعدها بسنة، فكل تواريخ الميلاد غير مضبوطة؛ أي مع اندلاع ثورة الخبز بالمغرب، وهذه السجلات عبارة عن بطائق ولادة غير مضبوطة التاريخ، يثبتون فيها السنة فقط والأرجح أنني ولدت في خريف 1980. أحس بذلك بسبب قلبي العاصف وخواصي الهوائية كمزاج غير قابل للتصنيف. لا شيء مضبوط لأن التفاصيل التي تحكيها أمي لا تنتمي بالضرورة لهذا التاريخ. مما زاد من توترتي.

إنّها الخامسة والنصف ورأسي يكاد ينفجر، هل كانت لعائلتنا علاقة قرابة بالمستعمرين؟ هل تزوج أحدهم من فرنسية؟ أو هل زوجوا بناتهم للنصارى في الصحراء؟ هل كانت خيانة وطن أو خيانة جسد؟ وهل كان ذلك من أسباب الهجرة القسرية لعائلة أمي من شنقيط؟ أم كانت ضمن رحلات الحج التاريخية التي كانت تنظمها القبائل الصحراوية منذ عهد المرابطين؟

لا أريد أن أكون طفرة جينية.

كَانَتْ أُمِّي تَقُولُ دَوْمًا إِنَّ الشَّنَاقِطَةَ لَيْسُوا عَمَلَاءَ لِلِاسْتِعْمَارِ، لَيْسُوا كَلْهَمَ، كَمَا كَانَتْ جَمِيعُ الْقِبَائِلِ، فِيهَا الْوَطْنِي الْحَرِّ وَفِيهَا الْعَمِيلُ الَّذِي بَاعَ شَرْفَهُ، وَهُوَ سَبَبُ تَوَتَّرِ عَاقِلَتِهِمْ بِالكَثِيرِ مِنَ الشَّنَاقِطَةِ الْآخَرِينَ الْمُسْتَقْرِينَ بِسُوسِ.

لا أريد أن أتهوس بفقدان الهوية، فالبحت عنها دودة تنخر الأعماق وتردي الفرد قتيل شكوكه وأوهامه. هَذَا أَنَا وَهَذَا جَسَدِي وَلَا أُرِيدُ تَارِيخًا يَصْنَعُنِي، يَكْفِينِي هَذَا الرَّعْبُ الَّذِي فِي دَاخِلِي وَالَّذِي لَا أَعْرِفُ مَصْدَرَهُ وَلَا سَبَبَهُ، هَلْ وُلِدْتُ بِالْقَلْقِ وَتَقَمَطْتُ بِالصَّمْتِ وَالتَّحْدِيقِ الطَّوِيلِ فِي سَقُوفِ الْغُرْفِ. 1981 سَنَةَ وَوَلادَتِي، اسْمِي سُوْلَالِ، سُوْلَالِ رَشْدِي ابْنِ مَدِينَةِ تَارُودَانْتِ الَّتِي بَنَاهَا مُحَمَّدُ الشَّيْخِ السَّعْدِيِّ. عَيْونِي زَرْقَاءُ رَمَادِيَّةٌ وَشَعْرِي أَشْقَرٌ. وَحِيدٌ وَلَا أَهْدَاءُ، لَدَيَّْ مَشَارِيعُ كَثِيرَةٌ فِي ذَهْنِي، أَقْبَرْتُ قِصَّةَ حَبِي بِيَدِي بَعْدَ صَدْمَةِ الْعَمَلِ بِالْجِبَالِ، أَعْرِفُ الْكَثِيرَاتِ فِي الْوَاقِعِ وَعَلَيَّ النَّتُّ، لَا أَحْبَهُنَّ. أَحَبُّ الْبِقَاءِ وَحْدِي. كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَمْلِكُ خِصْلَةً أَحْبَبْتُ فِيهَا، وَلَا وَاحِدَةٌ تَجْمَعُ كُلَّ الْخِصَالِ الْمَرْغُوبَةِ؛ لِذَلِكَ أَمِيلُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ نَحْوَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ. الْاِقْتِرَاضِي يَمْنَحُنِي حُرِيَّةَ الْاِخْتِيَارِ، يَمْنَحُنِي حُرِيَّةَ إِمْضَاءِ لَيْلَةٍ غَرَامِ دُونَ تَكَالِيفِ عَاطْفِيَّةٍ. بَلْمَسَةِ زَرِّ فَقَطٍ أَشِيدُ حَبًّا وَأَهْدِمُهُ.

لي أخوات سمرات مليحات الوجوه. جمالهن شنقيطي، ملامهن دقيقة وممتلئة في نفس الوقت. صافية وفاطمة والأخت الصغرى ياسمينة، ومحمد سالم الذي يدرس المطعمة، لن أتخلى عنهم ولو ملكوني الذهب والماس مقابلهم.

من أنا وسط كل هذا التاريخ؟ أكون شعري الأشقر مصدر عذابي الأبدي؟

كان أبي يبيع شيئاً ثميناً غير الصوف وأصباغ الزرابي الأطلسية وآلات الغزل. كان شيئاً يشبه البطاطس البنية المحفورة. يسافر كل ثلاثة أشهر ليحضر منه كيساً أو اثنين فقط؛ لأنه شيء نادر. نادر لدرجة أن رجال المدينة يضعون طلباتهم وينتظرون وصوله، وكان أبي يتصرف كمالك الحكمة كصاحب إكسير الحياة، هو إكسير الحب كما سمعت أحدهم يقول في حانوته. يرفع قيمة الرجل في بيته. عمدة الأسد في عرينه. شعبة من شعب السرير. سر من أسرار السلاطين. حين كنت طفلاً طلبت منه تذوقه فانفجر ضاحكاً: حين تحتاجه سأحضر لك منه سلة. ويسترسل في الضحك. أنت لن تحتاجه، وإن كنت أشك في حمية الشقر، ونظر إلى شعري الأصفر وبشرتي الشاحبة.

مر زمن طويل قبل أن أعرف أنه فطر الترفاس الذي يستخرجه أبي من مساحة لا يعرفها غيره في باب الصحراء على مقربة من مدينة السمارة. قبل التوغل عميقاً نحو الجنوب. كان التقاطه صعباً كأنه ذهب، ينبت تحت الأرض بنصف متر أو أقل ولكن لا يوجد مؤشر يدل عليه فوق الأرض. يعرفه الخبير والمتمرس فقط، وكان أبي يحتفظ بسره متكتماً على مصدر رزقه الأوفر، يذهب على ظهر ناقه هو وشريكه ويعودان بكيسين لكل واحد منهما، إنه الجهاد الأكبر من أجل تكثير سواد الأمة، يرفع الأصل ويشد الجذع ويدر الحليب ويسخن البيض ويحسن القذف. يخصب المرأة ويهيج الرجل. يكثر سواد الأمة.

يا أولاد الترفاس.

هكذا ينادي أبي على أطفال الحومة حين يزعجونه في حانوته.

يا أولاد الترفاس.

شظايا الذهب وأحجار الفضة وأكياس الترفاس هي ثروة أبي التي قهر بها تجار المدينة، وهي ثروة الشنقيطية في الأصل، وبنات تجربتها في الصحراء قبل الجلاء الأكبر.

فطر الترفاس هو الفياغرا التقليدية.

يقول أبي إن الانتماء السياسي في السبعينيات ليس اختياراً بل مجرد عواطف وولاءات لحظية؛ لذلك اختار الهجرة من شنقيط إلى بلاد سوس. كان زعيمه المختار ولد داداه قد نحي عن الحكم بسبب انقلاب عسكري مدير من جهات داخلية وخارجية، لم يرغب بحكم ابن محمد السالك. ولم يرغب بالانضمام لجبهة البوليساريو بوادي الذهب، فكانت الرحلة في ظل حروب المليشيات انتحاراً حقيقياً. سلخوا طريقاً لا تعرفه حتى الميليشيا الجديدة. ولكن باقترابهم من العيون واجهوا الخطر الأشد فتكاً وهو الألغام. كان المغرب حينها عائداً من مسيرته ولم تكن الدول الأوروبية لتسمح بالاستقرار التام بالمنطقة. القافلة بدت منتمية إلى العهد القديم. بدو من الصحراء منقطعين عن السياسة وعن العالم هكذا بدت الأمور في كل المحطات الحدودية. في 1979 كانوا قد وصلوا سوس.

طلق أبي السياسة وتزوج التجارة.

بيني وبين أختي الكبرى سنتان، كما تقول الوثائق. عن أي وثائق أتحدث؟ لم يكن هناك تسجيل بالحالة المدنية. مما جعل أبي يسجلنا جميعاً بتواريخ متخيلة، لدي إحساس عظيم بالفضول. منبعه ذلك الأرق الذي يسببه لي شقري.

ما علينا ...

لندع الزمن يمر، فكلماً فاتحت أمي في تاريخنا الشخصي تطغى على وجهها هالة من الحزن والغموض، وكل ما يسبب الحزن لهذا الملاك مكروه ذكره.

أيها الزمن مر، يجب أن تمر ...

ومر زمن طويل جداً ...

خرج سمير من مصيحة علاج الإدمان وَقَدْ فقد نصف وزنه. عظيّماته بارزة وأسنانه منحورة، لَكِنَّهُ تخلص من السموم التي فِي داخله، وصلتني أخباره عبر أشخاص آخرين، الجدار الذي بناه بيننا كان سميكا.

قدمت \$استقالتني\$ قَبْلُ من التعليم في ظرف وجيز، واشتغلت عَلَى تشييد المطعم الذي أَشترك فِيهِ مَعَ أخي. أما سمير فقد استطاع أن ينجح مشروعه الفلاحي واستمر في التدخين، لَكِنَّهُ ابتعد عن الحشيش، وعوضه بالكثير من الأدوية والمشروبات الروحية. انقطعت اتصالاتي بِهِ لأنه فَضَّل الوحدة عَلَى أن يتحمل النظر في وجهي، وأنا فضلت الابتعاد كي لا أتحمّل ضغطه النفسي المستمر وَهُوَ يجذبني للوقوع معه في نفس الحفرة. أستطيع أن أتحمّل عبثي الداخلي، لكنني لا أستطيع تحمل عبث الآخرين. عدم الاكتراث فلسفة تخص الشخص في علاقته بذاته لا في علاقته بالآخرين، وسمير نهج سياسة اللامبالاة التي انتهب بنا مَعًا إلى منطقة رمادية لا ملامح لَهَا.

تذكرت راغدة وأرسلت لَهَا عبر الميسنجر، وردت عليّ بإسبانيتهما الراكبة. تَقُول إِنَّهَا بخير وَإِنَّهَا تعمل لتعيل ابنها الوحيد بعد فشل زواجها من مهاجر مغربي يعيش في مدريد. وبينما كنت أرسلها جاءني طلب صداقة من اسم مجهول، سوسن آيت الحاج، وأنا لا أعرف فتاة بهذا الاسم، ولكن هوسي القديم بالفيسبوكيات لم ينته بعد؛ لِذَلِكَ كنت مستعدًا للوقوع بَيْنَ أحضان أي امرأة كَانَتْ، هوائية قديمة، الحياة المزورة التي تتعش خيالنا.

- مرحبًا سولال رشدي. أنا سوسن ...

- مرحبًا بك، هل أعرفك من قبل؟

- طبعًا. أَلَا يذكرك حرف السّين بسيدة ما؟

- يذكرنني بالكثيرات ولكن الاحتياط واجب.

- لنلعب لعبة إذن، أنا أعطيك إشارات وأنت تحاول التذكر ...

- حسنٌ ...

- امرأة ساذجة.

- لا شيء.

- قروية، في الماضي البعيد.

- لا شيء.

- تحترمك جدًّا وتعزك كأخ لها.

- هذه الجملة التي أكرهها، لا أحب الأخوات، ولا أميرات أزواجهن، ولا سيدات بيوتهن ...

- ألم تتزوج بعد؟

- ولن أفعل.

- أنا سيليا.

- سيدة سيليا ألف مرحبًا بك. ما هذه المفاجأة، أين أنتِ؟

- قصة طويلة جدًّا سيد سولال. مُنذُ أن افترقنا أنا وسمير تغيرت حياتي، رحلت إلى المدينة رفقة جدي، ومعى ابنتي، وبعدها هاجرت إلى فرنسا.

- هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟

- تفضّل.

- ما السبب الحقيقي للطلاق؟

- الخيانة يا سيدي. وقدّ سامحته لأنه كان يدعي أنهم معجبات بفنه؛ لذلك كرهت أغانيه، وتعبت من شيء آخر، لا مبالاته تجاه كل شيء.

- تلك هي الكارثة؟

- هل أخبرك مع من كان يمضي الليالي الطوال على الهاتف وفي أوكار الخيانة؟

- لا أبدًا، لقد تفرقت بنا السبل وراح كلُّ حي لدربه.

- مهاجرة من إسبانية. أعتقد أنّها جزائرية أو تونسية، اسمها راغدة العشابي.

- هل تزوجها؟

- لا.

- هي متزوجة.

عندما يمضي الزمن يرى كل شخص الحقيقة من وجهة نظره، حقيقته الخاصة التي تجعله يستمر في الحياة وفي لوم الآخر الخائن.

انقطع الاتصال بسيليا وقررت أن أعرف حقيقة ما يجري من طرف راغدة. مسلسل ذكرياتي يقول لي إنها كانت مغرمة به، وأنا كنت مغرماً بها؛ لذلك لم يستطع سمير أن يتقدم خطوة إلى الأمام تجاهها حين كنا في مركز التكوين.

- مرحباً راغدة، كيف حالك؟

- بوينوس نوتشيس سينيور سولالوس.

- أهلاً بك.

تحدثنا مطولاً في شؤون الحياة والعمل وحتّى الروايات الجديدة التي أصدرها واسيني الأعرج، لكنني ترددت في أن أستفسرها عما حدث فعلاً، لكن الملامس كتبت السؤال دون إذني.

- أريد أن أسألك، إن سمحت لي طبعاً لأنّ سؤالي فيه تدخل سافر في حياتك.

- أي حياة تقصد، هل هذه القرارات والكوارث العاطفية تسميها حياة. نحن شعب الحزن الأبدي يا سيد سولال، لا نعرف للحياة الشخصية معنى، كل قراراتنا التي تمنيناها بسيطة دفعت بنا إلى مآلات مخيفة وتافهة جداً. أعرف ما تريد أن تقوله.

- أريد أن أعرف عن علاقتك بسمير. هل هي سبب طلاقك من زوجك؟

- لم يكن زوجي فقط، ههههه، كان زوجة رجل آخر. حاول أن تستوعب الأمر لأنه الجنون عينه. هل يمكنك أن تتصور أن يكون زوجك محط متعة رجل آخر غيره. مضت ثلاث سنوات على زواجنا لأكتشف الأمر. تمنيت أن يكون خائناً لي مع امرأة أخرى. على الأقل ستكون الحرب شريفة. لقد وجدته في سريري مع عشيقه الإسباني. الذي كان يعاشره قبل الزواج. هل هذا ما تريد معرفته. الكل يعرف ذلك. فأنا أقمت الدنيا ولم أقعدها. فضحته حتّى على الفيسبوك.

أحياناً تندم على طرح الأسئلة التي تكون أجوبتها سلسلة من علامات التعجب وبركاناً من الدهول. الحزن مغربي بالضرورة. فرح مغتصب تاريخياً من إسبانيا التي ما زالت تستعيد هزائم الأندلس. الجنس سياسة دولية. إنه سخريّة مرة. كان سمير يصدر كل مفاهيمنا إلى الآخرين: الحزن، المضي في الحياة، القرارات البسيطة جداً.

- لكن ما علاقة سمير بالأمر؟

- سمير كان أقرب شخص لي في محنتي، ولأقل الحقيقة المرة، لقد انجرفنا إلى قاع العلاقة وقاع الحب. في الوقت الميث من علاقته الزوجية كنت أنا منهاره وَلَا أعرف هدفي من الحياة كلها. كان هُوَ بوصلتي. لم أتوقع أن تصير الأمور إلى ما صارت إليه.

- إذن كُلُّ القصص التي اختلقها سمير كانت من أجل إخفاء علاقتك به. كُلُّ التوتر والهلاك الذي سببه لنفسه ولي ولسيليا كان بسبب اضطراب علاقته بك؟ يبدو الآن من الجميل أنه اتخذ قرار الطلاق البسيط.

- لم أستطع تحمل ما حدث فعدت إلى المغرب، وحين لاحقتني النكت البذيئة هاجرت مرة أخرى إلى قرطبة لأنني أملك أوراق الإقامة ولأنَّ ابني الذي في حضانتني إسباني، واستطعت أن أحصل على عمل في محل صناعة حلويات محلية. ابتعدت ما أمكن عن الكل حتى عن سمير الذي بدأت علامات إدمان الحشيش تظهر عليه دون أن أستطيع إنقاذه منها كما أنفذني من الجنون. أنا أحبه كرجلٍ شهيم وقوي.

هؤلاء الأزواج حكاياتهم لا تنتهي، قراري البسيط بترك فكرة الزواج كان في محله. أصلاً ما كنت لأحتمل أن يعيش معي شخص في بيتي؛ ليفسد ترتيباتي. حتى لو تزوجت سيكون لي بيت آخر أرتب فيه دواخلي الهوجاء. وأي امرأة ستتهم ذلك؟ كلهن متشابهات. يمارسن التملك بدل الحب. يغلفن التسلط بالرغبة في الحفاظ على البيت، على العرش، وينخرطن في ملل الزوجات اليومي. لن أتحمل العيش مع كائن آخر مهما كان الدافع.

والرجال كسمير تماماً. يشعرون بغباء قرارهن المربوط بالملل العام من هذه الحياة. يتزوجون وينجبون ويسعدون للحظات ثم يخونون. يصنعون حكايات تافهة يؤدي إلى أضرار لا حصر لها. منها كمية من القنابل العنقودية التي ترمى في مخيلة أطفالهم عن الأب الخائن والبائس وعن الأم الضحية والمسكينة، أو العكس؛ الأم الضجرة الهاربة من بيت الخنوع والأب المسكين المغلوب على أمره.

سمير ضاج بالحمق، لا يكاد يستوي على صخرة حتى يدفعها ببطء نحو هاوية ليتدحرج معها، ثم يغلف الأمر بفلسفة جديدة تشرعن سلوكه أخلاقياً.

وأنا؟ أنا أخون على الدوام، أنطلق من اللوفاء؛ لذلك لا تحسب علي خياناتي لأنها الأصل في الفعل، وأضع شرط إمكانية الرحيل في أي وقت حين أتعرف على امرأة. لا واحدة منهن تستحق الوفاء ولا واحدة تستحق الخيانة؛ لذلك اتخذت قراري بالبقاء وحيداً، لا نسل ولا ذرية ولا مزيد من ثقل الأحياء المعقدين على الأرض.

ومن أنا؟ أحس بالالانتماء لهذه الأرض، دماء في داخلي تجري بما لا تشتهي الأماكن، ما أقسى الغربة حين لا يكون لها سبب. الشك دودة تنخر الخشب اليابس وتترك فيه ممرات للنمل والعث

والبق والقمل والقراد والعبث والمرض والسرحان والسهو والقلق والضجر ... والسرطان؛ أي وجود أروع للعنة الألوان والأجناس والأعراق.

أغلقت باب المحادثات وخرجت إلى الصالة لأرتمي على الصوفة وأتأمل البابوشكا أو الدمى الروسية التي وصلت البارحة عبر البريد من موقع علي بابا. دمية داخل أخرى. إنها تختزل الحياة، الطفلة الدمية داخل الدمية المراهقة والمراهقة داخل الشابة والشابة داخل الثلاثينية وهكذا. إن مراحل عمرنا لا تمر بل تتضاف لبعضها البعض. ما زال الطفل قابلاً في داخلنا والمراهق والشاب ويوماً ما ستختلط الدمى في هزة عمر ويصبح العجوز طفلاً يتصرف بعقلية الطفولة التي يرى الآخرون أنها لا تليق به. هذا ما فكر فيه سرجي مالميوتين الروسي حين صنع هذه الدمى لأول مرة. لقد نشرت بعض الألوان في بيتي رغم صغرها.

مدخراتي بالبنك جيدة جداً، التجارة على النت أسعفتني في الحصول على عمل مدر للدخل، قريباً أترك مهنة المتاعب والمذكرات الوزارية التي لا تنتهي. إلى متى سنصحح الأخطاء الإملائية لوزير متخلف عقلياً؟ إلى متى سأصحح الأخطاء التاريخية لبلدٍ يفضل الجهل على العلم؟ يا له من حزنٍ مغربيٍّ.

الفصل الخامس

كبرت وكبر الشك داخلي. من أنا يا تُرى؟ هل أنا ابن الشنقيطية حقاً؟

الشكوك ولدتها حوارات أمي وأبي الغامضة ...

وَمَا تناهى إلى سمعي من حديث أبي وصديقه العدل القضائي، حين يصمتان فجأة كلما وقفت أمام جانوته. يرفض التقاعد رغم الأرباح الكبيرة التي أجنبيها أنا وأخي من المطعم، كما يرفض المال الذي قدمه لنا في بداية المشروع. يقول إنني وأخي أكبر ربح له في هذه الدنيا، ولكنني لست مرتاحاً. لا إلى اسمي ولا شعري ولا لوني الذهبي ولا إلى العالم كله.

- من أنا سيدتي؟

- أنت سولال، وأنا الشنقيطية العجوز أمك. ألا يولد الذهب من جبال داكنة، أنت تريد أن تحزنني في آخر أيامي، ألا ترى أنني قد وهن العظم مني، وأني أضع رجلاً في قبوري.

تصوم أمي كل يوم إثنين وخميس منذ سنوات خلت. ولكننا لا نشعر بصيامها، أصبح عادة؛ لذلك هي لا تسمن كثيراً رغم الطعام الذهني الذي تتناوله، إفتارها كان تمرًا وكوفيا gofia. وهي حساء الشعير المحمر. مع الكثير من الأعشاب المنسمة. التمر في يد أمي بحنائها هو الجنة. مد من الكسكس في يدها يطعم قبيلة. بالرائحة الحناء في يد الشنقيطية. أعشق أن ألثم كفها بأفني وفمي وأتمرغ بين راحتها. يا رب. إنها تعز علي وهي تنظر إلي من وراء الزجاج، ولا تستطيع لمسي. كم مرة أخبرت الطبيب أنها أطهر من المطهر وأن لمسة منيها سنشفيني وتعيد الدم إلى عروقي. قلت له إن عناقاً منها أفضل من كل أكياس الدم البارد المختلط الذي يدخل جسدي، وأن حضنها له دفء أشد سخونة من مكيف الهواء المثبت في السقف.

استطعت اليوم أن أفق على قدمي، وأمشي خطوات نحو الشرفة الزجاجية، يمنع علي فتحها كي لا أصاب بنزلة برد، فأني فيروس مهما كان ضعيفاً يمكن أن يقتلني. ما أشد ضعفي، وما أشد رغبتني في النزول إلى المطعم.

طلبات اليوم كثيرة جداً، يبدو أن أطباق السمك المبخر والمشوي في الفرن التقليدي استقطبت زبائن جدد. البشير غائب اليوم؛ لأن زوجته وضعت مولوداً جديداً، الرابع ربما. ستعوضه إيناس في إعداد الصلصات، لا أريد مايونيز اصطناعي جاهز فهذه الثقافة الأمريكية التي غزت مطابخنا يجب أن نتوقف، أريده حاراً مع الثوم وآخر بصلصة الأفوكا والقزبرة. السلمون. السلمون من الأفضل مراقبته حتى ينضج. لا أريده فوق نار ملتهبة أكثر من اللازم. مجموعة الطلبة المتدربين يشتغلون بحماس كبير. ضع لكل واحد منهم شبكة تقويم، أريد الاحتفاظ بخمسة منهم، ثلاثة للتقديم وطباخين. إذا وصلت الخضر فأعلمني لأتفقدتها لأنني لا أعرف بعد مدى مهنية الضيعة الجديدة التي تعاقدا

معها مبدئيًا. شهادة الأيزو لا تكفي بالنسبة لي، لا بدُّ أن أتذوق بلساني. المفاجأة أن نور تعاقده مع شركة دواجن وأرانب S. YOUSS الأحمق سمير يسران أتمنى ألا تشبهه دجاجاته، يتحرك نور بين مطبخ وآخر كحلة نشيطًا منتبهًا وجدّيًا دائمًا. بطوله الفارع وحضوره الاحترافي يُشيد عالمًا من الجدية حوله. صحيح أنه قاسٍ في تعامله مع العمال لكنّه لا يظلم. يعاقب ويكافئ. يعطي ويحرم. ولا يثق في أي شخص آخر؛ فالصلصات السرية تبقى في مكتبه الخاص أو مطبخه السري، وكذلك الزيوت التي يستخرجها في مختبره الخاص. يضيفها في الوقت المناسب. في الطنجات الكبيرة أو أطباق التقديم. وظف فنانة تشكيلية فقط لتتظر في ديكور الموائد والسفرات، وهي المسئولة عن الهندسة الداخلية وعن تفاصيل المطعم، ويمكنها أن تغير الشراشف والستائر وأغطية الكراسي وحتى المصابيح في كل فصل دون أن تخل بالفلسفة الأم للمطعم، أي اللمسة الصحراوية الشنقراطية. الأزرق النيلي والأسود والبني ووبر الماعز وجلود النوق. نعلم جيدًا أنها تستغل حضور شخصيات كبيرة لعرض لوحاتها ولكن الأمر لا يضر المطعم بقدر ما يجلب له زبائن جدد. سماسرة الفن وتجار اللوحات. الذين بدأوا يعتقدون اجتماعاتهم في المطعم على كورنيش أكادير. يكبرهم يهودي من طائفة يهود المغرب الذين رفضوا الذهاب إلى إسرائيل. صاحب فندق فخم في منطقة تالبورجت. معروف بحانته الشهيرة التي تجلب جميلات شرق أوروبا. من زبائن المطعم أيضًا بعض أصحاب السلطة في المدينة وذوو رتب عسكرية. يقضون يوم إجازتهم رفقة عائلاتهم في الكورنيش ويتناولون غذاءهم في المطعم الشنقراطي. حاول بعضهم التوصل من الأداء لكن محمّد سالم كانت له احتياطات أخرى. كانت علاقاته دومًا تنبني على التواصل مع رأس الحربة لا مع البيادق. نور هو طبّاح المدينة الأكبر. وهو مستشار حفلات القصور ومآدب الكبار من رجال السلطة والأعمال. كنت أرفض تلك المعاملات قبل أن يقنعني بضرورة فهم الأوضاع وادخار العلاقات لأيام قادمة. كما أنه كان يعمل على الترويج للمطعم في كل مكان، وهو الذي تنبّه إلى ضرورة التنشيط في المطعم. لا بدُّ من سيناريو لتقديم الطعام، فكل طبق له قصة وكل نكهة لها قصة، فكل إخراج لا بدُّ له من سيناريو، والفنانة وحدها تعد هذه السيناريوهات بملكيتها الفنية والسميائية، ومن ذلك إعداد وجبات أمام الزبائن بل وإشراكهم هم وأطفالهم في إعدادها. في جوٍ من المرح والضحك والبهلوانية. يا لها من أجواء. لقد عوضتني أيام الحرمان في المهنة البئيسة التي بدأت بها حياتي. انظر نحو المطعم الذي تبدو خيمته شامخة كأنها واحة صحراوية، وأبكي. أبكي فرحًا أنني كنت يومًا هناك خلف المكتب أسير كل شيء. أبكي فخرًا بأخي. وبأخواتي اللواتي يعملن معه ويراقبن كل مصلحة من مصالح المطعم. منثورات كالذر في كل جانب. وريثات النكهة الشنقراطية لأمهن.

لا هوية لي دونك أخي ودونكن أخواتي.

كلفته بالبحث عني. ويا لها من مسئولية. لن تعرف الحاجة أي شيء. ولن تشعر بشيء. لكنني سأتخلص من الألم الذي يعترني أضلعي وسأجيب عن السؤال الذي لم يستطع الفلاسفة الإجابة عنه. من أنا؟ الجواب التقليدي لم يعد يقنعني. أنا سولال، سولال رشدي من مدينة تارودانت، جنوب المغرب. يقولون إن محمّد الشيخ السعدي هو الذي بنى سورها الترابي لحمايتها من الغزو. لم أكن

في غيبوبة حين كانوا يتحدثون عني، وكان أبي يقول إنه أحبني أكثر من إخوتي. ليس لأني مريض. بل لأني ولدت وحيداً. ازدادت هواجسي اشتعلاً وفار الدم القليل الذي يجري في عروقي، وسقطت نظرية الطفرة كما تسقط الحجارة من جرف هار، واهترت نوابضي. تشققت الروح وأنا على سرير الموت. ضغطت على زر الطوارئ وهرعت الممرضات والطبيب نحو غرفتي لتنتهي الزيارة العائلية. أنا وحيد إذن. خلية فردية نمت على سطح الأرض.

أشعر بالدوار كلما عاودتني أسئلتني التي تناسلت مع الضعف والمرض وشيح الموت، وولدت مسخاً من القلق اليومي. الهوية حق من حقوقي، وتأكدت تماماً أنني لست ابن الشنقراطية، ولكنه كلام ثقيل. فحتى لو لم أكن ابنها لتمنيت أن أكون كذلك؛ لتمنيت أن أكون ابن هذه الواحة من السخاء والحنان والحب. لقد رضعت من ثديها، هذا ما تقسم عليه كلما ذكرنا الطفولة الأولى. فهمت الآن لم كانت تصر على أنني رضعت من ثديها، ليس لدي أدنى إحساس بالغين والخديعة؛ لأني عشت معها عمق الأمومة وعمق لذة العيش، ولكن أسئلتني تتوالد يوماً عن يوم. وليس أمامي سوى سمير. حفرة أسراري القديمة؛ التي لا تتجاوز ذكرى فتاة قبلتها قرب باب الليسيه. فتاة دخلت بيتي المرتب واعتقدت أنني متزوج فهربت، سلسلة أفكار المريضة التي تخرج أحياناً في هياتها المرتخية العارية كأنها مارست الجنس أسبوعاً دون توقف، فهناك أحاسيس بقيت في الداخل كآلم معتق تهرب عبر الفم وتصطم بأقرب صديق. تبدو كهارب من السجن أو كمنوع من التجوال. مرهقة وهشة ولكنها حين تصرخ تسمعها كعاصفة هوجاء مفاجئة وهادرة. هو وحده القادر على مرافقتي في رحلة البحث عن ذاتي المفقودة، ولكن إن أحسست بشفقته أو بفتور همة أو ضعف حماسه سأنتاري خلف كيرياي وأمرر المهمة لأخي، أخي سيكذب وسيقول إنني أخوه وسيفلق العالم كله لأبقى سولال الشنقراطي. أتمنى أن يقبل سمير مغامرتي، وأن ينتبع خيوط هويتي، وما الهوية إلا خيوط واهنة كخيوط بين العنكبوت، الهوية منفلتة كسمكة في المحيط. خيط دخان. خيط دخان رمادي تتلاعب به يد مدخن يتأمل أنفاسه تحترق أمامه. ما فائدة الهوية وأنا على سرير الموت الكيماوي؟ هل سأحتاج أوراق الثبوتية في العالم الآخر.

في مواجهة النهاية أقب. في لحظة سديم مطلق. أرتقي سلم العدم الجديد. ها أنا أيها الموت. كن رحيماً أو بشعاً، فلن تكون أبشع من احتراقي غير الكامل بكل هذه المبيدات التي يحقنونها في عروقي. لا أعرف أي عالم سألج. بأي شكل؟ ولكني أهرب نحوك فإن كنت رحيماً فترفق بي. أهرب منك إليك.

يدخل سمير الذي بدأ يستعيد عافيته بعد خروجه من مركز التأهيل. يرتدي لباساً معقماً ويغطي وجهه بقناع أزرق. ينظر إلي باستغراب أستغرب له بدوري. أساله بعيوني الذابلة كورقة تين يابسة ويجيبني بعلامات تعجب. أي حرب للترقيم تمارسها العيون. أخبرني من أنا؟ فلا أريد شيئاً قبل موتي إلا أن أعرف من أنا ومن كان سبب مجيئي لهذه الحياة القصيرة.

فهمت من ترده أنه لم يفلح بعد في الوصول لرأس الحكاية.

لا يَسْتَطِيعُ أن يصل إلى أي شيء وأنا أمنعه من فتح الدفتر أمام الشنقيطية، ترجاني أن أسمح له بذلك لكنني لم أرد ضربها في عمر من الحب. لا أستطيع طعنها من الخلف، فهي أُمي ولن أتركها بحثاً عن أم أخرى ولو حرقنتي الأسئلة أكثر مما تحرقني الكيماويات. سأمارس حقي في المعرفة دون تكديس الألم في قلب السمراء. ستحزن الصحراء والنوق والصخور، سيتغير طعم الشيخ والزعتر البري. ستفسد الطبيعة إن حزنت السمراء، وستتهار الموازين إن بكت الشنقيطية. يكفيها بكاء عجزي ووجودي في حجرة العزل الطبي.

وتحدث سمير، قَالَ إِنَّهُ زار مستشفى بول شانتبير وتواصل مع موظفي الأرشيف. كانوا كأرشيفهم بعقليات قديمة والكثير من العث فوق قلوبهم. تكلس الزمن فوقهم وتحنطوا قرب الملفات. لكن رشوة صغيرة مكنته من الولوج للطابق الأرضي حيث أدراج مواليد الثمانينيات. الغبار وفتيت حواشي الأوراق ورائحة المداد القديم. نسخ من رسوم الولادات والتلقيحات الأولية. لا شيء باسم سولال رشدي. Solal ليس اسماً مقبولاً في الدوائر الرسمية للبلد. إنه اسم فرنسي. يسترسل سمير... كيف لم ننتبه من قبل أنه اسم فرنسي أصيل. من الأسماء القديمة التي اندثرت قليلاً. ارتقى الدمع إلى مقلتي الغارقتين في اليبس وازداد الصمت المهول داخلي. يحرك سمير كل جسده المتحمس وهو يتحدث. صاحب النظارات الطبية السميقة هو رئيس مصلحة الأرشيف. ولكنه لا يفعل شيئاً غير استقبال وثائق المواليد الجدد وتسجيلهم. والمكلف بترتيب الملفات موظف يشبه مومياء مصرية. يلعن الدولة ويلعن التاريخ. يقول إن جحافل المتخرجين من الجامعات لا يجدون عملاً فيما الأرشيف يحتاج مجهوداً جباراً لتوثيقه إلكترونياً حتى يسهل الولوج إليه. يسب ويلعن ويتحسر على زمن بول شانتبير العظيم. إبيه أيام الفرنسيين. كل شيء كان مضبوطاً وكل شيء في مكانه وكل مكان مخصص لشيء معين. ذكرني بسنة الولادة. قلت ١٩٨١. نعم قال كانت البلاد تشتعل آنذاك. ولكن هذه المدينة الصغيرة لم تعرف أي حدث سياسي. كانت ساكنة تحت أسوارها الثقيلة كهذا الأرشيف المريض بالزهايمر. كنت أظن أن الأرشيف هو العلاج ضد فقدان الذاكرة وإذا بموظف الأرشيف يتهمه بالزهايمر. اجتمع سوء الحظ مع لعنة أعصاب هذا المصاب بالربو المزمن. لم نجد ضمن مواليد السنة أي شيء يدل على سولال رشدي. فجأة حرك سمير مقلتيه داخل محجريهما كأن عقله النقط إشارة سماوية، فصرخ في وجهي وأنا مشدود لكل حركاته وكلماته قال:

لقد بحثنا فقط في سجلات الذكور، يمكن أن يكون هناك خطأ ما دام الاسم غريباً فقد يسجل ضمن ملفات الإناث، غداً أعود للبحث من جديد.

هل أبدو لك بارز الثديين. صدري مجرد قفص من العظام. حتى شعري الأشقر سقط كله. إن كنت تقصده بكلامك.

سأعود لأبحث من جديد. ربما شعرك الأشقر الطويل منذ ولادتك كما قالت الحاجة جعلهم يضعونك مع جدول الفتيات. لو كنت فتاة فرنسية لتزوجتك. مع الأسف ولدت خشناً. ههه

_ اخرج لعنة الله عليك.

واستطاع أن ينزع البسمة من أسناني التي بدأت جذورها تظهر.

عاد في اليوم الموالي والجديّة تملأّ قسّماّت وجهه. منعه الطّبيب من زيارتي بسبب تدهور حالتي الصحيّة ودخولي في غيبوبة قصيرة. طلب منهُ انتظار حقن لترين من الدم الجديدي في جسدي. انتظر طويلاً حسب قوله. ليخبرني أنه وجد رأس الحكاية؛ فاطمة رشدي. نعم وجدت اسم فاطمة رشدي ثلاثة أيّام بعد تاريخ ولادتك. من أمها يارة الشنقيطي وأبيها عبد السلام رشدي، إنّها أختي الكبرى، وهي مصادفة ليّست بريئة. تعلقت عيوني به كأنها تستجديه. ودمعت. واضطرب سمير الذي يكره دموعي. يقول إنّهُ يكره رؤية الدموع في عيون الرجال فكيف بدموع سولال الذي يفديه بروحه. أريدك أن تقديني بالحقيقة التامة. كنت صلباً طيلة حياتي. وقليل البكاء بل إن مُقلتي متحجرتان. حتّى في الانعطافات الخاطفة لا أبكي. أكتفي بالنظر وأسرح في حزن يتضخم داخلي وأمضي. وإن بكيت ففي حزن الحاجة وبدمع قليل لا يراه أحد. هذه العيون الزرق لم تخلق لتبكي تقول أمي. هذه عيون الملائكة التي تسرح في ملكوت السماء. كثيراً ما كانت عيون شيطان كما قالت لي إحداهن. في غضبة كبرى ضدي وضد سلوكاتي العاطفية تنكرت لكل شيء وقالت إنها زرقة الشياطين لأنها تفقدها الصواب وتجعلها ترمي ملابسها قطعة وراء الأخرى بسرعة شيطانية لتلتصق بي، قبل أن أفتح أزرار قميصي تكون هي قد اشتعلت نيراناً جهنمية وفاضت الالفا من براكينها. تغضب بشدة وتبكي بكاء هستيريا وهي تنظر إلى عيوني وجسدي الهادئ الذي يجعل لكل حركة توقيتاً محدداً ولا يفيض شهوة إلا في حضرة طقوس البطء ثم الاشتعال، التوهج، الشدة، ثم القذف الساخط في أفران الحديد. وهي كانت لها موسيقى مختلفة تشتعل بسرعة وتتطفئ باندحار مهول ثم تشتعل من جديد. كأن الشهوة جمرة يغطيها الرماد وتنفضه مع كل لهفة. كانت ليلة واحدة كانت فيها الأغطية التي على سريري زرقاء مدادية بخطوط عرضية بيضاء. وأن لون الأباجورة يعطي ضوءاً أزرق مدادي. وكرهت المدادي وخطوط العرض والأجساد الشبقة المريضة التي تخلف موعدها مع الرغبة المشتركة.

غاب سمير. طال غيابه. كان ثقل ظلي هو المانع. لم يرغب في الحضور دون جواب أو خير. بعد أسبوع كامل. جاء بالخبر اليقين. تسبقه هالة الهدهد، وكنت مستعداً للموت بعد سماع روايته.

كان منكسراً كأنه طائر ضاع عن سربه.

حبيبي سولال، قال سمير، لقد بحثت في كل مكان. أنت مسجل بمكتب التكفل بالمحكمة. ولدت في اليوم الثالث لولادة فاطمة رشدي، وكفلتك يارة الشنقيطي باسمها الشخصي. دون اسم زوجها. وسجلته بنفس الكنية. لم تولد بالمستشفى بل بالكنيسة الكاثوليكية. أمك اسمها سارة الأندلسي. وأبوك مجهول الهوية. لا تقلق حبيبي لأن الأب برنار أعطاني موعداً للبحث في أرشيف الكنيسة وملفات رعاياها. هو ينتظر إذنًا من الكنيسة المركزية؛ لأن البحث في مذكرات ووصايا الرعايا ممنوع إلا لأسباب إنسانية.

معكم سولال رشدي. من مواليد مدينة تارودانت سنة ١٩٨١ ميلادية. أمه سارة الأندلسي وأبوه مجهول الهوية. يقولون إن من بنى هذه المدينة هُوَ مُحَمَّدُ الشَّيْخِ السَّعْدِيِّ. لا. من بناها هم العمال والحرفيون والمهندسون والحمالون والنجارون والحدادون أما الأمير فقد كان يأمر وينهي فقط. المهم أرضعته يارة الشنقيطي وكفلته وربته وَهُوَ لم يطلب أكثر مما أعطته من حبٍّ وحنانٍ وحليبٍ نديها. أخته من الرضاعة فاطمة رشدي. شقيقة الزحام والشغب والغيرة الطفولية ...

الوقت يمضي يا سمير. أريد أن أرى الأب برنار لأقنعه بمساعدتي.

بناء الكنيسة بسيط وقديم. لا شَيْءَ فِيهِ من الغرب. كُلُّ مَا فِيهِ روداني، الزليج والفسيفساء والجدران الحجرية. والأبواب الخشبية والسقوف المزينة بالجبص. غرفة الأب برنار مترفعة عن الامتلاك. زاهد في كُلِّ شَيْءٍ. ومنظم لدرجة كبيرة جدًّا. يضع أقلام الكنيسة في وعاء وأقلامه الخاصة في وعاء آخر حتَّى لا تختلط لديه ممتلكاته بممتلكات الكنيسة، ولديه دفتر يسجل فِيهِ مواعيده وحساباته ولائحة بتبرعاته بعد الموت. ووصية طويلة جدًّا، وثق بي لدرجة كبيرة. قَالَ إنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ جوهر الدين وليس الدين نفسه. كثيرًا مَا كَانَتْ لديه مشاكل مَعَ الكنيسة الأم بإيطاليا وعُيِّنَ في قرية بولونية مثلجة لِكِنَّهُ رفض الذهاب إلى هُنَاكَ وعاد إلى تارودانت مرة أخرى. كان تعيينه تعسفيًا وعقابيًّا؛ لأنَّه تأخر عن الصلاة في أحد الأحاد. وَلِكِنَّهُ كان متمرِّدًا عَلَى قرارات الكنيسة وبقي متشبثًا برغبته في المكوث بتارودانت. دخلت مكتبه يَقُولُ سمير. كلُّ شَيْءٍ كان خشبيًّا الأرضية والسقف والمكتب والكراسي والخزانات الملتصقة بالحائط. المليئة بالكتب المجلدة تجليدًا يدلُّ عَلَى قدمها. وراءه صليب من خشب الجوز عليه تمثال رجل مصلوب ينظر إلى السماء والدم يسيل مِنْهُ.

حين دخلت يا سولال كان همي أن أعرف من هِيَ أمك أو لآ. ولماذا ولدتك هُنَا فِي الكنيسة. الأب برنار لم يُعَيِّنَ قبل الألفية الثالثة وَلَا يمكنه أن يعرف. لِكِنَّهُ درجًا من أدراج القبو الذي هبطنا إِلَيْهِ من داخل المكتب كان فِيهِ أرشيفٌ مرتبًا حسب السنوات. كُلُّ ملفٍ يتضمن تقارير عن الكنيسة وسيرها ورعاياها المسجلين بها من سكان المدينة أو من السياح. ودفتر ذهبي ملحق بكل سنة. غَيْرَ الدفتر الذهبي الكبير الذي يوقع فِيهِ الرؤساء والشخصيات الكبيرة. تصور يا سولال. كنيسة صغيرة تحتفظ بتفاصيل تبدو للوهلة الأولى غَيْرَ مهمة. كمكونات الوجبات والمطعم وأوقات القداس وكلُّ مَا يحدث. أخذنا ملفًا ضخماً عن السنة الأولى من الثمانينيات. وبحثنا فِي كُلِّ ورقة. إلى أن وجدنا شيئًا يشير إلى سارة Sara L'affaire وقرب ملفها علامة عبارة عن نجمة خماسية حمراء، حين رآها برنار قَالَ إِنَّهَا فتاة من غَيْرِ رعايا الكنيسة من خلال تِلْكَ العلامة. وَهِيَ مسلمة من حي الأندلس الموجود وسط المدينة. كَمَا قرأ عَلَى الغلاف. وقلبنا الأوراق. يَقُولُ سمير وأنا أستمع لَهُ بَيْنَ اليقظة والغفوة بسبب المسكن.

الدهشة تملكنتي حين تراءت لي الحروف العربية بَيْنَ الأوراق. كَانَتْ مذكرات سارة الأندلسي. ووصية باللغة الفرنسية:

(من Wilfred Josephe إلى الأب جورج :

«من جوزيف ولفريد. أرجو أن تعتني بسارة وتضعها في قلبك. سارة لَيْسَتْ فتاة عادية بل هي رُوحِي التي لَيْسَتْ في جسدي. أنت تعرف كُلَّ شَيْءٍ وَقَدْ اعترفت لَكَ قَبْلَ شَهْرٍ تَقْرِيْبًا. إِنَّهَا خَائِفَةٌ جَدًّا وَلَنْ تَجِدَ مَكَانًا أَمْنًا أَكْثَرَ مِنْ غَرَفَةِ بَمَلْحَقِ الضِيُوفِ دَاخِلَ الْكَنِيسَةِ. لَا أُرِيدُ أَنْ يَرَاهَا أَحَدٌ مِنْ عَائِلَتِهَا خُصُوصًا. وَإِلَّا قَتَلْتِ تَطْهِيرًا لِلسَّمْعَةِ. أَنَا أَحِبُّهَا وَسَاعُودُ لِأَخْذِهَا مَعِي بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ. سَتَكُونُ قَدْ وُلِدَتْ. سَتَسْمِيهِ سُولَال. سُولَالٌ وَلَفْرِيد. لَنْ يَعْجَبُكَ الْاسْمُ الْعِبْرِي يَا أَبْتِي لَكِنِّي أَحِبُّهُ. لَيْسَتْ لَهُ عِلَاقَةٌ بِرِوَايَةِ الْيَهُودِيِّ كُوهِينَ، بَلْ إِنِّي أُرِيدُ كَسْرَ احْتِكَارِ هَذَا الْاسْمِ الْفَرَنْسِيِّ الْعَرِيقِ مِنْ طَرَفِ يَهُودِ فَرَنْسَا، إِنْ كَانَتْ فَتَاةٌ سَتَسْمِيهَا هِي زَلِيخَةَ. سُولَالٌ لَهُ رَنَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ وَحُبُّ قِيَادَةِ وَإِرْشَادِ. وَسَيَكُونُ رَائِعًا لِأَنَّهُ جَاءَ بَعْدَ عَشْقٍ كَبِيرٍ. أَخُوهَا سَيَقْتُلُهَا قَبْلَ أَنْ تَلِدَ إِنْ وَجَدَهَا. وَقَدْ هَرَبَتْهَا خَالَتُهَا مِنَ الْبَيْتِ اللَّيْلَةَ دُونَ عِلْمِ أَحَدٍ حِفَاطًا عَلَى حَيَاتِهَا بَعْدَ أَنْ اكْتَشَفُوا حَمْلَهَا. سَاعَدْتَهَا امْرَأَةٌ تَدْعَى يَارَةَ، مِنْ الْمَجَاوِرِ لِحِيَاهَا، لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ كَيْفَ نَنْزُوجُ. دِينُهَا لَا يَقْبَلُ بِي. عَشَقْنَا بَعْضُنَا كَثِيرًا وَقَدِمْتَ رَغْبَتِي بِنُطْقِ الشَّهَادَةِ أَمَامَ الْقَاضِي لِنَنْزُوجَ وَلَكِنْ أَبُوهَا وَأَعْمَامُهَا رَفَضُوا كُلَّ الْحُلُولِ. سَارَةُ لَيْسَتْ رَخِيصَةً بَلْ سَيِّدَةٌ وَأَنَا أَعْبُدُهَا. أَعْرِفُ أَنَّ إِيمَانِي ضَعِيفٌ وَلَكِنْ الدِّينَ لَمْ يَسْمَحْ لِي بِالْحُبِّ. وَحِينَ سَمِحَ الدِّينَ بِزَوَاجِي لَمْ يَسْمَحْ لِي الْمُنْتَدِينُونَ. سَاعُودُ لِأَخْرَجِهَا مِنَ الْمَدِينَةِ وَمِنَ الْمَغْرِبِ. وَسَأُرْحَلُ بِهَا إِلَى كُورْسِيكَا. ضَعُهَا فِي عَيْنِيكَ أَبْتِي. الْأَخْتُ إِيزَابِيلُ تَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ وَسَتَعْتِي بِهَا حَتَّى أَعُودَ. لَقَدْ جِئْتُ لِأَخْدُمَ الْكَنِيسَةَ وَوَقَعْتُ فِي غَرَامِ سَارَةَ. أَعْتَذِرُ لَكَ أَبْتِي. سَأَبْقَى مِنْ رِعَايَاكُمْ وَلَكِنِّي سَأَنْزُوجُ سَارَةَ. فَبِهَا نُورٌ لَمْ أَرَهُ فِي أَيِّ كَنِيسَةٍ أَوْ مَعْبَدٍ فِي الْعَالَمِ.

المخلص جوزيف ولفريد».

أبوك يا سولال ليس مجهولاً بل عاشقاً كبيراً. لا تبتك يا صديقي. تعلم أن دموعك تجعلني أفقد صوابي. دعني أكمل القصة. وقد صورت الوثائق من أجلك. فبرنار بعد أن تحدث إليك عرف حاجتك لمعرفة الحقيقة وتعاطف مع وضعك الصحي لم يمنعني من تصوير الملف والصور معي هنا كما ترى فأنا أقرأ لك منها. لكنه لم يسمح لي بتصوير كل مذكرات أمك. أنت الوحيد الذي يمكنه أن يراها.

لكنني صورت الصفحات الأولى. الآن قصتك واضحة من خلال وصية ولفريد. يبدو أنني عرفت مصدر تمردك. هذا الرجل الذي كان رجل دين وتمرد على الكنيسة هو أبوك.

- أين سارة الآن يا سمير؟

يحزنني أن أقول لك أنني لا أعرف يا صديقي. ويحزنني أن أقول لك أن ولفريد لم يعد لأخذها من الكنيسة. لقد مات في إيطاليا وهو ذاهب ليتحلل من مسؤولياته الدينية. كان ملتزماً رغم كل تمرد. رسائل سارة كانت في بدايتها عتاب على تأخره. وقد وعدنا بالقدوم قبل موعد الولادة. لكنها استسلمت لأمر غيابه قبل أن تصلها أخبار عن طريق الأخت إيزابيل أنه توفي في حادث سير. فبدأت تكتب له ولك. عرفت أنك ذكر. أمك قديسة يا سولال. حافظت على وعده. انظر (...سولال

هُوَ الاسم الذي سأناديك به. سيكون غريباً مثلك في مدينة كهذه، أفكر في الهجرة هرباً بحياتي وحياتك. ولكني لا أستطيع الآن. أنا مريضة جداً ومتعبة. إن تمكنت من وضعك سأناديك سولال. طلب مني ولفريد أن تكون مسلماً ثم لك الحق في اختيار دينك فيما بعد. لقد قال ذلك لأنني مسلمة. عاصية وفاسقة في نظرهم. لكني عاشقة في نظر نفسي وفي عين يوسف أو جوزيف. لا أقدر على تركه. أعلن إسلامه أمامهم ولم يرضوا به. تصوّر أن يغير دينه من أجلي. قالوا إنها حيلة لتنصير بنات المدينة من خادم كنيسة فرنسي مُخلص لنصرانيته. الحجج معدة سلفاً لقتل حبّ ممنوع كهذا. لستُ فاسقة يا سولال. لقد تزوجنا وشهد على زوجنا شهود مسلمون. حاولوا إعدام حبنا ولكننا انتصرنا. انتصرنا بك. حلمًا وتحديًا وحبًا ورغبة ونورًا. أنت نور حبنا يا سولال. أتمنى أن أضعك في صحة جيدة. أريدك أن ترى الدنيا وأنت في كامل بهائك وصحتك. أما أنا فالضعف يأكلني ...

لا تبتك يا سولال وإلا ارتبكت. قال سمير. وأنا أفهم ارتباكك. فقد يمضي هرباً من الموقف. وأنا لا أستطيع أن أهدأ. كيف وصلت إلى حضن آل رشدي؟ أتمنى أن أشفى لأذهب لاستعادة مذكرات سارة الأندلسي، لماذا لا تقول أمي؟ سألني سمير.

- لأن لي أمًا ولي بيت ولي إخوة. ولأني لا أدري.

في اليوم الموالي جاء الأب برنار من مدينة تارودانت لزيارتي. دخل في لباسه اليومي. سروال جينز أزرق كلاسيكي. وقميص سماوي فضفاض بربطة آباء الكنيسة الكاثوليكية ارتدى قناعاً طبياً حسب تعاليم الممرضة وجاء يسلم عليّ. فتحت عيوني بصعوبة كبيرة، يبدو أنني سأموت قبل أن أعرف القصة الكاملة، في عينيهِ حب كبير وهو ينظر نحوي. قال إنه قرأ كل مذكرات المرحومة سارة الأندلسي وجاء ليخلصني من كل شكوكي. وقد أحسست من كلمة المرحومة أنني يتيم من جديد. وأنا ولدت بحزن عميق لا يُشفى. بدأ يتحدث وكنت أحاول قدر استطاعتي أن أسمع قصتي قبل أن ينهكني المرض الخبيث ...

«سارة سيدة عظيمة. بقيت في الكنيسة الخمسة شهور الأخيرة من حملها، بعد أن بزغ بطنها. جداول المطعمة والأدوية تدل على ذلك، ومذكراتها التي كتبت نصفها بالفرنسية والنصف الآخر بالعربية. لقد ماتت بعد أربعة أيام من ولادتك وأوصت ...»

تدخل أمي وتتنظر بتحدٍ في وجه الأب برنار. كانت تتنصت للحديث من وراء الباب على ما يبدو، من خلال صليبه وياقة قميصه عرفته. تقدمت منكئة على عكازها وجاءت نحوي:

«أوصت بأن تربي الشنقراطية هذا الملاك. حتى لو عاشت بعد وضعه، يستحيل عليها الدخول به على أسرتها، سيعتبرونه بهتاناً افتترته بين أرجلها؛ لأنها مثل أختها وأمينة سرها وحبها. بقدر ما وبختها على تهورها بقدر ما سترتها. كنت حاملاً بفاطمة وأعرف عذاب الحمل. وهي تدري أن

الشنقيطية وحدها تستأمن على كنزها. في آخر أيامها بعثت ببواب الكنيسة إليّ ليخبرني بوجودها هناك وبأنها ستضع مولوداً. ذهبت لرؤيتها عدة مرات، لكن ألم الولادة لم يترك لي فرصة لأجالسها في المرة الأخيرة. أخذوني للمستشفى لألد وبعد استيفاضي عرفت أنّها أيضاً وضعت مولوداً ذكراً وأنّها توفيت أثناء الوضع. خرجت من المستشفى في اليوم الثالث. وقلبت الكنيسة رأساً على عقب مسلحة بوصيتها بترك ابنها في عهدتي وبتدينه بدين الإسلام برغبة أمه وأبيه. تدخلت في الوقت المناسب قبل تسجيله بدار الطفولة كمتخلى عنه، سجلت كفالتي بالمحكمة ووضعت كنية زوجي رغم رفضه. لأضمن لسولال أوراقاً ثبوتية سليمة. انظر إليّ يا قرة عيني. أنت لست أوراقاً ثبوتية. أنت رجل. لا تحتاج أوراقاً لتعرف أنك رجل وأنك شهم وشجاع... سيدي برنار. ألا ترى القوة في عينيه. هل هذا الأسد يحتاج من يقول له إنه قويّ وإنه ابني. وهذا الثدي الذي أرضعك يتذكر يدك الرقيقتين وهما تضغطان عليه ليدر حليباً. ما زال ثديي هذا يشبعك حناناً قبل الحليب. وحتى الآن. هل تحتاج أوراقاً لتكون أنت. صاحب أشهر مطعم بساحل أكادير. عليك أن تشفى لتسمع كل الحقيقة، لكني أؤكد لك. ولسمير والأب برنار والجميع أن التي ولدتك سارة الأندلسي وأنا التي أرضعتك يارة الشنقيطي أختان لا فرق بينهما، وعليك أن تتفخر بسارة لأنها تركت عربون حب وإيمان (...).

السمراء تغني. أي لحن أسمع الآن وأنا على سرير البياض، وهذا السديم أمامي. عرفت الحقيقة. أنا أسطورة حبّ ولست خطأ غريزة، يمكنني أن أعوم في هذا البياض الآن وأرحل. وصوت السمراء الذي يناديني من عمق الدار. وأنا أحتبئ خلف الباب الخشبي الثقيل وراء الخابية المزملة بالخيش والتي نبت الشعير في حواشيتها. أركض لأصطدم بالمغسل النحاسي الموضوع بباب غرفة الضيوف بعد نحنة أبي القادم من حانوته، فلا أجد بداً من الفرار بجلدي إلى حوض الشنقيطية التي تستحلف أبي أن يعفو عني.

أنا سولال، سولال وفريد رشدي الشنقيطي، من مدينة تارودانت، ولدت في الكنيسة الكاثوليكية، ولدتني سارة الأندلسي وأرضعتني يارة الشنقيطي، محارب سرطان. متشبث بالحياة التي تتلخص في كميات من الدم التي يحقنونها في جسدي كل يوم، والطبيب يرى الأمر عبثاً، فلا يمكن الاستمرار في حقن الدم بهذا المعدل في انتظار جواب بنك الدم الإيطالي. أو في انتظار متبرع. يدفع أخي كل تكاليف المصحة الباهظة. ويزورني كل يوم مرتين، وكذلك أخواتي اللواتي يعملن معه. أما أبي فقد أخبروني أنّه أغلق حانوته ويرابض بباب المصحة، ينظر إليّ من خلف الزجاج كل ساعة وساعتين دون أن أراه، والدموع لا تفارقه. الطبيب قدّم آخر تذكير لبنك الدم، وبعد أسبوع آخر سأبدأ بروتوكولاً جديداً من التداوي الكيماوي الحارق، فكرت أن أنظم حفلة وداع لكل أصدقائي ومعارفي في المطعم لكن أخي رفض الفكرة وهددني بأن يموت معي إن أقدمت على عبث كهذا، يقول إنّها طاقة سلبية ستدعم السرطان ضدي؛ لأنه مرض طاقي يتقوى بالاستسلام.

عظامي بارزة تحت جلدي الشفاف، عيوني غارقة في الوهن والذبول. لا أنا بميت ولا أنا بحي. أنظر إلى سقف الغرفة وأرى مسرحاً من الأطياف التي تسليني في وهني.

عرفت الحقيقة. أنا سولال ويلفريد رشدي الشنقيطي. أنا لا أحتاج هذه الملصقات والتوابع الزائدة. أحتاج حياة جديدة، أنا ابن الصلصال وإليه أعود، من التراب وإليه. وهذه هي حقيقة الوجود الكبرى. بنيت أيامي على مجموعة من القرارات البسيطة كحياتي، جئت إلى هذه الدنيا من قصة عشق أندلسية. لا أحجل بذلك. بل أفخر به أمام هذه الجدران البيضاء. طلبت منهم تغيير ستائر غرفتي ووضع ستائر خضراء فاتحة بأوراق تين مطبوعة عليها. كثيراً ما أعجبت بخشخشة أوراق التين اليابسة. الممرضة التي تكتب ما أمني عليها بدأت تخشى موتي فجأة. لكني هنا وما زلت حياً. أمني ضعيف في الحصول على النخاع العظمي. بسبب قلة أصحاب خريطتي. الممرضة تصحح الكثير من الأشياء في أسلوبها لأنها تعتقد أنني أكتب رواية، أنا لا أكتب رواية. بل سيرتي الذاتية، وهي ذاتية لأنني عشتها كما أريد وكتبتها كما أريد.

- يا سولال؟

- نعم.

- ماذا أفعل بكل أوراقك. لقد سوّدنا حتى الآن مئات الصفحات. هل تريد نشرها.

- لا أدري أنا أحب أن أحكي. وحكيت حياتي. إنها أمانة ثقيلة جداً.

- لا تقلقي. على كل حال إذا مت. فسمير هو الوحيد الذي يمكنه الاحتفاظ بها ونشرها إن أراد ذلك. له كل الحق.

- إذن سأقدمها إليه.

- وهل مت؟!!

- بعد عمر طويل. كما أننا لم نتزوج بعد. وتضحك.

- صحيح. أخبريني. لم لا ترتدين لباس العمل؟

- أنا أكتب ما تمليه عليّ خارج وقت عملي. هل تعتقد أنهم سيسمحون لي بالجلوس هكذا دون عمل من أجل كتابة مذكراتك الشخصية.

- تفعلين هذا من أجلي ودون أن تتعبي. إنه وقت نومك وراحتك.

- لا يهم. أنا مهتمة بما تحكيه لي، وأتمنى حقاً أن تنشرها قريباً.

- نعم سأنشرها ضمن الآداب السرطانية، على غرار الآداب السلطانية... ههه ...

تَقُولُ الممرضة إن ضحكتي لم تكتمل وأني دخلت في نوبة ألم حادة واهتزازات غير متوقعة، وأن الطبيب حضر في الحال وأمر بإجراءات قصوى للعناية الفائقة. أنا الآن مربوط إلى أجهزة أخرى. أنابيب. أنابيب. الكثير منها. غرفة الحقن فوق قلبي. وعيوني الذابلة المتعلقة بالباب الزجاجي. أريد أن أرى الشنقراطية لأودعها. فقد جفت أوراق التين على ثوب الستارة وأنا أسمع خشخشتها السنوية. قبل سقوط المطر الذي يبللها ويجعلها لينة لا يسمع لها غناء. والحلازين التي تخرج من تحتها ببطء شديد تاركة وراءها خيطاً من اللزوجة. ها أنا أراقبها عن قرب وأنا أجتو على ركبتي. أحاول لمس عيونها الصغيرة التي تشبه الهوائي. ينتهي الخريف وتبدأ الحلازين بالظهور معها في صندوق ورقني ونربي صغارها حتى تكبر. نطعمها الأوراق الخضراء ونسقيها. لا ندري هل تشرب أم لا، لكنّها تكبر. لا نأكلها ولا نبيعها. نستيقظ فلا نجدها، وتتملكنا الدهشة. كيف هربت من الصندوق الورقي المغلق بإحكام؟

يدخل الطبيب وابتسامته التي لا تفارقه فلا تعرف إن كان يحمل أخباراً سارة أو محزنة. الجهاز يقول إنني بخير. (اكتبي الباقي يا يسرى).

يقول الطبيب إنه حصل على جواب من بنك النخاع العظمي وأنه سيعدني للعملية بعد أن تتحسن مناعتي قليلاً. ودخلت بياض الثلج لقد أحببتك يوماً قلت لها.

«ليس مهما أنك أحببتني يوماً. المهم أن تحبني دوماً».

هكذا بدأت حديثها بعد اعتذاري الشديد عن كل ما بدر من قلبي من خيانات صغيرة. واستوت في جلستها كأنها تحدث صديقاً قديماً لا أقل ولا أكثر. هادئة وفي نظرتها شيء من السطحية. قابلت كل اللهفة من طرفي بنظرة لا تتجاوز رموشها. لا يمكن أن تبرر فعل التحلي. لا يمكن أن تبرر فعل الصمت. لا يمكن أن تبرر فعل الهروب، فالحب لا يعترف بالبؤساء والصامتين والخائفين. لا يكفي أن تقسم بجلال وجنتيها ولا بعظمة شفاهاها كي تغفر لك خطاياك الصغيرة، ففي عالم الحب لا كفارة للهروب والخيانة. الهجران يوم قيامة.

ونظرت من حولي. رأيت فنجان الكافي كريم يذوب على الطاولة والماء البارد الذي طلبته هي يبرد إلى درجة التجمد، والطاولة أيضاً تمارس لعبة الاهتزاز وتحارب ضد هدوئي، وأنا اعترف بأفعالي وأرتب خياناتي كي تليق بحب كبير.

لا فائدة من حركاتي التي لا تعبر إلا عن سخفي، وسمعت الجملة البغيضة التي كرهتها طوال حياتي «restons amis» نسيت أن أحكي ذلك. كان عليّ أن أتزوج منها.

- لكننا كتبنا أنك تركتها بعد قرار بسيط. هل أعيد تصحيح الأمر؟

- لا يا يسرى. دعيه. فهو حقيقي أيضًا. حسن.

- هي التي اتخذت قرارها وليس أنت. كلكم متشابهن. الحمد لله أنني لم أتزوج بعد.

- لن تتزوجي غيري. هذا وعد منك. لكن أخبريني. هل كانت بياض الثلج هنا؟

- لا إنه فصل الصيف.

إنها أيام صعبة جدًا ولكنّها ستمر على كل حال. البرد قارس في الخارج والرياح شديدة العصف في داخلي. الحدود بيني وبين الطبيعة وهمية، فالمطر يدمع في صدري والأنهار تجري قلقلًا في جوانبي. والأشجار اللينة التي تتحني حتى تمر الريح ولا تتكسر هي أفكار التي تحاول التأقلم مع الواقع. مع هذياني الذي بدأ يقلق الجميع. هكذا كنت دومًا.

أرى الآن أشياء لا يراها الآخرون من شدة وهني، أرى الماضي راقصًا أمامي. ولا أرى المستقبل. أنا في منطقة العبور.

انتهت في مصحة بمدينة أكادير، جنوب المغرب.

صيف ٢٠١٨

معكم الممرضة يسرى ...

كان سولال محاربًا شجاعًا. شهداء السرطان ليسوا مرضى عاديين بل محاربين حقيقيين، وكان سولال واحدًا منهم. ترك الأوراق في عهدة صديقه سمير، وتنتهي مهمتي في نقل حكاية هذا الرجل البسيط. قد لا تعني شيئًا للكثيرين لكنّها بالنسبة لي تعني الحياة في بهجتها وغضبها. في تعقيدها وبساطتها.

معكم سمير ...

ليس من حقي لمس الأوراق ولو من أجل تصحيح خطأ لغوي، لكن لا بد من تعليق، فالكثير مما قاله سمير خصوصًا عني، حقيقي، ولكن في بعض المواقف التي تتطلب التدقيق قال الكثير من الوهم الذي سطره قلقه الكبير واهتمامه المزعج بالأشياء والتفاصيل. لا أفنقد سولال فهو حي بالنسبة لي، لن يموت أبدًا وسيظل حيًا في قلبي. كان ينتقد ذوقي بشدة وأنا مختلف عنه كثيرًا.

كنت أقول له إنني لا أريد أن أتعلل. الجنون يجعلنا أصغر، لا أحب الملابس المكوية والأقمصة السوداء الأنيقة والبذلات المصنوعة على المقاس. الأمر مزعج جدًا. سروال أكبر بمقاسين أو أكثر.

قميص بدون أزرار. حذاء رياضي رخيص، قبعة قديمة، هذه الأشياء تجعلني منسجمًا مع نفسي سيد الألوان والفرح. أمضي وَلَا علامات تجارية تشتريني، وحين يتقلني معطفي أتركه عَلَى أقرب كرسي في الحديقة العمومية وأرحل.

لقد صرخنا حين ولدنا. وَتَقُولُ أمي إنِّي لم أصرخ جيدًا. وكأني أحتفي بالحياة وها أناذا أصرخ من خذلان الحياة ندمًا عَلَى صمتي الأول. بدون صوت نبكي نمضي والنصال تنغرز فينا ... ونمضي ... نمضي ... والحزن يسيل منا. عاش سولال وَهُوَ يحارب، يحارب القلق والتفاهة التي اكتشفها مبكرًا في هَذَا العالم. حارب ذاكرته التي تنتقي الألم ودماغه الذي يدور بسرعة كبيرة، أصعب مَا قَدْ يحدث لَكَ هُوَ محاربة صور الذاكرة. حيث تتوالى الضربات وتتحوّل إلى أشخاص وأماكن. تكثُر المنعرجات بسبب ذَلِكَ ويزداد إجهادك ... تناور وتناور دون فائدة. وتكتمش عَلَى ماضيك تقكك وتتحلّل أغازه رفقة صديق غالبًا، ولكن الأمر لا ينتهي أبدًا ... الصراع مستمر ضد ذاكرتك الوحش. وَهَذَا ما يحدث لي ولكن صديقي الذي أدبته بأنانيتي المفرطة ليس هُنَا، ليس هُنَا حتّى لأعتذر إليه عن سوء التفاهم، ليس هُنَا لأشرح لَهُ موقعي.

الشَّمْسُ والغبار ووجهي الأصفر، غاب صديقي، أتربة الحياة ترقص نسفًا تتطاير كالهذيان

وَلَا مطر

نسر شامخ أضاع الطريق

حط عَلَى حريق

كان يقرأ رواية مبعثرة الفصول

وينط من شدة الألم

صحراء داخلي وحجر

جوراسي التكوين كحزني

قديم كثلاثية الفصوص يهوي

إلى النار ويدوب، يغلي

يصبح أكبر.

في كُلِّ سطر آية للتبعثر صمتًا

على وجود مقفر يهوى لعبة الموت

أردت أن أكتب عن سولال؛ لأنه ليس كباقي البشر. لكني فقدت معجمي، بل فقدت حروفي. جاهدت كثيراً وكانت المحرقة تنتظر سطوري، الآن أنا أكتب فقد من شدة الفقد. أفتقده إذن. كعش أصابته ريح أسقط عن الشجر.

أسقط عن سبق احتضار

قط يموء في الظلام

من هول الفجعة يفقد فروه الحزين

ويموء يموء في ضجر

يقلب حقيقة الغروب

وشمس لم تشرق هذا الصباح.

حين ولجت المصحة لأخبره عن قرار الكنيسة بتسليمه مذكرات أمه. أحسست بشيءٍ مخيفٍ يزاحمني في الطريق، دخلت المصحة.

إلى النار المحرقة ...

دخلت المصحة الفارغة منه ...

رأيت السرير الفارغ

في العيد الفارغ ...

وكان هو في داخلي

ينظر عبري ويبتسم كعادته

تناولت كعكاً فارغاً

وتمرّاً مسوساً

وشربت شايًا فارغاً من الشاي

أمسك الحياة بين يدي

فتحترق القهوة في الفنجان

أعوم في اللامذاق

كفأقد اللسان

وأشرب نخب العمر الآتي

كي لا يتقنت الوقت على طاولتي.

أفتقدك والدم يسيل من هذياني

كنهر يهرب من الجبال

ليموت في الخلجان ...

ركضت مسرعاً نحو الخارج كلي مبعثر، والطبيب الذي سيجري عملية الزرع كان يشرح لبعض المتدربين سبب الوفاة. وأنا أركض لأخذ سيارتي وأتجه إلى البحر. أريد أن أبكي كتلة بحر من الدموع، ولكني لم أستطع أن أقود السيارة، فركضت بأقصى سرعة لديّ كأني أهرب. من كل شيء أهرب.

في غيابات البعيد

والأسئلة الحائرة

روحي تستأنس

بالوجوه الغابرة

تمسح النور عن أضواء السيارات

وتجمع النجوم في سلة

وتتقب المجرات

كي أرى ما وراء الورااء

وترتاح مثل روحك يا صديقي

في جنة الخلد

هُنَاكَ.

صور من صوركَ

وتعليقاتي الحزينة

كنت أقولها لكَ ويدي في جرحكَ

يا سيد الصبر

وعظيم الكبرياء.

انظر إليَّ من هُنَاكَ الجميل

وابتسم لي بجواب يشفي

عللنا المستحيلة

ونظرتك المستحيلة

شوقي إليكَ يمتح من عزلة المقابر

هُنَاكَ في البعيد

نوركَ تحت التراب

يؤنسني

شاطت القهوة في الإبريق النحاسي

وخرجت مِنْهَا رائحة الموت البني

مَا أفسى أن يَكُون الكون

مضادًا للفرح

مَا أَقْسَى أَنْ تَسُودَ الذِّكْرِيَّاتُ الْحَزِينَةَ

وَيُسْتَوَزِرُ الْفَقْدَ

أَحْتَاجُكَ حَبِيبِي

لِنَظَرَتِكَ السَّرِيَّةِ

الْبَاكِيَةِ دُونَ دَمْعِ

أُرَاكَ بَعِيدًا فِي خَلْدِ

غَنِّ أَغْنِيَةِ الصَّمْتِ

وَصَلِّ صِلْ صِلْ

عَلَى مَنْ تَرَكْتَهُ

فِي دُنْيَا الْعَبَثِ

مَكْتُوبًا بِاللَّافِهِمِ

تِلْكَ الْقَطْرَةُ عَلَى زَجَاجِ السَّيَّارَةِ الْأَمَامِي

تَتَزَلَّقُ حَزَنًا عَلَى الْحَوَاشِي

تَتَطَايَرُ فِي الْفِضَاءِ

وَتَبْكِي وَهِيَ الْبِكَاةُ.

انتهت بي جولتي قرب البحر، قرب المطعم الشنقيطي الذي أسسه سولال. المطعم مغلق، الحداد يلف المكان بالسواد. الموت يجعلنا نندم على اللحظات التي أضعتها بعيداً عنّ نحب. أضعتها لأسباب تبدو تافهة. ما معنى الكبرياء مثلاً أمام لحظة واحدة نعيشها مع مَنْ نحب؟ البحر أيضاً في حداد. صورة سولال لا تفارقني. حين كان قوياً ونشيطاً ومفعماً بالأشياء الحية. لغتي لا تسعفني. لَيْسَتْ كلغته الواضحة واللينة، أنا تلفني الاستعارات وتعصف بي المعاني الغامضة، وكل شيء أكتبه لا تفهمه إلا المحرقة.

أيها البحر الرمادي.

لا تحدثني عبثاً

عن تاريخ السفن والسفر

فجمجمة البحار في قعر المحيط

وسواري الماضي

تحت الماء تأكلها الحيتان

والقرصان وحده فوق الماء

يعبث بنهد الجميلة

ويعد سبائك الغمام المعلق بالعماء.

وَلَا مطر.

لا مطر يغسلني من حزني.

لا مطر يبكي معي حزني.

لا أحد يسمع حكلي

وَلَا أحد يحكي

شهرزاد أمريكية الهوى

ترقص في الحانات

وَلَا تحكي.

تكتفي بالنظر

وتبكي.

تمد نهدها العاري لعابري التاريخ

سافرة كقمر

أخطأ مداره من شدة الضجر.

وَلَا مطر.

قررت أن أكون تمثالاً، وجهي رخامي العبارات، وعنقي بلاستيكي من تشكيل فناني البوب أرت، وأن أكون أبيض عاجي الصبغة وأن أتابع دروساً خصوصية في فن السكوت، فلا معنى لتمثال ثرثار يبتسم طوال الوقت. للصديق للعدو، للحاضر للغائب، للمهتم للمهمل، سادع رذاذ الموج ينسل عن ظهري كالصدى، وأسير بحذائي داخل البحر، لا أريد أن أكون تمثالاً في حديقة بقصر الملكة. بل في حديقة عامة، وَلَا أبرق إلا حين تلامسني الشمس وتحنو عليّ.

سأصادق الحشائش التي تنمو بقربي

دون أن أكلمها فقد درست أن صحبة

التحف تكون بالصمت.

وَحَتَّى شذراتي الأخيرة لن تكون لُغَةً

ستكون سيمياء تنتقل بين الدال والعشق

بين الصمت والوقت المنسحب من ساعتَي اليدوية.

قبل تكلسي. وقبل تحولي. قبل غرقِي.

صديقي سولال، ما أقسى أن نعتذر للموتى، أنا آسف يا صديقي. أغضبْتُكَ ألف مرة بتمردِي الرخيص. أتذكر آخر رسائلِك التي كنت تعاتبني فيها حين أوحيتُ لَكَ أن لديّ ميولات انتحارية غريبة، قلتُ لي سلسلة من كلمات كالذهب:

«حبيبي سمير، ملعونة هي الحماقات التي تجعلك تتخلى عن نفسك في لحظة ضعف. ملعونة هي الاستدلالات التي تجعلك تحزن بدل أن تغضب. ملعونة هي الصفقات العاطفية التي تجعلك منهكاً جدّ التعب. ملعونة هي التنازلات التي تتركك عارياً من كبريائك. ملعونة هي الحسابات التي تضرب كل شيء في الصفر وتتركك شريداً من أحاسيسك. الجحيم لتلك الوقائع الموقلة. لتلك التصديقات الواهية. وميزان حجم الخسارات يميل جهة الظلم. لا تدفع ثمن استثنائيتك، قاوم أكثر وحارب بأسلحة جديدة».

البحر أمامي وسولال ليس بجانبني، ولكني أسمع صوته الذي ينادي. ينادي بالكثير من المشاريع التي كان يحلم بها: جمعية مرضى السرطان، ملجأ الأيتام، صالات الرياضة بالأحياء الشعبية ...

أعود إلى الضيعة وأعزف لحناً حاداً على القيثارة. لحناً يدمي أصابعي من جديد، أعزف وأغني وأبكي.

وجه الشنقيطية لا يفارقني، أي قوة تمتلك هذه السيدة العظيمة؟ أصرت على ألا يوضع جثمان سولال في صندوق خشبي. تبعت الجنازة رغم معارضة الحاج رشدي لأن نساء هذه المدينة لا يرافقن الجنائز، ودفنته بيديها. في مقبرة الشهداء. وقبل خروج الجنازة زغردت زغرودة طويلة لأنه مات عزباً؛ ولأنه شهيد على حد قولها، فكانت تزفه إلى الجنة وقد وضعت حناء في يده. بكل شجاعة رافقته إلى مثواه الأخير في مهابة وانعدام خوف. كأنها تعلم يقيناً أين ستجده. تزم شفيتها كي تمنع دموعها من النزول وتمنع من سمعتها تتوح من نساء الحومة.

- إنه ملاكي، مثواه الجنة، لا أحد سيكيه. لقد عاش كريماً ومات كريماً. سولال ابن الشنقيطية السمراء. تقول وهي في كامل حضورها. الله وحده يعلم كم روحك كبيرة وقلبك شاسع.

كانت في الثلاث أيام الأولى للحداد تستقبل المعزين وهي واقفة كما تقف في عرس بناتها. بنفس الحزم واليقين.

وبعد أسبوع جمعت أبناءها، الفتيات ومحمد سالم والأب رشدي في اجتماع مهم.

- أريد أن أخبركم أمراً، سولال مثل الأنبياء لا يورث، ليس لأنه لم يترك شيئاً بل لأنه نبي حقيقي، لا يمكنكم الاعتراض ولا يمكن لشياطينكم اللعب بعقولكم أو بعقولكن. كل أمواله باسمي وكي لا تعبت بها الإدارات والمحاكم والجمعيات فقط سجلها باسمي قبل وفاته، رغم أننا كنا على أمل أن يعيش. مشاريعه ستستمر وتكبر وأرباحها ستذهب لتأسيس جمعية محاربة اليهودجكين. وملجأ الأيتام مع سيارات الإيواء الاستعجالي للأطفال المشردين. سمير سيتكفل بإدارة كل شيء؛ لذلك هو حاضر معنا اليوم، وبعد وفاتي ستسجل باسم الجمعية والمركز لأنني لا أتق إلا في نفسي.

لم يكن اجتماعاً، كان إخباراً بقراراتها البسيطة. لا أحد أبدى اعتراضاً إلى أن تدخل محمد سالم الذي بدا عليه الحزن الشديد وفقد وزنه بسبب انسداد شهيته.

- أنا أيضاً سأدفع جزءاً من أموالي لهذه الأعمال الخيرية. فأنا أيضاً ابن رشدي والشنقيطية. وسأساعد سمير في التسيير والتدبير. خبرتي كبيرة ولدي علاقات كثيرة ويمكنني جلب المزيد من الدعم والتبرعات.

كنت كمن حظي بعائلة جديدة، أنا المطرود من القبيلة، بعد وفاة جدي تصارع الجميع حول أملاكه عوض الاهتمام بدفنه. وكنت آخر من رآه قبل موته، كأنه كان ينتظرنني ليودعني، هو الذي رفض

أن يراني بعد طلاقي من سيليا.

ها أنا أواجه الحياة بالحياة. كما لم أتصور يوماً، أمنع الحزن بالعمل وأنتكر لكل لحظة ألم. لست سعيداً، لا لست سعيداً أنا فقط محايد. أتخذ قرارات بسيطة من أجل الآخرين. هؤلاء الأطفال الذين يملأون الميتم. على هذا الحزن المغربي أن ينتهي. لا يمكن أن يستمر الناس في سرقة الوطن. من أجل الطفولة البريئة عليهم أن يعوا أن الحياة مشاركة. اللعنة على رجال الأعمال الذين لا يشبعون من التهام أرباحهم وأرباح غيرهم وميزانيات الدولة.

على هذا الربيع أن يتوقف. وأن تستقيم الأمور.

الشوارع المكتظة بالأزبال والمشردين والمتسولين والمجانين.

البنائيات العشوائية التي تفتقد للجمال ...

الطرق الحزينة غير المعبدة ...

اللافتات التي تستعبد الناس وتدعي الفرح في المناسبات الوطنية.

الحدائق الصفراء التي لا ورد فيها ...

ألعاب الأطفال المكسورة والمرمية فوق رمال مختلطة بالشوك والأغصان اليابسة.

على الحزن المغربي أن ينتهي.

المعادين والفوسفاط والسردين والذهب والفضة والمعامل والمصانع والأراضي الفلاحية التي احتكرها تجار الوطنية، الربيع ثم الربيع الذي يقتل المنافسة الشريفة، الاقتصاد المغلق المبني على الولاء. المدارس الحزينة التي يتلاعب السراق في تدبيرها. العقول التي تهاجر إلى أمريكا وكندا كي لا تتلف أو يصيبها الجنون عليها أن تبقى هنا لتبني هذا الوطن التعيس. السجون المملوءة بالمعتقلين من أجل الكرامة. كل شيء يجب أن ينتهي كي نعيش بسلام، ويزول هذا الشحوب العام الذي يلون الشوارع. أي شعب مسكين هذا الذي ورث عقد العرب ولعنة الأندلس وصمت الأمازيغ وهمجية الاستعمار.

متى تدق طبول الفرح؟

هوامش

القاعة السينمائية الوحيدة بمدينة تارودانت، وكانت تعرض الكثير من الأفلام السينمائية الهندية.

بائع دوار الشمس والفول السوداني المحمص.

ساحتان من ساحات المدينة التاريخية.

ممر بين الباب الرئيسي للبيت والباب الثاني، وهي هندسة في البيوت القديمة بتارودانت.

A la recherche du temps perdu.MARCEL PROUST .

Quand la beauté fait mal.Recherche sur la dictature de la beauté .

Les oiseaux se cachent pour mourir

انتهى ونضب.



كيان للنشر والتوزيع

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01001872290 / 01000405450

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا
وأنشطة كتابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات
التواصل الاجتماعي التالية:



KayanPublishing